إتحاف البررة

بتفسير

الجزء الثالث

٣-٦

تأليف

د. محمد بن رزق بن طرهوني

١٤٢٦هـ

هذا الكتاب عبارة عن المحاضرات التي سجلها

الدكتور محمد طرهوني

لطلاب جامعة المدينة العالمية بكلية القرآن الكريم

والتي كانت بمعدل ستين محاضرة لكل فصل وأتم في ذلك

فصلين كاملين وذلك عام ١٤٢٦هـ

المحاضرة الحادية والأربعون

***

تفسير الآيات من (١٠١) إلى (١٠٣) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.}

القراءات:

قرأ نافع وعاصم وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب{ وَلَكِنَّ }بالتشديد وفتح النون، و{الشَّيَاطِينَ}بالنصب، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر بالتخفيف وكسر النون و{الشياطينُ}بالرفع بالابتداء. وهما لغتان عند العرب إلا أن المشهور أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فقراءة التشديد فيها زيادة تأكيد والله أعلم.

المناسبة:

ما زال الحديث عن جرائم اليهود وكفْرهم وعنادهم وإنكارهم نبوّة النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ ولما كانت سنّة الله جارية بأنه ما أمات أحد سُنّةً إلاّ زاد الله في خذلانه بأن أُحيي على يديه بدعة، أعقبهم نبْذهم لكلام الله إقبالَهم عل كلام الشياطين.

كما أنّ ارتباط ذلك بالسيرة واضح؛ فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– لما قدِم المدينة وصارت اللقاءات بينه وبين اليهود وكلها تُثبت صدقه ونبوّته، ومع ذلك كفروا به، وبدلاً من تصديقه سحروه عن طريق ساحرهم لبيد بن الأعصم، ليفرّقوا بينه وبين زوجه، فكان يُخيَّل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهنّ –كما سيأتي في الحديث المتفق عليه–؛ ونزلت سورة (البقرة) تحكي كلّ ذلك.

اللغويات.

{وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ :}جمْع ظهر، وهو معروف، ويجمع أيضاً على :ظُهران. وقد شبّه ترْكهم كتاب الله تعالى وإعراضهم عنه بحالة شيء يُرمى به وراء الظهر؛ والجامع: عدم الالتفات وقلة المبالاة. ثم استعمل ها هنا ما كان مستعملاً هناك، وهو: النبذ وراء الظهر، والعرب كثيراً ما تستعمل ذلك في هذا المعنى، ومنه قول تميم بن مر :

لا تكوننّ حاجتي بظهْر   ولا يعيي عليك جوابُها

{سُلَيْمَانُ :}اسم أعجمي لنبي الله الكريم سليمان بن داود –عليهما السلام–. وامتنع من الصرف للعلَمية والعجمة، ونظيره من الأعجمية في أن آخره ألف ونون: "هامان" و"ماهان" و"شامان"؛ وليس امتناعه من الصرف للعلَمية وزيادة الألف والنون، كـ"عثمان"، لأن زيادتهما موقوفة على الاشتقاق والتصريف، وهما لا يدخلان الأسماء الأعجمية.

و{السِّحْرَ :}في الأصل مصدر: سحَر يَسحَر، –بفتح العين فيهما–، إذا أبدى ما يدقّ ويخفى. وهو من المصادر الشاذة، ويُستعمل بما لطف وخفي سببه، والمراد به: أمر غريب يُشبه الخارق وليس به؛ إذ يجري فيه التعلّم، ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح قولاً: كالرّقَى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخيره، وعملاً: كعبادة الكواكب والتزام الجناية وسائر الفسوق، واعتقاداً :كاستحسان ما يوجب التقرب إليه ومحبّته إياه .

وذلك لا يستتب إلاّ بمن يناسبه في الشر وخبث النفس، فإن التناسب شرط التّضامّ والتعاون؛ فكما أن الملائكة لا تعاون إلاّ أخيار الناس المشبّهين بهم في المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله تعالى بالقول والفعل، كذلك الشياطين لا تعاون إلاّ الأشرار المشبّهين بهم في الخيانة والنجاسة قولاً وفعلاً واعتقاداً؛ وبهذا يتميّز الساحر عن النبي والولي .

وأمّا ما يُتعجب منه، كما يفعله أصحاب الحِيَل بمعونة الآلات المركّبة على النسبة الهندسية تارة وعلى صيرورة الخلاء ملاء أخرى، وبمعونة الأدوية كالنارنجيات، أو يريه صاحب خفّة اليد، فتسميته سحراً على التجوّز؛ وهو مذموم أيضاً عند البعض، وصرح النووي بحرمته.

وفسر الجمهور السحر بأنه: خارق العادة يظهر من نفس شريرة بمباشرة أعمال مخصوصة.

والجمهور على أن له حقيقة، وأنه قد يبلغ الساحر إلى حيث يطير في الهواء، ويمشي على الماء، ويقتل النفس، ويقلب الإنسان حماراً؛ والفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله تعالى، ولم تجْر سنّته بتمكين الساحر مِن فلْق البحر، وإحياء الموتى، وإنطاق العجماء، وغير ذلك من آيات الرسل –عليهم السلام.–

وقد أطلق بعض العلماء السّحر على المشي بين الناس بالنّميمة، لأن فيها قلب الصّديق عدواً والعدوّ صديقاً .

كما أُطلق على: حُسن التوسل باللفظ الرائق العذب، لما فيه من الاستمالة؛ ويُسمَّى: سحراً حلالاً؛ ومنه قوله –صلى الله تعالى عليه وسلم)) :–إنّ مِن البيان لسحراً.((

{بِبَابِلَ :}بلد في سواد الكوفة، وقيل: بابل العراق. وقال قتادة: هي مِن نصيبين إلى رأس العين .وقيل: جبل دماوند. وقيل: بلد بالمغرب. والمشهور اليوم :الثاني، وعند البعض هو الأول. قيل: وسُمّيت "بابل" لتبلبل الألسنة فيها، وروي في ذلك آثار لا تصح. ونص أبو حيان وغيره على أنّ "بابل" اسم أعجمي لا عربي –كما يشير إليه كلام الأخفش–، وأنه في الأصل: اسم للنهر الكبير في بعض اللغات الأعجمية القديمة، وقد أُطلق على تلك الأرض لقُرب الفرات منها.

{هَارُوتَ وَمَارُوتَ :}عطف بيان للملكَيْن، وهما اسمان أعجميان لهما، مُنعا من الصرف للعلَمية والعجمة، وقيل :عربيان مِن: الهرت والمرت، بمعنى: الكسر. وكان اسمهما قبل :عزا وعزايا، فلما قارفا الذنب سُمِيا بذلك؛ ويشكل عليه منعُهما من الصرف، وليس إلاّ العلمية. وتكلّف له بعضهم، بأنه يحتمل أن يُقال إنهما معدولان من الهارت والمارت.

والفتنة :هي المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر:

وقد فُتن الناس في دينهم	وخَلَّى ابنُ عفان شراً طويلاَ

وكذا قوله تعالى -إخباراً عن موسى- عليه السلام-، حيث قال{ :إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}، أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك{ :تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ }...الآية .

و{الْمَرْءِ :}عبارة عن الرجل، وتأنيثه امرأة، ويُثنّى كل منهما، ولا يجمعان. والأفصح: فتح الميم مطلقاً، وحُكى الضم مطلقاً، وحُكى الإتباع لحركة الإعراب.
وقد جاء جمْعه نادراً بالواو والنون، فقالوا: المرؤون.

والزوج :امرأة الرجل، وقيل المراد به هنا القريب والأخ الملائم، ومنه: قوله تعالى{ :مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}، وقوله{ :احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ .}

والخَلاَق :النصيب؛ قاله مجاهد. أو القِوام؛ قاله ابن عباس. أو القدْر؛ قاله قتادة .
ومنه قول الشاعر :

فما لك بيتٌ لدى الشامخاتِ	وما لك في غالبٍ من خَلاقِ

قال الزجاج: وأكثر ما يُستعمل في الخير، ويكون للشر على قلّة.

والمثوبة" :مَفْعَلَة" -بضم العين-، مِن: الثّواب، فنُقِلَت الضمة إلى ما قبْلها؛ فهو مصدر ميمي. وقيل: "مَفْعُولَة"، وأصلها: مَثْوُوبَة، فنُقلت ضمة الواو إلى ما قبْلها، وحذفت لالتقاء الساكنيْن؛ فهي من المصادر التي جاءت على "مَفْعُولة" كمَصْدُوقة، كما نقله الواحدي .

ويقال: "مَثْوَبة" -بسكون الثاء، وفتح الواو-، وكان من حقها أن تُعلّ، فيقال: مَثَابَة كمقامة، إلاّ أنهم صحّحوها كما صححوا في الأعلام: مَكْوَزَة، وكما جاء في: مَشُورة ومَشْوَرة.

والمراد بها: الجزاء والأجر، وسُمّي بذلك لأن المحسن يثوب إليه.

الآثار.

عن السدي، في قوله{ :وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ }...الآية، قال: ولما جاءهم محمد -صلى الله عليه وسلم -عارضوه بالتوراة، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحْر هاروت وماروت، كأنهم لا يعلمون ما في التوراة مِن الأمر باتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- وتصديقه.

وقال قتادة في قوله{ :كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ}، قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به .

وعن ابن عباس، في قوله تعالى{ :وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا :}وكان حين ذهب ملك سليمان ارتدّ فئام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما رجع الله إلى سليمان ملْكه، وقام الناس على الدين كما كان، وإن سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه، وتوفي سليمان- عليه السلام- حدثَانَ ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان وأخفاه منا، فأخذوا به فجعلوه ديناً، فأنزل الله{ :وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ}، واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين، وهي: المعازف واللعب، وكل شيء يصدّ عن ذكر الله .

وعن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان، ويدفنه تحت كرسيه. فلما مات سليمان، أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جهال الناس وسبّوه، ووقف علماؤهم. فلم يزل جهّالهم يسبونه، حتى أنزل الله على محمد –صلى الله عليه وسلم{ :–وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا .}

وعن ابن عباس قال: كان سليمان –عليه السلام– إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتي شيئاً من نسائه، أعطى الجرادة– وهي امرأة– خاتمَه. فلما أراد الله أن يبتلي سليمان– عليه السلام– بالذي ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتمَه، فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأخذه ولبسه. فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال: هاتي خاتمي. فقالت :كذبْت لست سليمان. قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتُلي به .قال: فانطلقت الشياطين، فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفْر، ثم دفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها فقرؤوها على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب. قال: فبرئ الناس من سليمان –عليه السلام– وأكفروه، حتى بعث الله محمداً –صلى الله عليه وسلم–، وأنزل عليه{ :وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا .}

وعن عمران –وهو: ابن الحارث– قال: بينا نحن عند ابن عباس –رضي الله عنهما–، إذ جاءه رجل فقال له: من أين جئت؟ قال: من العراق. قال : من أيِّه؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال :تركتُهم يتحدثون أنّ علياً –وكان قد مات– خارج إليهم –أي :من قبره–. ففزع، ثم قال: ما تقول؟ لا أبا لك! لو شعرنا ما نكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه! أما إني سأحدثكم عن ذلك: إنه كانت الشياطين يسترِقون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جرب منه صدق كذب معها سبعين كذبة. قال: فتشربها قلوب الناس. قال: فأطلع الله عليها سليمان –عليه السلام–، فدفنها تحت كرسيه .فلما توفي سليمان –عليه السلام–، قام شيطان الطريق فقال :أفلا أدلكم على كنْزه الممنع الذي لا كنز

له مثله؟ تحت الكرسي. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحْر. فتناسخها الأمم –حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق–، وأنزل الله –عز وجل{ :–وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا }...الآية .

وقال السدي، في قوله تعالى{ :وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}، أي: على عهد سليمان –عليه السلام–. قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة ممّا يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر؛ فيأتون الكهنة فيخبروهم. فتُحدّث الكهنة الناس، فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمنتهم الكهنة، كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة .فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا ذلك في بني إسرائيل: أنّ الجنّ تعْلَم الغيب. فبعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه .ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلاّ احترق. وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب، إلا ضربت عنقه. فلما مات سليمان، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف من بعد ذلك خلف، تمثّل شيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بني إسرائيل فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي. وذهب معهم فأراهم المكان وقام ناحيته، فقالوا له: فادْن. قال: لا، ولكني ها هنا في أيديكم. فإن لم تجدوه فاقتلوني. فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلما أخرجوها، قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر. ثم طار وذهب، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً. واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب. فلما جاء محمد– صلى الله عليه وسلم– خاصموه بها؛ فذلك حين يقول الله تعالى{ :وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . }

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألوا محمداً –صلى الله عليه وسلم –زماناً عن أمور من أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلاّ أنزل الله تعالى عليه ما سألوا عنه، فيخصمهم؛ فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنما اسألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله –عز وجل{ :–وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ .}وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب، فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان. وكان سليمان –عليه

السلام- لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدنيا، استخرجوا ذلك السحر، وخدعوا الناس. وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه، ويحسد الناس عليه. فأخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا الحديث، فرجعوا من عنده، وقد خَزِيوا، وقد أدحض الله حجتهم .

و عن أبي العالية مثله.

وقال مجاهد في قوله{ :وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}، قال: كانت الشياطين تسمع الوحي، فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتيْن مثلها؛ فأرسل سليمان -عليه السلام -إلى ما كتبوا من ذلك. فلما تُوفي سليمان، وجدته الشياطين فعلّمته الناس، وهو: السحر .

وقال سعيد بن جبير :كان سليمان -عليه السلام- يتبع ما في أيدي الشياطين من السحر، فيأخذه منهم، فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته؛ فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه. فدبت إلى الإنس فقالوا لهم: أتدرون ما العلْم الذي كان سليمان يُسخِّر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه في بيت خزانته، وتحت كرسيه. فاستثارته الإنس، واستخرجوه، فعملوا بها. فقال أهل الحِجا: كان سليمان يعمل بهذا، وهذا سحر؛ فأنزل الله تعالى على لسان نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- براءة سليمان -عليه السلام -فقال{ :وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا .}

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود -عليه السلام-، فكتبوا أصناف السحر :من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا، فليقل كذا وكذا، حتى إذا صنفوا أصناف السحر، جعلوه في كتاب، ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا -الصديق للملك سليمان بن داود -عليهما السلام- من ذخائر كنوز العلْم، ثم دفنوه تحت كرسيه. واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل، حتى أحدثوا ما أحدثوا. فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان سليمان بن داود يسخِّر الجن والإنس والرياح وغيرها إلاّ بهذا. فأفشوا السحر في الناس، فتعلّموه وعلموه؛ وليس هو في أحدٍ أكثر منه في اليهود -لعنهم الله-. فلما ذكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيما نزل عليه من الله، سليمان بن داود، وعدّه فيمن عدّه من المرسلين، قال مَن كان بالمدينة من اليهود: ألا تعجبون من محمد؟ يزعم أن ابن داود كان نبياً! والله ما كان إلاّ ساحراً. وأنزل الله

في ذلك من قولهم{ :وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا }...الآية .

وعن شهر بن حوشب قال: لما سُلب سليمان –عليه السلام –مُلكه، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان، فكتبت: من أراد أن يأتي كذا وكذا، فليستقبل الشمس، وليقل كذا وكذا... ومن أراد أن يفعل كذا وكذا، فليستدبر الشمس، وليقل كذا وكذا... فكتبته، وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلْم. ثم دفنته تحت كرسيه. فلما مات سليمان –عليه السلام–، قام إبليس لعنه الله خطيباً، قال: يا أيها الناس! إن سليمان لم يكن نبياً، إنما كان ساحراً، فالتمسوا سحْره في متاعه وبيوته! ثم دلّهم على المكان الذي دُفن فيه. فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحراً، هذا سحْره، بهذا تعبّدنا، وبهذا قهرنا. وقال المؤمنون: بل كان نبياً مؤمناً. فلما بعث الله النبي– صلى الله عليه وسلم– حين ذكر داود وسليمان، فقالت اليهود: انظروا إلى محمد! يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء! إنما كان ساحراً يركب الريح. فأنزل الله تعالى{ :وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ }...الآية .

وعن خُصيف، قال: كان سليمان إذا نبتت الشجرة، قال: لأي داء أنت؟ فتقول :لكذا وكذا. فلما نبتت الشجرة الخرنوبة، قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لمسجدك أخربه. فلم يلبث أن توفي. فكتب الشياطين كتاباً فجعلوه في مصلّى سليمان، فقالوا: نحن ندلّكم على ما كان سليمان يُداوي به، فانطلقوا فاستخرجوا ذلك الكتاب، فإذا فيه سحر ورقًى، فأنزل الله : {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ }إلى قوله{ :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}، وذكر أنها في قراءة أبيّ: "ومَا يُتلَى على الملكيْن ببابل هاروت وماروت."

وعن أبي مجلز، قال :أخذ سليمان –عليه السلام– من كل دابة عهداً، فإذا تصيب رجلاً سُئل بذلك العهد حتى خُلّي عنه. فزاد الناس السجع والسحر، وقالوا: هذا يعمل به سليمان. فقال الله تعالى{ :وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ . }
وعن الحسن{ :وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ }قال :ثلاث: ثلث الشِّعر، وثلث السِّحر، وثلث الكهانة .

وعن الحسن{ :وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ :}واتّبعته اليهود على مُلكه. وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها، ولكنه إنما اتّبع على ملك سليمان .

وعن ابن عباس، في قوله{ :مَا تَتْلُوا}، قال: ما تتبع .

وعن عطاء في قوله{ :مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ}، قال: يراد ما تحدّث .

وعن ابن جريج في قوله{ :عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}، يقول: في ملك سليمان .

وعن قتادة، في قوله{ :وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}، يقول: ما كان عن مشورته ولا رضى منه، ولكنه شيء افتعلته الشياطين دونه{ .يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}؛ فالسحر سحران: سحر تُعلّمه الشياطين، وسحر يُعلّمه هاروت وماروت .

وعن السدي، في قوله{ :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}، قال: هذا سحر خاصموه به؛ فإن كلام الملائكة فيما بينهم إذا علِمته الإنس فصنع وعمل به، كان سحراً.

وعن مجاهد قال: أمَّا السِّحر فإنما يُعلِّمه الشياطين، وأمّا الذي يُعلِّمه الملكان فالتفريق بين المرء وزوجه.

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}، قال :التفرقة بين المرء وزوجه.

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}، يقول: لم ينزل الله السِّحر .

وعن ابن عباس{ :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}، يعني: جبريل وميكائيل ببابل هاروت وماروت يعلّمان الناس السِّحر.

وعن الربيع بن أنس، في قوله{ :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}، قال: ما أنزل الله عليهما السِّحر .

وعن عطية{ :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ}، قال: ما أُنزِل على جبريل وميكائيل السِّحر .

وقال أبو العالية: لم يُنزل عليهما السِّحر، يقول :علِما الإيمان والكفر؛ فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشدّ النهي .

وعن الضحاك بن مزاحم: أنه كان يقرؤها{ :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ}، ويقول: هما عِلْجان من أهل بابل .

وعن عبد الرحمن بن أبزى كان يقرؤها: "وما أُنزل على الملِكيْن": داود وسليمان .

وعن القاسم بن محمد –وسأله رجل عن قول الله تعالى{ :يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ– }، فقال الرجل: يُعلِّمان الناس ما أنزل عليهما، أو يُعلِّمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت .

وفي رواية قال: لا أبالي أيّ ذلك كان، إني آمنت به .

وأخرج أبو داود، وابن أبي حاتم، والبيهقي في" سننه"، عن علي، قال: إن حبيبي –صلى الله عليه وسلم– نهاني أن أصلّي بأرض بابل؛ فإنها ملعونة .

وأخرج الدينوري في "المجالسة"، وابن عساكر، من طريق نعيم بن سالم –وهو مُتّهم–، عن أنس بن مالك، قال: لما حشر الله الخلائق إلى بابل، بعث إليهم ريحاً شرقية وغربية وقبلية وبحرية فجمعتهم إلى بابل، فاجتمعوا يومئذ ينظرون لِما حُشروا له؛ إذ نادى منادٍ: مَن جعَل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره، واقتصد إلى البيت الحرام بوجهه، فله كلام أهل السماء . فقام يعرب بن قحطان، فقيل له: يا يعرب بن قحطان بن هود، أنت هو. فكان أوّل مَن تكلّم بالعربية. فلم يزل المنادي ينادي: مَن فعل كذا وكذا فله كذا وكذا... حتى افترقوا على اثنين وسبعين لساناً. وانقطع الصوت، وتبلبلت الألسن، فسُمِّيت" :بابل". وكان اللسان يومئذ بابلياً. وهبطت ملائكة الخير والشر، وملائكة الحياء والإيمان، وملائكة الصحة والشفاء، وملائكة الغنى، وملائكة الشرف، وملائكة المروءة، وملائكة الجفاء، وملائكة الجهل، وملائكة السيف، وملائكة البأس، حتى انتهوا إلى العراق؛ فقال بعضهم لبعض: افترقوا. فقال ملَك الإيمان: أنا أسكن المدينة ومكة، فقال ملَك الحياء: أنا أسكن معك. وقال ملَك الشفاء: أسكن البادية، فقال ملَك الصحة :وأنا معك. وقال ملَك الجفاء: وأنا أسكن المغرب، فقال ملَك الجهل: وأنا معك. وقال ملَك السيف: أنا أسكن الشام، فقال ملَك البأس: وأنا معك. وقال ملَك الغنى: أنا أقيم ها هنا، فقال ملَك المروءة: أنا معك، فقال ملك الشرف: وأنا معكما. فاجتمع ملَك الغنى والمروءة والشرف بالعراق .

وذكر السيوطي هنا آثاراً لا علاقة لها بالآية في سكنى العراق وغيره...

وقد وصلنا الآن إلى ما ورد في قصة هاروت وماروت، وهذا ما سنرجئه إلى المحاضرة القادمة إن شاء الله تعالى.

الأسئلة :

١. قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر (ولكن الشياطينُ) بالتخفيف وكسر النون في ولكن ، والشياطين بالرفع بالابتداء ، وهذه القراءة فيها زيادة تأكيد للمعنى لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى (صح) .

٢. في مناسبة هذه الآية مع الآيات السابقات فائدة أنه : ما أمات أحد سنة إلا أذله الله وأحيا على يديه بدعة ، فلما نبذوا كلام الله أقبلوا على كلام الشياطين (صح) .

٣. قوله (وراء ظهورهم) فيه إشارة إلى شدة عنادهم في الكفر (خطأ) .

٤. السحر : يطلق على لطف وخفي سببه (صح) .

٥. الجمهور على أن السحر هو مجرد خيالات وحركات سريعة لا تظهر للمسحور كما قال تعالى : (فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) (خطأ) .

٦. الفرق بين السحر والمعجزة الخارقة أن السحر يدخل فيه التعليم ويستعان عليه بالتقرب إلى الشياطين بالأقوال والأعمال (صح) .

٧. لا يمكن أن يقع السحر إلا من خبيث النفس ، لأن الشياطين لا تتعاون إلا مع هؤلاء كما أن الملائكة لا تعاون إلا أخيار الناس (صح) .

٨. أطلق بعض الناس السحر على النميمة لأن فيها قلب الصديق عدواً والعكس (صح) .

٩. بابل بلد في المغرب على الصحيح (خطأ) .

١٠. هاروت وماروت اسم للملكين المذكورين (صح) .

١١. المرء يطلق على الرجل والمرأة إذا أطلق وإذا اقترن بالمرأة فهو للرجل وحده (خطأ) .

١٢. الزوج : القرين المشابه ، والمقصود به هنا امرأة الرجل على الأصح (صح)

١٣. الخلاق : النصيب والقدر من الخير ، ولا يستعمل في الشر إلا قليلاً (صح) .

١٤. المثوبة : هي الأجر والجزاء وسمي بذلك لأن المحسن يثوب إليه (صح) .

١٥. في الآيات ذم لليهود الذين لما جاءهم محمد ﷺ بما يوافق ما في التوراة نبذوا التوراة وما عندهم من العلم واتبعوا السحر (صح) .

١٦. قولهم (كأنهم لا يعلمون) فيها دلالة على أنهم كانوا يعلمون الحق (صح)

١٧. كان سليمان عليه السلام قد أخذ كتب السحر ودفنها تحت كرسيها فلما مات أخرجتها الشياطين وقالوا : بهذا كان سليمان يحكم الناس ، فسب الناس سليمان واتهموه بالسحر حتى نزل القرآن فبرأه من ذلك (صح) .

١٨. ذكر أهل العلم روايات عن مسألة دفن السحر تحت كرسي سليمان وكيف استخرجوه الشياطين بعد موته واتهامهم لسليمان بالسحر والمهم فيها أن اليهود اتهموا سليمان بأنه كان ساحراً وبرأه القرآن من ذلك (صح) .

١٩. قوله (ما تتلو الشياطين) أي : ما تحدثه وما تتبعه (صح) .

٢٠. قرأ ابن عامر (وما أنزل على الملِكين) بكسر اللام على أنه مثنى ملِك من الملوك وليس من الملائكة (خطأ) .

٢١. سأل رجل القاسم بن محمد عن الملكين فقال : يعلمان الناس ما أنزل عليهما أو ما لم ينزل عليهما ؟ فقال القاسم : لا أبالي أي ذلك كان أني أمنت به (صح) .

٢٢. عن الربيع بن أنس في قوله تعالى : [وما أنزل على الملكين] قال : السحر .

٢٣. قال أبو العالية في قوله تعالى : [وما أنزل على الملكين] قال : لم ينزل عليهما السحر

٢٤. عن ابن عباس ومجاهد : أن ما أنزل على الملكين هو التفرقة بين المرء وزوجه (صح) .

٢٥. عن قتادة : السحر سحران : سحر يعلمه الناس وسحر يعمله هاروت وماروت (صح)

٢٦. عن الحسن : كان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها ، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان (صح) .

٢٧. لما ذكر الله سليمان في القرآن قالت اليهود : انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحراً ، فأنزل الله الآيات (صح)

٢٨. عن ابن عباس : أن ما تتلوا الشياطين هي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله (صح) .

٢٩. لما جاء النبي ﷺ المدينة وصارت اللقاءات بينه وبين اليهود ، فبدل أن يؤمنوا كذبوه وسحروه سحراً ليفرقوا به بينه وبين أهله ، فنزلت سورة البقرة وفيها ما يشير إلى ذلك (صح)

٣٠. كلمة (وراء) تطلق على ما كان مستتراً عنك سواء كان من أمام أم من خلف أو من جهة كانت (صح) .

المحاضرة الثانية والأربعون

***

تابع تفسير الآيات من (١٠١) إلى (١٠٣) من سورة البقرة.(

موعدنا في هذه المحاضرة مع الروايات الواردة في "هاروت وماروت"، وسوف نسوقها مع بعض التعليقات التي لا بد منها، ثم نتكلم على خلاف أهل العلْم حولها، والراجح من ذلك بعد الانتهاء. فنقول وبالله التوفيق.

أولاً :المرفوعات.

جاءت قصة هاروت وماروت مسندة من حديث ابن عمر مطوّلة، ومن حديث والده عمر وعلي باختصار، ومن مرسَل عمر مولى غفرة مطوّلة:

فأما من من حديث ابن عمر، فمِن طريقيْن:

الطريق الأول: مِن طريق نافع عنه:

وجاء من طُرق ثلاثة عن نافع به.

الأول :أخرجه أحمد (٢/١٣٤)، وعبد بن حميد في "مسنده المنتخب(٧٨٧) "، وابن أبي حاتم في "العلل" تعليقاً(٢/٦٩) ، وابن أبي الدنيا في كتاب "العقوبات" (٢٢٢)، وابن السّنّي في" اليوم والليلة" (٦٥٧)، وابن حبان في "صحيحه" (١٤/٦٣)، والبزار في "كشف الأستار" (٢٩٣٨)، والبيهقي في "الكبرى" (١٠/٤)، وفي" الشُّعب" (١/١٧٨)، وغيرهم...

من طريقيْن :عن زهير بن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر: أنه سمع نبي الله– صلى الله عليه وسلم- يقول)) :إن آدم –عليه السلام- لما أهبطه الله إلى الأرض، قالت الملائكة: أي ربّ،{ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ .}قالوا :ربنا نحن أطْوع لك من بني آدم. قال الله تعالى للملائكة: هلُمّوا ملكيْن من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض، فننظر كيف يعملان؟ قالوا: ربنا، هاروت وماروت .فأُهبطا إلى الأرض، ومثلت لهما

الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله! حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك! فقالا: والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً! فذهبت عنهما، ثم رجعت بصبيّ تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله! حتى تقتلا هذا الصبي !فقالا: لا والله! لا نقتله أبدا! فذهبت، ثم رجعت بقدح خمْر تحمله. فسألاها نفسها، فقالت: لا والله! حتى تشربا هذا الخمر! فشربا، فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي .فلما أفاقا، قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً أبيتماه عليّ إلاّ قد فعلتماه حين سكرتما. فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ فاختارا عذاب الدنيا .((

قال أحمد : هذا مُنكر، وإنما يُروى عن كعب. (انظر السلسلة الضعيفة (١٧٠)، نقلاً عن "منتخب ابن قدامة.("

وقال أبو حاتم الرازي: هذا حديث مُنكر.

وقال البزار: رواه بعضهم عن نافع، عن ابن عمر، موقوفاً .وإنما أتى رفع هذا عندي من زهير، لأنه لم يكن بالحافظ...

وقال ابن حبان، قبل إخراجه للحديث: باب: ذكر قول الملائكة عند هبوط آدم إلى الأرض : {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ .}

ثم قال، بعد إخراجه له: الزهرة هذه: امرأة كانت في ذلك الزمان، لا أنها الزهرة التي هي في السماء، التي هي من" :الخُنَّس."

وقال البيهقي: تفرّد به زهير بن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع، ورواه موسى بن عقبة، عن نافع عن بن عمر، عن كعب، قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم، فذكر بعض هذه القصة؛ وهذا أشبه.

وقال ابن كثير، قبل ذكْره له: إن صح سنده ورفعه.

ثم قال بعده: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلّهم ثقات من رجال الصحيحيْن، إلاّ موسى بن جبير هذا، وهو: الأنصاري السلمي –مولاهم– المديني الحذاء.

روى عن ابن عباس، وأبي أمامة بن سهل بن حنيف، ونافع، وعبد الله بن كعب بن مالك.

وروى عنه ابنه عبد السلام، وبكر بن مضر، وزهير بن محمد، وسعيد بن سلمة، وعبد الله بن لهيعة، وعمرو بن الحارث، ويحيى بن أيوب. وروى له أبو داود، وابن ماجة، وذكره ابن أبي

حاتم في كتاب "الجرح والتعديل"، ولم يحْك فيه شيئاً من هذا ولا هذا؛ فهو مستور الحال. وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر– رضي الله عنهما–، عن النبي –صلى الله عليه وسلم .–

قال الهيثمي في" مجمع الزوائد" (٦٨/٥): رجاله رجال الصحيح، خلا موسى بن جبير، وهو ثقة.

وقال ابن حجر في "الفتح": قصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن، من حديث ابن عمر، في "مسند أحمد."

وقال في "العجاب": وجاء عن ابن عمر مطولاً، أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح، عن مجاهد، قال: كنت نازلاً على عبد الله بن عمر في سفر... قال: وهذه متابعة قويّة لرواية موسى بن جبير عن نافع، لكنها موقوفة على ابن عمر، لم يُضفها إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–. وجاءت من وجه آخر عن ابن عمر، عن كعب الأحبار، موقوفة عليه... قال : وسند الثوري أقوى من سند زهير، إلاّ أن رواية كعب مختصرة جداً؛ فيحتمل أن يكون ابن عمر استظهر برواية كعب، لكونها توافق ما حمَله ابن عمر عن النبي –صلى الله عليه وسلم.– وقد حكى المنذري عن بعض العلماء: أنه رجّح الرواية الموقوفة على كعب على الرواية المرفوعة. والذي أقول: لو لم يَرِد في ذلك غير هاتيْن الروايتيْن لسلّمت أن رواية سالم أوْلى من رواية نافع، لكن جاء ذلك مِن عدّة طُرق عن ابن عمر، ثم مِن عدّة طُرق عن الصحابة؛ ومجموع ذلك يقضي بأنّ للقضية أصلاً أصيلاً –والله أعلم.–

الثاني :بمتابعة موسى بن جبير عن نافع:

رواه ابن مردويه، قال: ثنا دعلج بن أحمد: ثنا هشام (بن علي بن هشام): ثنا عبد الله بن رجاء: ثنا سعيد بن سلمة: ثنا موسى بن سرجس، عن نافع، عن ابن عمر، سمع النبي – صلى الله عليه وسلم– يقول ...فذكره بطوله .

قال ابن كثير: غريب جداً.

ثم قال: وأقرب ما في هذا: أنه من رواية عبد الله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النبي – صلى الله عليه وسلم .–

وذكر الألباني ما مفاده: احتمال أن يكون موسى بن سرجس هو نفسه موسى بن جبير، اختلف الرواة في اسم أبيه") .الضعيفة" (١٧٠.(

الثالث : من رواية معاوية بن صالح عن نافع:

أخرجه سُنيد في" تفسيره"، ومن طريقه :ابن جرير، والخطيب في "تاريخه" (٤٢/٨)، وابن الجوزي في" الموضوعات" (١٨٦/١)، والذهبي في "ميزان الاعتدال.(٣/٣٣١) "

قال: ثنا فرج بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن نافع، قال :سافرت مع ابن عمر، فلما كان من آخر الليل قال: يا نافع، انظر طلعت الحمراء؟ قلت: لا -مرتيْن أو ثلاثاً-. ثم قلت: قد طلعت. قال: لا مرحباً بها ولا أهلاً! قلت: سبحان الله! نجم مسخّر سامع مطيع! قال: ما قلت لك إلاّ ما سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-إن الملائكة قالت: يا رب كيف صبْرك على بني آدم في الخطأ والذنوب؟ قال: إني ابتليتُهم وعافيْتُكم. قالوا: لو كنا مكانهم ما عصيناك. قال : فاختاروا ملكيْن منكم. قال: فلم يألوا جهداً أن يختاروا، فاختاروا هاروت وماروت؛ فنزلا. فألقى الله عليهم الشبق .قلت: وما الشبق؟ قال: الشهوة. فجاءت امرأة، يقال لها" :الزهرة"، فوقعت في قلوبهما، فجعل كل واحد منهما يُخفي عن صاحبه ما في نفسه. ثم قال أحدهما للآخر: هل وقع في نفسك ما وقع في قلبي؟ قال: نعم. فطلباها لأنفسهما، فقالت: لا أمكّنكما حتى تعلِّماني الاسم الذي تعرجان به إلى السماء وتهبطان به! فأبيا. ثم سألاها أيضاً، فأبتْ .ففعلا. فلما استطيرت طمسها الله كوكباً، وقَطَّع أجنحتهما .ثم سألا التوبة من ربهما فخيّرهما، فقال: إن شئتما رددتُكما إلى ما كنتما عليه، فإذا كان يوم القيامة عذّبتكما، وإن شئتما عذّبتكما في الدنيا فإذا كان يوم القيامة رددتكما إلى ما كنتما عليه. فقال أحدهما لصاحبه: إنّ عذاب الدنيا ينقطع ويزول. فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة. فأوحى الله إليهما أن ائتيا بابل. فانطلقا إلى بابل، فخُسف بهما، فهما منكوسان بين السماء والأرض، معذّبان إلى يوم القيامة.((

سنيد بن داود المصيصي المحتسب: اسمه: الحسين؛ قال الذهبي: حافظ له تفسير، وله ما يُنكر .صدّقه أبو حاتم، وقال أبو داود: لم يكن بذلك، وقال النسائي: ليس بثقة .

قال ابن كثير: غريب جداً .وقال ابن الجوزي: لا يصحّ .

والفرج بن فضالة: ضعّفه يحي، وقال ابن حبان: يقلب الأسانيد، ويلزق المتون الواهية بالأسانيد الصحيحة.

قال ابن حجر: وبين سياق معاوية بن صالح وسياق زهير تفاوت... وله طُرق كثيرة جمعتها في جزء مفرد، يكاد الواقف عليه أن يقطع بوقوع هذه القصة، لكثرة الطُرق الواردة فيها، وقوة مخارج أكثرها -والله أعلم.-

الطريق الثاني: من طريق سالم عن ابن عمر:

أخرجه البيهقي في" شعب الإيمان" (١٧٨/١)، قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنا أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب، أنا محمد بن يونس بن موسى، ثنا عبد الله بن رجاء، ثنا سعيد بن سلمة، عن موسى بن جبير، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-أشرفت الملائكة على الدنيا، فرأت بني آدم يعصون، فقالوا: يا رب: ما أجهل هؤلاء! ما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك! فقال الله تعالى: لو كنتم في مسلاخهم لعصيتموني. قالوا: كيف يكون هذا، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟! قال: فاختاروا منكم ملكيْن. قالوا :فاختاروا هاروت وماروت. ثم أهبطا إلى الدنيا، ورُكبت فيهما شهوات بني آدم. ومثلت لهما امرأة، فما عُصما حتى واقعا المعصية. فقال الله -عز وجل- لهما: فاختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. فنظر أحدهما إلى صاحبه، فقال :ما تقول؟ قال: أقول: إن عذاب الدنيا ينقطع، وإن عذاب الآخرة لا ينقطع. فاختارا عذاب الدنيا؛ فهما اللذان ذكَرهما الله -عز وجل- في كتابه{ :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ((}...الآية.

وهذا في إسناده محمد بن يونس الكديمي، وهو متّهم .والأكثر رووه من طريق موسى بن جبير عن نافع، كما تقدّم.

قال البيهقي: ورويناه من وجْه آخر، عن مجاهد، عن ابن عمر موقوفاً عليه، وهو أصح؛ فإن ابن عمر إنما أخذه عن كعب .

كما جاءت الإشارة إلى القصة من حديث علي مرفوعاً، من طريقيْن أو ثلاثة:

الأول :أخرجه الزبير بن البكار في "الموفقيات"، وابن مردويه والديلمي، عن علي: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سُئل عن المسوخ؟ فقال)) :هم ثلاثة عشر: الفيل، والدب، والخنزير،

والقرد، والجريث، والضب، والوطواط، والعقرب، والدعموص، والعنكبوت، والأرنب، وسهيل، والزهرة((، فقيل: يا رسول الله وما سبب مسخهنّ؟ فقال)) :أمّا الفيل، فكان رجلاً جباراً لوطياً لا يدع رطباً ولا يابساً. وأما الدب، فكان مؤنثاً يدعو الناس إلى نفسه. وأما الخنزير، فكان من النصارى الذين سألوا المائدة، فلما نزلت كفروا. وأما القردة: فيهود اعتدوا في السبت... إلى أن قال: وأما الأرنب، فامرأة كانت لا تطهر من حيض. وأما سهيل فكان عشّاراً باليمن. وأمّا الزهرة، فكانت بنتاً لبعض ملوك بني إسرائيل، افتتن بها هاروت وماروت.((

الثاني :أو لعله هو نفسه، قال ابن كثير في كونهما ملكيْن من ملائكة السماء: رواه الحافظ أبو بكر ابن مردويه في" تفسيره" بسنده، عن مغيث، عن مولاه جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي، مرفوعاً.

قال ابن كثير: هذا لا يثبت من هذا الوجه .

الثالث أو الثاني :قال ابن كثير: ثم رواه –أي ابن مردويه –من طريقيْن آخريْن، عن جابر –وهو: الجعفي–، عن أبي الطفيل، عن علي، قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :–))لعن الله الزهرة، فإنها هي التي فتَنت الملكيْن: هاروت وماروت .((

قال ابن كثير: وهذا أيضاً لا يصحّ، وهو منكر جداً –والله أعلم .–

وأخرجه ابن السني في "اليوم والليلة" (٦٥٤)، من طريق جابر به.

وقال السيوطي، كما في "نظم المتناثر" (٢٢٢/١): وردت مرفوعة أيضاً باختصار، من حديث علي، أخرجه ابن راهويه في "مسنده."

وقد عزاه في "فيض القدير" (٢٦٩/٥) لابن مردويه، وابن راهويه، بهذا اللفظ. وعزاه في "كشف الخفا" (٤٣٩/٢) لأبي نعيم في" اليوم والليلة ."

وجاءت الإشارة إليها أيضاً من حديث عمر:

أخرجه الطبراني في" الأوسط" (٨٩/٣)، قال :حدثنا أبو مسلم، قال: حدثنا الحكم بن مروان الكوفي، قال: حدثنا سلام الطويل، عن الأجلح بن عبد الله الكندي، عن عدي بن عدي الكندي، قال: قال عمر بن الخطاب)) :جاء جبريل إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه، فقام إليه رسول الله– صلى الله عليه وسلم– فقال: يا

جبريل ما لي أراك متغيّر اللون؟ فقال: ما جئتك حتى أمر الله -عز وجل- بمفاتيح النار. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا جبريل، صفْ لي النار، وانعت لي جهنم. فقال جبريل: إن الله تبارك وتعالى أمَر بجهنم فأُوقد عليها ألْف عام حتى ابيضّت. ثم أمر فأُوقد عليها ألْف عام حتى احمرّت. ثم أمر فأوقد عليها ألْف عام حتى اسودّت. فهي سوداء ومظلمة، لا يضيء شررها، ولا يطفأ لهبها. والذي بعثك بالحقّ! لو أنّ قدْر ثقب إبرة فُتح من جهنم، لمات مَن في الأرض كلهم جميعاً مِن حرِّه. والذي بعثك بالحقّ! لو أن ثوباً من ثياب النار عُلِّق بين السماء والأرض، لمات مَن في الأرض جميعاَ مِن حرِّه. والذي بعثك بالحقّ! لو أنّ خازناً من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا فنظروا إليه، لمات من في الأرض كلّهم من قبح وجْهه، ومِن نتن ريحه. والذي بعثك بالحقّ! لو أنّ حلقة من حلقات سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وُضعت على جبال الدنيا، لارفضّت وما تقاربت حتى تنتهي إلى الأرض السفلى. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: حسبي يا جبريل! لا ينصدع قلبي فأموت! قال: فنظر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى جبريل وهو يبكي، فقال :تبكي يا جبريل؟ وأنت مِن الله بالمكان الذي أنت به؟ قال: وما لي لا أبكي، أنا أحق بالبكاء؛ لعلّي أن أكون في علْم الله على غير الحال التي أنا عليها. وما أدري لعلّي أُبتلى بمثل ما ابتليَ به إبليس؛ فقد كان من الملائكة. وما يدريني لعلّي أُبتلَى بمثل ما ابتليَ به هاروت وماروت. قال: فبكى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبكى جبريل -عليه السلام-. فما زالا يبكيان حتى نوديا: أن يا جبريل ويا محمد! إن الله -عز وجل- قد أمّنكما أن تعصياه .((... الحديث.

قال الطبراني: لا يُروى هذا الحديث عن عمر إلاّ بهذا الإسناد، تفرّد به سلام.

وقال السيوطي في "الدر": سنده ضعيف .

كما وردت القصة مطولة من مرسل عمر مولى غفرة:

أخرجه ابن المنذر، كما في "الدر المنثور" (٥١٩/٥)، عن عمر مولى غفرة، يرفع الحديث إلى النبي -صلى الله عليه وسلم -قال)) :إن إدريس كان نبياً تقياً زكياً، وكان يقسم دهره على نصفيْن: ثلاثة أيام يعلِّم الناس الخير، وأربعة أيام يسيح في الأرض ويعبد الله مجتهداً. وكان

يصعد من عمله وحْده إلى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع أعمال بني آدم. وإن ملَك الموت أحبّه في الله، فأتاه حين خرج للسياحة فقال له: يا نبي الله، إني أريد أن تأذن لي في صُحبتك. فقال له إدريس– وهو لا يعرفه–: إنك لن تقوى على صحبتي. قال: بلى! إني أرجو أن يقوّيني الله على ذلك– ((...فذكر حديثا طويلا جدا وفي آخره:–))فلما قرّ قرار إدريس في الجنة، وألزمه الله دخولها قبل الخلائق، عجّت الملائكة إلى ربهم، فقالوا: ربنا خلقت خلقتنا قبل إدريس بكذا وكذا ألْف سنة، ولم نعْصك طرفة عين، وإنما خلقت إدريس منذ أيام قلائل، فأدخلته الجنة قبلنا! فأوحى الله إليهم: يا ملائكتي، إنما خلقْتُكم لعبادتي وتسبيحي وذكري، وجعلت فيها لذّتكم، ولم أجعل لكم لذة في مطعم ولا مشرب ولا في شيء سواها، وقوّيتُكم عليها .وجعلت في الأرض الزينة والشهوات واللذات والمعاصي والمحارم. وإنه اجتنب ذلك كلّه مِن أجلي، وآثر هواي على هواه، ورضاي ومحبتي على رضاه ومحبته. فمن أراد منكم أن يدخل مدخل إدريس، فليهبط إلى الأرض فليعبدْني بعبادة إدريس ويعمل بعمل إدريس! فإن عمِل مثل إدريس، أُدخله مدخل إدريس. وإن غيّر أو بدّل، استوجب مدخل الظالمين. فقالت الملائكة: ربنا لا نطلب ثواباً، ولا تصيبنا بعقاب! رضينا بمكاننا منك، يا رب! وفضيلتك إيانا. وانتدب ثلاثة من الملائكة هاروت وماروت وملَك آخر رضوا به، فأوحى الله إليهم: أمَا إن اجتمعتم على هذا، فاحذروا إن نفعكم الحذر !فإني أنذركم! اعلموا أنّ أكبر الكبائر عندي أربع، فما عملتم سواها غفرتُه لكم، وإن عملتموها لم أغفر لكم !قالوا: وما هي؟ قال: أن لا تعبدوا صنماً، ولا تسفكوا دماً، ولا تشربوا خمراً، ولا تطؤوا محرماً. فهبطوا إلى الأرض على ذلك، فكانوا في الأرض على مثل ما كان عليه إدريس، يقيمون أربعة أيام في سياحتهم وثلاثة أيام يُعلّمون الناس الخير ويدعونهم إلى عبادة الله تعالى وطاعته، حتى ابتلاهم الله بالزهرة، وكانت من أجمل النساء. فلما نظروا إليها، افتتنوا بها، لِما أراد الله، ولِما سبق عليهم في علمه، مع خذلان الله إياهم. فنسوا ما تقدّم إليهم، فسألوها نفسها. قالت لهم: نعم. ولكن لي زوج لا أقدر على ما تريدون مني إلاّ أن تقتلوه، وأكون لكم .فقال بعضهم لبعض: إنا قد أُمرنا أن لا نسفك دماً، ولا نطأ محرّماً، ولكن نفعل هذا مع هذا، ثم نتوب من هذا كلّه .فلما أحس الثالث بالفتنة عصمه الله من ذلك كله بالسماء، فدخلها فنجا. وأقام هاروت وماروت لِما كُتب عليهما، فشدا على

زوجها، فقتلاه. فلما أراداها، قالت: لي صنم أعبده، وأنا أكره معصيته وخلافه، فإن أردتما فاسجدا له سجدة واحدة. فدعتْهما الفتنة إلى ذلك، فقال أحدهما لصاحبه: إنّا قد أُمرنا أن لا نسفك دماً، ولا نطأ محرّما، ولكنا نفعله، ثم نتوب من جميعه. فسجدوا لذلك الصنم. فلما أراداها، قالت لهما: قد بقيت لي حاجة أخرى. قالا: وما هي؟ قالت: لي شراب لا يطيب لي العيش إلاّ به. قالا: وما هو؟ قالت :الخمر. فدعتْهما الفتنة إلى ذلك، فقال أحدهما لصاحبه :إنا قد أُمرنا أن لا نشرب خمراً. فقال الآخر: إنا قد أمرنا أن لا نسفك دماً ولا نطأ محرّماً، ولكنا نفعله ثم نتوب من جميعه. فشربا الخمر. فلما أراداها، قالت: قد بقيت لي حاجة أخرى. قالا: وما هي؟ قالت: تعلِّماني الكلام الذي تعرجان به إلى السماء. فعلّماها إياه. فلما تكلمت به عرجت إلى السماء، فلما انتهت إلى السماء، مُسخت نجماً. فلما ابتُليا بما ابتُليا به عرجا إلى السماء، فغُلقت أبواب السماء دونهما، وقيل لهما: إن السماء لا يدخلها خطاء. فلما مُنعا من دخول السماء، وعلِما أنهما قد افتُتنا وابتُليا، عجّا إلى الله بالدعاء والتضرع والابتهال، فأوحى الله إليهما: حلّ عليكما سخطي، ووجبت فيما تعرضتُما واستوجبْتما. وقد كنتما مع ملائكتي في طاعتي وعبادتي حتى عصيتما، فصرتما بذلك إلى ما صرتما إليه من معصيتي وخلاف أمري؛ فاختارا إن شئتما عذاب الدنيا وإن شئتما عذاب الآخرة! فعلِما أن عذاب الدنيا وإن طال فمصيره إلى زوال، وأن عذاب الآخرة ليس له زوال ولا انقطاع، فاختارا عذاب الدنيا؛ فهما ببابل معلّقيْن منكوسيْن مقرّنيْن إلى يوم القيامة.((
وهذا ضعيف لإرساله، وعمر بن عبد الله مولى غفرة من صغار التابعين كثير الإرسال، ضعّفه بعضهم، ووثقه آخرون. ولم أقف على بقية إسناده.

ثانياً :الموقوفات .

الموقوفات على الصحابة، وجُلّها يعتبر في حُكم المرفوع، لما سنذكره في حينه -إن شاء الله:-

الأول: عن جمع وفير من الصحابة، وهو شبه إجماع:

وذلك فيما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم (١٠٢٩)، والحاكم (١٥٥/٤) وصححه، والبيهقي في" سننه(٨/١٣٦) "، من طريقين عن ابن أبي الزناد :

قال: حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة زوج النبي –صلى الله عليه وسلم–: أنها قالت: "قدمت امرأة عليّ من أهل دومة الجندل، جاءت تبتغي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعد موته حداثة ذلك، تسأله عن أشياء دخلت فيها من أمر السحر، ولم تعمل به . قالت عائشة –رضي الله عنها– لعروة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجِد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فيشفيها. كانت تبكي حتى إني لأرحمها، وتقول: إني أخاف أن أكون قد هلكْت. كان لي زوج فغاب عني، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءتني بكلبيْن أسوديْن، فركبتُ أحدهما وركبت الآخر. فلم يكن لشيء حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلّقيْن بأرجلهما، فقالا: ما جاء بك؟ فقلنا: نتعلّم السحر. فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري !فارجعي! فأبيت، وقلت: لا! قالا: فاذهبي إلى ذلك التنور، فبولي فيه. فذهبت ففزعت، ولم أفعل. فرجعت إليهما، فقالا: أفعلتِ؟ فقلت: نعم. فقالا: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: لمْ تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري! فأربت وأبيت. فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه. [فذهبت فاقشعررت وخفت، ثم رجعت إليهما. وقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: كذبتِ! لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري! فإنك على رأس أمرك، فأربت وأبيت. فقالا: اذهبي إلى التنور فبولي فيه]. فذهبت إليه، فبلت فيه، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني، فذهب في السماء، وغاب حتى ما أراه. فجئتهما. فقلت: قد فعلت . فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارساً مقنّعاً خرج مني فذهب في السماء، وغاب حتى ما أراه. فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك! اذهبي! فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئاً، وما قالا لي شيئاً. فقالت: بلى، لم تريدي شيئاً إلا كان. خذي هذا القمح فابذري. فبذرت، وقلت: أطلعي،) فأطلعت). وقلت: احقلي، فأحقلت، ثم قلت: أفركي، فأفركت .ثم قلت: أيبسي. فأيبست. ثم قلت: أطحني، فأطحنت. ثم قلت: اخبزي، فأخبزت. فلما رأيت أني لا أريد شيئاً إلاّ كان، سُقط في يديّ وندمت. والله! يا أم المؤمنين، ما فعلت شيئاً، ولا أفعله أبداً. فسألت أصحاب رسول الله– صلى الله عليه وسلم– حداثة وفاة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهم يومئذ متوافرون–، فما دروْا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يُفتيَها

بما لا يعلمه، إلاّ أنه قد قال لها ابن عباس –أو بعض من كان عنده–: لو كان أبواك حيّيْن أو أحدهما ."!

قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضّمان. قال ابن أبي الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله. ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم، لوجدتْ نُوكَى أهل حُمق وتكلّف بغير علْم. والنّوكَى: جمع أنْوَك وهو: الأحمق.

وذكره ابن كثير بعد أن قال: وقد ورد (في ذلك) أثر غريب وسياق عجيب في ذلك، أحببنا أن ننبّه عليه. ثم قال: هذا إسناد جيّد إلى عائشة –رضي الله عنها .–

قال الآلوسي، بعد ذكْره لهذه القصة :

فهو ونظائره ممّا ذكره المفسِّرون من القصص في هذا الباب، ممّا لا يعوِّل عليه ذوو الألباب. والإقدام على تكذيب مثل هذه الامرأة الدومجندلية أولى من اتهام العقل في قبول هذه الحكاية التي لم يصح فيها شيء عن رسول رب البرية– صلى الله تعالى عليه وسلم–. ويا ليت كتب الإسلام لم تشتمل على هذه الخرافات التي لا يصدّقها العاقل ولو كانت أضغاث أحلام.

قلت: ما أحسن السكوت في موضعه، لقد ركب الآلوسي صعباً؛ فهو من حيث لا يشعر يتّهم خير القرون بالسذاجة وعدم الفطنة، وقلّة العلم بما يجوز عقلاً وشرعاً وما لا يجوز... كما أنه يتّهم مَن رواها، ابتداء من عائشة وانتهاء بمن ضمّنها كُتبه من أهل العلْم. وإننا والله لنصدِّقها وليس فيها شيء يتعارض مع العقل، بل العيب في عقْل مَن أنكرها.

وظن الآلوسي أن الناس في هذا الزمان كانوا كذَبة كما في أزمنتنا المتأخرة، والله المستعان. بل كان الصِّدق سليقتَهم .وما مصلحة هذه المرأة الموتورة في مثل هذه الكذبة؟ وهي من التابعيات المخضرمات، وأوشكت أن تكون صحابية جليلة؛ بل ربما كانت صحابية، فقد تكون قدمت قبل ذلك على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في غير هذه المرة...

ثم إنها قد طرحت قصتها على كبار علماء الصحابة وخيارهم، فلم يُنكر عليها أحد هذه القصة ولم يكذّبوها، ممّا يدلل على استفاضة علْمهم بأمر هاروت وماروت وفْق ما أخبرت به .ولو كان في قصتها غير ما يعرفون من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، لأخذوا على يديها، ولأَكْذَبوها واتّهموها، بدلاً مِن عطفهم عليها، وبحثهم عن مخرج لها ممّا وقعت فيه.

فليت شعري! أأصحاب رسول الله المتوافرون أعلم، أم الآلوسي ومن لفّ لفيفه؟!

وأقول كما قال هشام: لو كان الناس في زمان هذه المرأة كالناس في زماننا، لوجدت نُوكى يتّهمونها بالكذب أو الجنون.

نكتفي بهذا القدر، ونستكمل الآثار في المحاضرة القادمة- إن شاء الله.-

الأسئلة :

١. روى أحمد في المسند وغيره من حديث ابن عمر أن هاروت وماروت ملَكان من الملائكة أنزلهما الله إلى الأرض وامتحنهما كما امتحن بني آدم بامرأة جميلة فزنيا بها وفعلا من فعلا فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا . وقال أحمد : حديث منكر (صح)

٢. في قصة هاروت وماروت أن المرأة التي أغوتهما مسخها الله فانقلبت إلى الزهرة (صح) .

٣. حسن ابن حجر في الفتح حديث ابن عمر في هاروت وماروت (صح) .

٤. رد الهيثمي في مجمع الزوائد رواية ابن عمر في هاروت وماروت وقال : هي رواية منكرة ضعيفة جداً (خطأ) .

٥. ذكر ابن حجر في كتاب (العجاب) حديث ابن عمر وأورد له متابعات وقال : ومجموع ذلك يدل على أن للقصة أصلاً أصيلاً (صح) .

٦. نقل المنذري عن بعض العلماء أن الرواية الموقوفة على كعب أرجح من الرواية المرفوعة إلى النبي ﷺ ، وقد أخذ بهذا ابن حجر وقواه (خطأ) .

٧. اعتمد الألباني تحسين ابن حجر لحديث ابن عمر وذكره في السلسلة الصحيحة (خطأ)

٨. في رواية ابن عمر أن الزهرة اسم للمرأة التي أغوت هاروت وماروت فلما راوداها عن نفسها رفضت حتى يعلماها الاسم الذي يعرجان به إلى السماء فعلماها إياها فلما قالته مسخت إلى كوكب الزهرة وأما هما فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا (صح) .

٩. ضعف جماعة من أهل العلم قصة هاروت وماروت منهم ابن الجوزي وابن كثير والألباني وحسنها ابن حجر العسقلاني (صح) .

١٠. ورد في أثر عن علي ﷺ أن الزهرة امرأة من بني إسرائيل أغوت هاروت وماروت فمسخها الله ﷻ وضعفه ابن كثير في التفسير (صح) .

١١. في حديث طويل لعمر بن الخطاب عند الطبراني ما يشير إلى أن هاروت وماروت ملكان من الملائكة امتحنهما الله فافتتنا وضعفه السيوطي (صح) .

١٢. وردت هذه القصة أيضاً في مرسل لعمر بن غفرة وهو من صغار التابعين وحديثه فيه ضعف (صح) .

١٣. ورد في حديث عن عائشة أنه بعد وفاة النبي ﷺ جاءت امرأة قد تعلمت سحر هاروت وماروت وتريد أن تتوب وتسأل عن ذلك فلم يفتها الصحابة بشيء ، وهو حديث صحيح الإسناد إلى عائشة (صح) .

١٤. في حديث عائشة عن المرأة أنه لا يتعلم أحد سحر هاروت وماروت حتى يخرج منه إيمانه (صح) .

١٥. في حديث عائشة عن المرأة أن هاروت وماروت قالا لها قبل أن يعلماها السحر : إنما نحن فتنة فارجعي ولا تكفري (صح) .

١٦. رد الألوسي حديث عائشة في قصة المرأة بكونها يخالف العقل ، وأن الأولى تكذيب المرأة (صح) .

١٧. ما ذهب إليه الألوسي من رد خبر عائشة بأن العقل لا يقبله خطأ شنيع ، فإن عقول الصحابة كانت أرجح من عقولنا وعلومهم أعظم من علومنا ، والصدق سليقتهم (صح) .

١٨. يكفي في صدق المرأة التي جاءت عائشة أن الصحابة لم ينكروا عليها قصتها وإما توقفوا عن إجابتها في فتواها ولو كان خبرها مناقضاً للعقل والشرع لرفضوه مباشرة (صح) .

١٩. عدم رد الصحابة لما أخبرت به المرأة عن هاروت وماروت يدل على أن القصة معروفة عندهم (صح) .

٢٠. عدم إجابة الصحابة للمرأة في سؤالها عن التوبة من تعلم سحر هاروت وماروت يدل على أنه ليس عندهم علم بشأن هاروت وماروت ولذلك توقفوا في إجابتها (خطأ) .

٢١. الصحيح أن قصة المرأة مع عائشة قصة صحيحة ليس فيها مخالفة لشيء من الشرع أو العقل (صح) .

المحاضرة الثالثة والأربعون

***

تابع تفسير الآيات من (١٠١) إلى (١٠٣) من سورة (البقرة).

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

فنستكمل في هذه المحاضرة جملة من الآثار الواردة في قصة هاروت وماروت، من روايات عن الصحابة والتابعين:

الآثار الواردة في قصة هاروت وماروت، من روايات عن الصحابة -رضي الله عنهم-.

عن عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وابن عباس، وابن عمر:

رواه الدارقطني(١٦٣/٤)، والبيهقي(٦٦/١٠) في سننهما، من طُرق عن بكر بن عبد الله المزني، عن أبي رافع: "أن مولاته أرادت أن تفرّق بينه وبين امرأته، فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية. وكل مملوك لها حر، وكل مال لها في سبيل الله، وعليها المشي إلى بيت الله، إن لم تفرّق بينهما. فسألت عائشة -رضي الله عنها- وابن عمر، وابن عباس، وحفصة، وأم سلمة؛ فكلّهم قال لها: أتريدين أن تكوني مثل هاروت وماروت؟ وأمروها أن تكفّر يمينها، وتخلِّي بينهما".

وله ألفاظ أخرى ،وإسناده صحيح. والشاهد فيه: أن هؤلاء الصحابة جميعهم متقرِّر عندهم: أن هاروت وماروت يفرِّقان بين المرء وزوجه.

عن ابن عمر:

جاءت عنه القصة مطولة من طريقيْن:

الأول: من رواية سعيد بن جبير عنه:

أخرجه الحاكم (٦٥٠/٤) قال: "أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عمرويه الصفار، ببغداد، ثنا محمد بن إسحاق الصغاني: ثنا أبو الجواب: ثنا يحيي بن سلمة بن كهيل، عن

أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر –رضي الله عنهما–: أنه كان يقول: أطَلَعت الحمراء بعد؟ فإذا رآها قال: لا مرحباً! ثم قال: إنّ ملكيْن من الملائكة: هاروت وماروت، سألا الله تعالى أن يهبطا إلى الأرض، فأُهبطا إلى الأرض. فكانا يقضيان بين الناس، فإذا أمسيا تكلّما بكلمات وعرجا بها إلى السماء. فقيّض لهما بامرأة من أحسن النساء، وأُلقيت عليهما الشهوة، فجعلا يؤخرانها. وأُلقيت في أنفسهما، فلم يزالا يفعلان حتى وعدتْهما ميعاداً فأتتهما للميعاد، فقالت: علِّماني الكلمة التي تعرجان بها، فعلّماها الكلمة، فتكلمت بها فعرجت بها إلى السماء، فمُسخت فجُعلت كما تروْن. فلما أمسيا تكلّما بالكلمة التي كانا يعرجان بها إلى السماء، فلم يعرجا. فبُعث إليهما: إن شئتما فعذاب الآخرة، وإن شئتما فعذاب الدنيا إلى أن تقوم الساعة على أن تلتقيان الله تعالى فإن شاء عذّبكما وإن شاء رحِمَكما. فنظر أحدهما إلى صاحبه، فقال أحدهما لصاحبه: بل نختار عذاب الدنيا ألْف ألْف ضعف؛ فهما يُعذَّبان إلى أن تقوم الساعة".

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وترك حديث يحيى بن سلمة، عن أبيه مِن المحالات التي يردّها العقل؛ فإنه لا خلاف أنه من أهل الصنعة، فلا ينكر لأبيه أن يخصّه بأحاديث يتفرّد بها عنه.

الثاني: عن مجاهد عنه:

أخرجه ابن أبي حاتم قال: "ثنا أبي: ثنا عبد الله بن جعفر الرقي: ثنا عبيد الله –يعني ابن عمرو– عن زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال بن عمرو ويونس بن خباب، عن مجاهد، قال: كنت نازلاً على عبد الله بن عمر في سفر، فلما كان ذات ليلة، قال لغلامه: (انظر) طلعت الحمراء، لا مرحبا بها ولا أهلاً، ولا حياها الله! هي صاحبة الملَكيْن. قالت الملائكة: ربّ! كيف تدَع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام، وينتهكون محارمك، ويفسدون في الأرض؟! قال: إني قد ابتليْتُهم، فعلَّ إن ابتليتُكم بمثْل الذي ابتليتُهم به، فعلْتم كالذي يفعلون! قالوا: لا. قال: فاختاروا مِن خياركم اثنيْن! فاختاروا هاروت وماروت. فقال لهما: إني مُهبطكما إلى الأرض، وعاهد إليكما أن لا تُشركا ولا تزنيا ولا تخونا. فأهبطا إلى الأرض، وأُلقى عليهما الشبق، وأُهبطت لهما الزهرة في أحسن صورة امرأة، فتعرّضت لهما،

فأراداها عن نفسها. فقالت: إني على دين، لا يصلح لأحد أن يأتيني إلاّ مَن كان على مثله. قالا: وما دِينك؟ قالت: المجوسيّة. قالا: الشرك! هذا شيء لا نقرّ به. فمكثت عنهما ما شاء الله، ثم تعرّضت لهما، فأراداها عن نفسها. فقالت: ما شئتما، غير أنّ لي زوجاً، وأنا أكره أن يطّلع على هذا مني فأُفتضح؛ فإن أقررتما لي بديني، وشرطتما أن تصعدا بي إلى السماء فعلت. فأقرّا لها بدينها، وأتياها فيما يريان، ثم صعدا بها إلى السماء. فلما انتهيا بها إلى السماء، اختُطفت منهما، وقُطعت أجنحتهما، فوقعا خائفيْن نادميْن يبكيان. وفي الأرض نبي يدعو بين الجمعتيْن، فإذا كان يوم الجمعة أجيب، فقالا: لو أتينا فلاناً، فسألناه، فطلب لنا التوبة. فأتياه، فقال: رحمكما الله! كيف يطلب أهل الأرض لأهل السماء؟ قالا: إنا قد ابتُلينا. قال: ائتياني يوم الجمعة، فأتياه. فقال: ما أُجبت فيكما بشيء، ائتياني في الجمعة الثانية، فأتياه. فقال: اختارا، فقد خُيِّرتما، إن أحببتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدنيا، وأنتما يوم القيامة على حُكم الله. فقال أحدهما: إن الدنيا لم يمض منها إلاّ القليل. وقال الآخر: ويحك! إني قد أطعتك في الأمر الأول، فأطعني الآن! إن عذاباً يفنى ليس كعذاب يبقى. فقال: إننا يوم القيامة على حكم الله، فأخاف أن يعذِّبنا. قال: لا، إني أرجو إنْ علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة، أن لا يجمعهما علينا. قال: فاختارا عذاب الدنيا، فجُعلا في بكرات من حديد في قليب مملوءة من نار، عاليهما سافلهما".

وأخرجه سعيد بن منصور أيضاً، كما في "الدر المنثور".

وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر. وقد تقدم في رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح، عن نافع عنه، رفعه؛ وهذا أثبت وأصح إسناداً. ثم هو –والله أعلم– من رواية ابن عمر عن كعب، كما تقدم بيانه (من رواية) سالم عن أبيه.

قال: وقوله: إن الزهرة نزلت في صورة امرأة حسناء، وكذا في المروي عن علي، فيه غرابة جداً.

قال ابن حجر في "العجاب": وجاء عن ابن عمر مطولاً، أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح، عن مجاهد، قال: "كنت نازلاً على عبد الله بن عمر في سفر...". وهذه متابعة قوية لرواية موسى بن جبير عن نافع، لكنها موقوفة على ابن عمر لم يضفها إلى النبي –صلى

الله عليه وسلم-.

قلت: ما ذكره ابن حجر هو الصواب -إن شاء الله تعالى-.

عن ابن عباس:

جاءت عنه الرواية من عدّة طُرق:

الأول: عن قيس بن عباد عنه:

أخرجه ابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في "الشعب"، والسمرقندي في "تفسيره" (١٠٥/١)، من طريقيْن عن أبي جعفر الرازي، قال: ثنا الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: "لما وقع الناس من بعد آدم -عليه السلام- فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت: الملائكة في السماء: يا رب! هذا العالَمَ الذي إنما خلقْتَهم لعبادتك وطاعتك، وقد وقعوا فيما وقعوا فيه، وركبوا الكفر، وقتْل النفس، وأكل المال الحرام، والزنى والسرقة وشرب الخمر. فجعلوا يدعون عليهم، ولا يُعذرونهم. فقيل: إنهم في غيب. فلم يعذروهم. فقيل لهم: اختاروا منكم مِن أفضلِكم مَلَكيْن؛ آمرهما وأنهاهما. فاختاروا هاروت وماروت، فأُهبطا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بني آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً، ونُهيا عن قتل النفس الحرام، وأكل المال الحرام، وعن الزنى والسرقة وشرب الخمر.

فلبثا في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق، وذلك في زمان إدريس -عليه السلام-. وفي ذلك الزمان امرأة حُسْنها في النساء كحُسن الزهرة في سائر الكواكب، وإنهما أتيا عليها فخضعا لها في القول، وأراداها على نفسها، فأبت إلاّ أن يكونا على أمرها، وعلى دينها. فسألا عن دينها، فأخرجت لهما صنماً فقالت: هذا أعبده. فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا. فذهبا فغبرا ما شاء الله، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، ففعلت مثل ذلك، فذهبا. ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم، قالت لهما: اختارا إحدى الخِلال الثلاث؛ إما أن تعبدا هذا الصنم، وإمّا أن تقتلا هذه النفس، وإمّا أن تشربا هذا الخمر! فقالا: كل هذا لا ينبغي، وأهون هذا: شرب الخمر. فشربا الخمر، (فأخذت فيهما) فواقعا المرأة، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما؛ فقتلاه. فلما ذهب عنهما

السكْر، وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة، أرادا أن يصعدا إلى السماء، فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك. وكُشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجِبوا كلّ العجب، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية؛ فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض. فنزل في ذلك: }وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ{.

فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. فقالا: أمّا عذاب الدنيا فإنه ينقطع (ويذهب)، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له. (فاختارا عذاب الدنيا)، فجُعلا ببابل؛ فهما يعذَّبان".

قال ابن عباس: "فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي، وقالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر! وذلك أنهما علِما الخير والشر، والكفر والإيمان، فعرفا أنّ السحر من الكفر. (قال): فإذا أبي عليهما، أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلّمه، فإذا تعلّمه، خرج منه النور، فنظر إليه ساطعاً في السماء، فيقول: يا حسرتاه! يا ويله! ماذا صنع؟".

هذا لفظ ابن أبي حاتم، ولفظه عند غيره، عن ابن عباس –رضي الله عنهما– في قوله –عز وجل–: }وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ...{ الآية، قال: "إن الناس بعد آدم وقعوا في الشرك، اتخذوا هذه الأصنام وعبدوا غير الله. قال: فجعلت الملائكة يدعون عليهم ويقولون: ربنا خلقت عبادك فأحسنت خلْقهم، ورزقتهم فأحسنتَ رزقهم؛ فعصوك وعبدوا غيرك. اللهم... يدعون عليهم. فقال لهم الرب –عز وجل–: إنهم في غيب. فجعلوا لا يعذرونهم. فقال: اختاروا منكم اثنيْن أهبطهما إلى الأرض، فآمرهما وأنهاهما. فاختاروا هاروت وماروت". قال: وذكر الحديث بطوله.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وعزاه السيوطي أيضاً لابن المنذر.

قال ابن كثير: هذا أقرب ما روي في شأن الزهرة –والله أعلم–.

قال ابن حجر في "العجاب": سنده حسن.

الثاني من طريق يزيد الفارسي عنه:

أخرجه ابن أبي حاتم، قال: ثنا أبي: ثنا مسلم: ثنا القاسم بن الفضل الحداني: ثنا يزيد -يعني الفارسي- عن ابن عباس، قال: "إن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض، فرأوهم يعملون المعاصي، فقالوا: يا رب! أهل الأرض يعملون بالمعاصي! فقال الله: أنتم معي، وهم غُيَّب عني. فقيل لهم: اختاروا منكم ثلاثة! فاختاروا منهم ثلاثة، على أن يهبطوا إلى الأرض، على أن يحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهم شهوة الآدميين. فأُمروا أن لا يشربوا خمراً، ولا يقتلوا نفساً، ولا يزنوا، ولا يسجدوا لوثن. فاستقال منهم واحد، فأُقيل. فأُهبط اثنان إلى الأرض، فأتتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها: مناهية. فهوياها جميعاً، ثم أتيا منزلها، فاجتمعا عندها، فأراداها، فقالت لهما: لا! حتى تشربا خمري، وتقتلا ابن جاري، وتسجدا لوثني! فقالا: لا نسجد. ثم شربا من الخمر، ثم قتلا، ثم سجدا، فأشرف أهل السماء عليهما. فقالت لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طِرتما. فأخبراها، فطارت، فمُسخت جمرة، وهي هذه الزهرة. وأمّا هما، فأرسل إليهما سليمان بن داود، فخيّرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما مناطان بين السماء والأرض".

قال ابن كثير: "وهذا السياق فيه زيادات كثيرة، وإغراب، ونكارة". والله أعلم بالصواب.

قلت: رجاله ثقات. ويزيد الفارسي: تابعي من كتّاب المصاحف، وروايته لها شواهد ومتابعات.

وقال ابن حجر في "العجاب": "سنده جيد إلى يزيد الفارسي".

الثالث: من طريق أبي عثمان النهدي عنه:

أخرجه ابن جرير، وابن أبي الدنيا في "العقوبات" (٢٢١)، من طريقيْن عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود وابن عباس: أنهما قالا جميعاً: "لما كثر بنو آدم وعصوْا، دعت الملائكة عليهم والأرض (والسماء) والجبال: ربنا ألاَ تُهلكهم؟! فأوحى الله تعالى إلى الملائكة: إني أنزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم، ولو نزلتم لفعلتم أيضاً. قال: فحدثوا أنفسهم أن لو ابتُلوا اعتصموا، فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكيْن من أفضلكم. فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض، وأنزلت الزهرة إليهما في صورة امرأة من أهل فارس (يسمونها: بيذخت). قال: فوقعا بالخطيئة. فكانت الملائكة

يستغفرون للذين آمنوا: }رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً{. فلما وقعا بالخطيئة، استغفروا لمن في الأرض } أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{. فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا".

وإسناده حسن، على كلام في ابن جدعان. وقد جاء مختصراً من غير طريقه، فيما رواه الحاكم (٢/٢٩٢، ٤٨٠)، من طريق سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: "كانت الزهرة امرأة في قومها يقال لها: بيذخت".

وقال الحاكم: الإسنادان صحيحان على شرط الشيخيْن –يعني: إسناد هذا وحديث علي–.

والغرض في إخراج الحديثيْن: ذكْر هاروت وماروت، وما سبق من قضاء الله فيهما وللزهرة.

وقال ابن حجر في "العجاب": وقال عبد الرزاق في "تفسيره"، وأخرجه عبد بن حميد عنه، قال: أنا ابن التيمي هو: معتمر بن سليمان، عن أبيه، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن عباس، قال: "إن المرأة التي فُتن بها الملكان مُسخت، فهي هذه الكوكب الحمراء –يعني: الزهرة–". وهذا سند صحيح.

الرابع: من طريق أبي شعبة العدوي عنه:

أخرجه ابن جرير قال: حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا معاذ بن هشام، قال: حدثني أبي عن قتادة، قال: ثنا أبو شعبة العدوي في جنازة يونس بن جبير أبي غلاب، عن ابن عباس، قال: "إن الله أفرج السماء لملائكته ينظرون إلى أعمال بني آدم، فلما أبصروهم يعملون الخطايا، قالوا: يا رب! هؤلاء بنو آدم الذي خلقتَه بيدك، وأسجدتَ له ملائكتك، وعلّمتَه أسماء كلّ شيء، يعملون بالخطايا! قال: أما إنكم لو كنتم مكانهم لعملتُم مثل أعمالهم. قالوا: سبحانك! ما كان ينبغي لنا! قال: فأُمروا أن يختاروا مَن يهبط إلى الأرض، قال: فاختاروا هاروت وماروت. فأُهبطا إلى الأرض، وأحلّ لهما ما فيها من شيء، غير أن لا يشركا بالله شيئاً، ولا يسرقا، ولا يزنيا، ولا يشربا الخمر، ولا يقتلا النفس التي حرم الله إلا بالحق. قال: فما استمرا حتى عرض لهما امرأة قد قُسم لها نصف الحسن، يقال لها: بيذخت. فلما أبصراها أرادا بها زنى، فقالت: لا إلاّ أن تشركا بالله، وتشربا الخمر، وتقتلا النفس، وتسجدا لهذا الصنم. فقالا: ما كنا لنشرك بالله شيئاً. فقال أحدهما للآخر: ارجع

إليها. فقالت: لا! إلاّ أن تشربا الخمر. فشربا حتى ثملا، ودخل عليهما سائل فقتلاه، فلما وقعا فيه من الشر، أفرج الله السماء لملائكته، فقالوا: سبحانك! كنت أعلم. قال: فأوحى الله إلى سليمان بن داود أن يُخيّرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا؛ فكُبِّلا من أكعبهما إلى أعناقهما بمثل أعناق البُخت، وجعلا ببابل".

قال ابن حجر في "العجاب": "سنده صحيح إلى قتادة".

الخامس: من طريق علي بن أبي طلحة عنه:

أخرجه ابن جرير قال: حدثني المثنى، قال: ثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: }وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ{، قال: "التفريق بين المرء وزوجه".

وإسناده حسن.

السادس: عن عكرمة عنه:

أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (١٣٠/٣)، قال: حدثنا إبراهيم، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا يعقوب بن إسحاق الحضرمي، قال: حدثنا عيسى بن موسى، عن عبد الله بن كيسان، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: "اسما الملكيْن اللذيْن يأتيان في القبر: منكر ونكير. وكان اسم هاروت وماروت وهما في السماء: عزرا وعزيرا".

قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن عبد الله بن كيسان إلاّ عيسى، تفرد به يعقوب.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٥٤/٣): إسناده حسن.

السابع: من رواية عبيد الله بن عبد الله بن عباس عنه:

"يأتي ذكْر هذه الرواية فيما يأتي عن شيخ من قريش، من رواية ابنه عنه في الصحابة، وفي رواية عبيد الله في التابعين".

عن علي بن أبي طالب:

رواه عنه عمير بن سعيد.

أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا، في "العقوبات" (٢٢٣)، والحاكم (٢٩١/٢، ٤٨٠)، وأبو الشيخ في "العظمة" (١٢٢٣/٤) مختصراً ومطولاً، مِن طُرق عن عمير بن سعيد النخعي، قال: "سمعت علياً -رضي الله عنه- يخبر القوم: أن هذه الزهرة تسميها العرب: الزهرة، وتسميها العجم: أناهيد. وكان الملكان يحكمان بين الناس، فأتتهما امرأة فأرادها كل واحد منهما عن غير علْم صاحبه، فقال أحدهما لصاحبه: يا أخي إن في نفسي بعض الأمر أريد أن أذكره لك. قال: اذكره يا أخي، لعل الذي في نفسي مثل الذي في نفسك. فاتفقا على أمر في ذلك. فقالت لهما المرأة: ألا تخبراني بما تصعدان إلى السماء، وبما تهبطان إلى الأرض؟ فقالا: (باسم الله الأعظم)، به نهبط وبه نصعد. فقالت: ما أنا بمؤاتيتكما الذي تريدان حتى تُعلِّمانيه. فقال أحدهما لصاحبه: علِّمها إياه. فقال: كيف لنا بشدّة عذاب الله؟ قال الآخر: إنا نرجو سعة رحمة الله. فعلّمها إياه، فتكلمت به فطارت إلى السماء، ففزع ملَك في السماء لصعودها، فطأطأ رأسه فلم يجلس بعد، ومسخها الله فكانت كوكباً".

قال الحاكم: الإسنادان صحيحان على شرط الشيخيْن -عني: إسناد هذا، وحديث ابن عباس-. والغرض في إخراج الحديثين: ذكْر هاروت وماروت، وما سبق من قضاء الله فيهما وللزهرة.

ولفظه عند ابن جرير: عن عمير بن سعيد، قال: سمعت علياً -رضي الله عنه- يقول: "كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس، وإنها خاصمت إلى الملكيْن هاروت وماروت، فراوداها عن نفسها، فأبت عليهما إلاّ أن يعلمّاها الكلام الذي إذا تكلّم به (أحد) يُعرَج به إلى السماء. فعلّماها؛ فتكلمت، فعرجت إلى السماء. فمُسخت كوكباً".

قال ابن كثير: هذا الإسناد رجاله ثقات، وهو غريب جداً!

قال ابن حجر في "العجاب": وهذا سند صحيح، وحكمه أن يكون مرفوعاً، لأنه لا مجال للرأي فيه، وما كان علي -رضي الله عنه- يأخذ عن أهل الكتاب. وأخرجه عبد بن حميد بسند آخر صحيح إلى علي، أتمّ منه، فذكر الرواية المطوّلة.

وعزاه السيوطي أيضاً لإسحاق بن راهويه.

وعمير بن سعيد -كما في "تهذيب التهذيب" (١٢٩/٨)- من رجال البخاري ومسلم. وقال شعبة عن الحكم بن عتيبة: قال عمير بن سعيد: وحسبك به. وقال ابن معين: ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات. وقال ابن سعد: كان ثقة. وقال العجلي: ثقة.

قال ابن حجر: وأفرط أبو محمد ابن حزم في الكلام على الملائكة من كتاب "الملل والنحل"، فقال: إنه مجهول، وأنه روى حديثيْن عن علي ما نعلم له غيرهما: أحدهما: في ذكر شارب الخمر -يعني: الذي أخرجه البخاري-، والآخر: في قصة هاروت وماروت. وقال: وكلاهما كذب - كذا قال-. ولقد استعظمت هذا القول، ولولا شرطي في كتابي هذا، ما عرجت عليه؛ فإنه من أشنع ما وقع لابن حزم -سامحه الله-. وقد وقفنا له عن علي على حديث آخر: أنه كبر على يزيد بن المكفف أربعاً، وله روايات عن غير علي، فما أدري هذا الجزم من ابن حزم!

عن ابن مسعود:

من طريق أبي عثمان النهدي، عنه هو وابن عباس، أخرجه ابن جرير، وابن أبي الدنيا، وتقدم ذكْره في طُرق ابن عباس، وإسناده حسن.

عن عمر:

أخرجه أبو الشيخ في "العظمة" (١٢٢٣/٤)، قال: "حدثنا إسحاق: حدثنا عبد الله: حدثنا إسحاق بن سليمان وأبو داود، عن طلحة، عن عطاء -رحمه الله تعالى-، قال: نظر عمر -رضي الله عنه- إلى سهيل فسبّه، ونظر إلى الزهرة فسبّها، فقال: أما سهيل فكان رجلاً عشاراً، وأمّا الزهرة فهي التي فتنت هاروت وماروت".

وهو منقطع.

عن رجل من قريش أظنه ابن عباس:

من رواية ولده عنه.

أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٥٨٠/٢)، قال: "نا عتاب بن بشير، عن خُصيف،

قال: كنت مع مجاهد، فمر بنا رجل من قريش، فقال له مجاهد: حدثنا ما سمعت من أبيك. قال حدثني أبي: أنّ الملائكة حين جعلوا ينظرون إلى أعمال بني آدم وما يركبون من المعاصي الخبيثة، وليس يستر الناس من الملائكة شيء، فجعل بعضهم يقول لبعض: انظروا إلى بني آدم كيف يعملون كذا وكذا! ما أجرأهم على الله! يعيبونهم بذلك. فقال الله -عز وجل- لهم: قد سمعت الذي تقولون في بني آدم، فاختاروا منكم ملكيْن أهبطهما إلى الأرض، واجعل فيهما شهوة بني ادم. فاختاروا هاروت وماروت، فقالوا: يا ربّ ليس فينا مثلهما. فأهبطا إلى الأرض، وجعل فيهما شهوة بني ادم. ومثلت لهما الزهرة في صورة امرأة، فلما نظرا إليها لم يتمالكا أن تناولا منها ما الله أعلم به، وأخذت الشهوة بأسماعهما وأبصارهما. فلما أرادا أن يطيرا إلى السماء لم يستطيعا، فأتاهما ملَك فقال: إنكما قد فعلتما ما فعلتما، فاختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة! فقال أحدهما للآخر: ماذا ترى؟ قال: أرى أن أُعذَّب في الدنيا ثم أُعذَّب، أحبّ إليّ من أن أعذَّب ساعة واحدة في الآخرة. فهما معلقان مُنكَّسان في السلاسل، وجُعلا فتنة".

سنده ظاهره الضعف، لجهالة محدّث مجاهد، واحتمال كبير أنه أحد أبناء ابن عباس؛ ولعله عبيد الله بن عبد الله بن عباس، كما سيأتي عنه. فالإسناد لا بأس به -والله أعلم-.

الآثار الواردة في قصة هاروت وماروت، من روايات عن التابعين.

عن مجاهد:

أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في "العظمة" (١٢٢٣/٤)، من طريق ابن أبي نجيح عنه، قال: "أمّا شأن هاروت وماروت، فإن الملائكة عجبت من ظلم بني آدم، وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات، فقال لهم ربهم تعالى: اختاروا منكم ملَكيْن أُنزلهما يحكمان في الأرض بين بني آدم! فاختاروا فلم يألوا: هاروت وماروت. فقال لهما حين أنزلهما :أعجِبتم من بني آدم؟ ومن ظلمهم ومعصيتهم؟وإنما تأتيهم الرسل والكتب من وراء وراء، وأنتما ليس بيني وبينكما رسول؛ فافعلا كذا وكذا، ودعا كذا وكذا. فأمرهما بأمر ونهاهما. ثم نزلا على

ذلك، ليس أحد أطوع لله منهما، فحكما فعدلا. فكانا يحكمان النهار بين بني آدم، فإذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة. وينزلان حين يصبحان، فيحكمان فيعدلان. حتى أُنزلت عليهما الزهرة في أحسن صورة امرأة تخاصم، فقضيا عليها. فلما قامت وجد كل واحد منهما في نفسه، فقال أحدهما لصاحبه: وجدت مثل الذي وجدت؟ قال: نعم. فبعثا إليها أن ائتينا نقضِ لك. فلما رجعت، قالا وقضيا لها. فأتتهما، فتكشّفا لها عن عورتهما- وإنما كانت سوءتهما في أنفسهما، ولم يكونا كبني آدم في شهوة النساء ولذتها-. فلما بلغا ذلك واستحلاّ افتُتنا، فطارت الزهرة، فرجعت حيث كانت. فلما أمسيا عرجا، فزُجرا فلم يؤذن لهما، ولم تحملهما أجنحتهما. فاستغاثا برجل من بني آدم، فأتياه فقالا: ادْع لنا ربك. فقال: كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء؟ قالا: سمعنا ربك يذكُرك بخير في السماء. فوعدهما يوماً، وغدا يدعو لهما، (فدعا لهما) فاستجيب له، فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال: ألا تعلم أن أنواع عذاب الله في الآخرة كذا وكذا في الخلد، وفي الدنيا تسع مرات مثلها. فأمرا أن ينزلا ببابل، فثمّ عذابهما. وزعم أنهما معلّقان في الحديد، مطويان، يصفقان بأجنحتهما ."

كما وقعت لمجاهد -رحمه الله- قصة رأى فيها هاروت وماروت:

أخرجها أبو نعيم في" الحلية" (٢٨٨/٣)، قال: "حدثنا أحمد بن اسحاق: ثنا محمد بن يحيى بن مندة قال: ذكر محمد بن حميد: ثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، قال: كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلاّ ذهب ينظر إليها. قال: وذهب إلى حضرموت إلى بئر برهوت. قال: وذهب إلى بابل، قال: وعليها وال صديق لمجاهد، قال: فقال مجاهد تعرض عليّ هاروت وماروت !قال: فدعا رجلاً من السحرة، فقال: اذهب بهذا واعرض عليه هاروت وماروت. فقال اليهودي: بشرط أن لا يدعو الله عندهما. قال مجاهد: فذهب بي إلى قلعة فقلع منها حجراً، قال: ثم قال خذ برجلي فهوى بي حتى انتهى إليهما، فإذا هما متعلقيْن مُنكّسيْن كالجبليْن العظيميْن. فلما رأيتهما قلت: سبحان الله خالقكما! فاضطربا، قال: فكأن جبال الدنيا قد تدكدكت، قال: فغشي عليّ وعلى اليهودي. قال :ثم أفاق اليهودي قبلي. فقال: قم قد أهلكت نفسك وأهلكتني."!

وإسنادها لا بأس به، لمقال في محمد بن حميد الرازي. وقد جزم بهذه القصة جماعة من الحفاظ ممّن ترجموا لمجاهد- رحمه الله-، ومنهم: الحافظ الذهبي، حيث قال عنه في "الكاشف " (٢/٢٤٠)، وقد رأى هاروت وماروت فكاد يتلف.

عن كعب الأحبار:

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٥٣/١)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٦٢/٧)، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في كتاب "العقوبات" (٢٢٤)، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم (١٠١٣)، وأبو نعيم في "الحلية(٨/٢٤٨) "، والبيهقي في "شُعب الإيمان" (١٧٨/١، ٢٩١/٥)، من طُرق عن الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب، قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم وما يأتون من الذنوب، فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين! فاختاروا هاروت وماروت. فقيل لهما: إني أرسل إلى بني آدم رسلاً، فليس بيني وبينكم رسول، انزلا! لا تشركا بي شيئاً، ولا تزنيا، ولا تشربا الخمر! قال كعب: فو الله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نُهيا عنه ."

وتابعه عبد العزيز بن المختار، عن موسى بن عقبة به عند ابن جرير .

قال البيهقي: وهذا أشبه أن يكون محفوظاً. وقال في موضع آخر: هذا هو الصحيح من قول كعب، وقد رويناه في باب" الإيمان بالملائكة" من حديث زهير بن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أتمّ من ذلك.

وقال ابن كثير: فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسناديْن المتقدّميْن، وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع. فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار، عن كتب بني إسرائيل - والله أعلم.-

قال في "نزهة السامعين"، في رواية الصحابة عن التابعين(٩٦/١): هكذا قال أبو حذيفة عن سفيان، وقال عبد الرزاق وقبيصة عن سفيان، إلا أنه لم يذكر كعباً إلاّ في كلمات في آخره، وهي قوله: إنهما لم يستكملا يومهما حتى عملا ببعض ما حُرِّم عليهما.

قلت: تقدم كلام الحافظ ابن حجر في الرد على مَن رجح رواية كعب، وكلامه في ذلك غاية في القوّة، لاسيما بعد ما قدّمناه في الموقوفات الصحيحة الثابتة، التي لها حكم الرفع .

عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس:

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره"، ومن طريقه ابن جرير، قال :قال معمر: قال قتادة والزهري، عن عبيد الله بن عبد الله{" :وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ :}كانا ملكين من الملائكة، فأهبطا ليحكما بين الناس -وذلك أنّ الملائكة سخروا من حكّام بني آدم-، فحاكمت إليهما امرأة، فحافا لها، ثم ذهبا يصعدان، فحيل بينهما وبين ذلك. وخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا ."

وقال معمر: قال قتادة: "فكانا يعلّمان الناس السّحر، فأخذ عليهما أن لا يعلِّما أحداً حتى يقولا{ :إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ."}

إسناده صحيح. وقال ابن حجر في "العجاب": سنده على شرط الصحيح، إن كان التابعي حمله عن ابن عباس .

وعزاه السيوطي لعبد بن حميد وابن المنذر من طريق الزهري به.

نكتفي بهذا القدْر، ونستكمل بقية الآثار مع التعليق عليها في المحاضرة القادمة -إن شاء الله تعالى.-

الأسئلة :

١. حديث أبي رافع أن مولاته أرادت أن تفرق بينه وبين امرأته وحلفت على ذلك أيماناً فسألت عائشة وابن عمر وابن عباس وحفصة وأم سلمة فكلهم قال لها : أتريدين أن تكوني مثل هاروت وماروت وأمروها أن تكفر عن يمينها ، هو حديث رواه الدارقطني والبيهقي وهو حديث ضعيف جداً (خطأ) .

٢. الاستدلال بأثر أبي رافع في قصة مولاته هو بأن جماعة من الصحابة كان متقرراً عندهم أن هاروت وماروت يفرقان بين المرء وزوجه (صح) .

٣. أُر موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر في قصة المرأة التي أغوت هاروت وماروت عند الحاكم حديث صحيح كما قال الحاكم (صح) .

٤. أثر مجاهد عن ابن عمر عند ابن أبي حاتم وسعيد بن منصور في قصة هاروت وماروت وإغواء المرأة لهما حديث جيد إلى ابن عمر كما قال ابن كثير (صح) .

٥. ضعف ابن حجر أثر مجاهد عن ابن عمر وقال : لا تصح متابعة لرواية موسى بن جبير عن نافع وهي موقوفة على ابن عمر (خطأ) .

٦. أثر قيس بن عباد عن ابن عباس عند الحاكم والبيهقي وابن أبي حاتم في قصة هاروت وماروت والمرأة التي أغوتهما حديث طويل صححه الحاكم (صح) .

٧. عند ابن أبي حاتم : قال ابن عباس : فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي ، وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر . وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر . (قال) : فإذا أبى عليهما ، أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا ، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه ، فإذا تعلمه ، خرج منه النور فنظر إليه ساطعا في السماء فيقول : ياحسرتاه ! ياويله ! ماذا صنع ؟ (صح) .

٨. حسن ابن حجر أثر قيس بن عباد عن ابن عباس في قصة هاروت وماروت ، وقال فيه ابن كثير : هذا أقرب ما قيل في شأن الزهرة (صح) .

٩. أثر يزيد الفارسي عن ابن عباس عند ابن أبي حاتم ، وقال فيه ابن كثير : فيه زيادات كثيرة وإغراب ونكارة ، وجوده ابن حجر وهو كما قال (صح) .

١٠. قال ابن حجر في العجاب : وقال عبد الرزاق في تفسيره وأخرجه عبد بن حميد عنه قال أنا ابن التيمي هو معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان النهدي عن ابن عباس قال إن المرأة التي فتن بها الملكان مسخت فهي هذه الكوكب الحمراء يعني الزهرة وهذا سند صحيح . (صح) .

١١. أثر أبي عثمان النهدي عن ابن عباس عند ابن جرير إسناده ضعيف جداً (خطأ) .

١٢. عن أبي عثمان النهدي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : كانت الزهرة امرأة في قومها يقال لها بيذخت ، وصححه الحاكم (صح) .

١٣. روايات ابن عباس في قصة هاروت وماروت طرقها كثيرة وغالبها حسن إسناده (صح)

١٤. أثر عمير بن سعيد عن علي في قصة المرأة التي أغوت هاروت وماروت ومسخها الله إلى كوكب الزهرة رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم ، وصححه إسناده الحاكم (صح)

١٥. عند ابن جرير : عن عمير بن سعيد قال : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس ، وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت ، فراوداها عن نفسها ،

فأبت عليهما إلا أن يعلماها الكلام الذي إذا تكلم به (أحد) يُعرَج به إلى السماء . فعلماها ؛ فتكلمت ، فعرجت إلى السماء . فمسخت كوكبا !

قال ابن كثير : هذا الإسناد رجاله ثقات ، وهو غريب جدا ! (صح) .

١٦. رد ابن حجر رحمه الله في العجاب أثر عمير بن سعيد عن علي (خطأ) .

١٧. أثر ابن مسعود في قصة هاروت وماروت أخرجه ابن جرير وابن أبي الدنيا وتقدم ذكره في طرق ابن عباس وإسناده حسن (صح) .

١٨. أثر عمر ﷺ في أن الزهرة هي التي فتنت هاروت وماروت أثر صحيح ومثله لا يقال من جهة الرأي (خطأ) .

١٩. ذكر أهل التراجم في ترجمة مجاهد المفسر أنه رأى هاروت وماروت في قصة طويلة ، وجزم بذلك جماعة ممن ترجموا لمجاهد ومنهم الذهبي (صح) .

٢٠. وردت قصة هاروت وماروت من كلام كعب وصححه البيهقي وغيره (صح) .

٢١. رجح ابن كثير أن المنقول في قصة هاروت وماروت أنه من نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل (صح) .

٢٢. وافق ابن حجر أن قصة هاروت وماروت من كلام كعب الأحبار عما أخذه عن أهل الكتاب بكلام قوي (خطأ) .

٢٣. الصحيح أن الموقوفات التي وردت في قصة هاروت وماروت كثيرة وأسانيدها جيدة ، ولها حكم الرفع لأنها لا يقال من جهة الرأي ، وهذا ما رجحه ابن حجر رحمه الله (صح) .

٢٤. قول قتادة والزهري في قصة هاروت وماروت ذكره عبد الرزاق في تفسيره ، وصححه ابن حجر في العجاب (صح) .

المحاضرة الرابعة والأربعون

***

تابع تفسير الآيات من (١٠١) إلى (١٠٣) من سورة) البقرة.(

تابع الآثار الواردة في قصة هاروت وماروت، من روايات عن التابعين.

نستكمل في هذه المحاضرة بقية الآثار الواردة في قصة هاروت وماروت، مع التعليق عليها:

عن السدي:

أخرجه ابن جرير من طُرق أسباط عنه، قال: "(كان) مِن أمر هاروت وماروت، أنهما طعنا على أهل الأرض في أحكامهم، فقيل لهما: إني أعطيتُ بني آدم عشراً من الشهوات، فبها يعصونني. قال هاروت وماروت: ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات، ثم نزلنا لَحَكمْنا بالعدل. فقال لهما: انزلا، فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر، فاحكما بين الناس !فنزلا ببابل ديناوند، فكانا يحكمان حتى إذا أمسيا عرجا، فإذا أصبحا هبطا. فلم يزالا كذلك، حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها، فأعجبهما مِن حُسنها -واسمها بالعربية: الزهرة، وبالنبطية: بيذخت، وبالفارسية: أناهيد-. فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبني! قال الآخر: قد أردت أن أذكر لك، فاستحييت منك. فقال الآخر: هل لك أن أذكرها لنفسها؟ قال: نعم؛ ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنا لنرجو رحمة الله. فلما جاءت تخاصم زوجها، ذكرا إليها نفسها. فقالت :لا! حتى تقضيا لي على زوجي. فقضيا لها على زوجها، ثم واعدتهما خربة من الخرب، يأتيانها فيها؛ فأتياها لذلك. فلما أراد الذي يواقعها، قالت: ما أنا بالذي أفعل، حتى تخبراني بأي كلام تصعدان إلى السماء؟ وبأي كلام تنزلان منها؟ فأخبراها .

فتكلمت، فصعدت، فأنساها الله ما تنزل به، فثبتت مكانها، وجعلها الله كوكباً.

فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها، وقال: هذه التي فتنت هاروت وماروت. فلما كان الليل أرادا أن يصعدا، فلم يطيقا، فعرفا الهلكة. فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

فاختارا عذاب الدنيا، فعلقا ببابل، وجعلا يكلمان الناس كلامهما، وهو السحر ."

قال السدي: "إذا أتاهما إنسان يريد السحر، وعظاه، وقالا له: لا تكفر، إنما نحن فتنة! فإذا أبى، قالا له: ائت هذا الرماد، فبُل عليه. فإذا بال عليه، خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء؛ وذلك: الإيمان. وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان، حتى يدخل في مسامعه وكل

شيء، وذلك: غضب الله. فإذا أخبرهما بذلك، علّماه السحر؛ فذلك قول الله تعالى{ :وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ "}...الآية.

إسناده حسن، وفيه جزء عن ابن عمر يضاف إلى الطُرق الواردة عن ابن عمر، لم نذكره ثم .

عن الربيع:

أخرجه ابن جرير، من طريق أبي جعفر الرازي عنه، بنحو ما تقدم عنه من روايته عن قيس بن عباد عن ابن عباس.

عن قتادة:

أخرجه ابن جرير بإسناد صحيح عنه، قال: قوله{ :يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}؛ فالسحر سحران: سحر تُعلِّمه الشياطين، وسحر يُعلِّمه هاروت وماروت .

وأخرج عبد الرزاق، ومن طريقه ابن جرير بإسناد صحيح عنه، قال: "كان أُخذ عليهما أن لا يعلِّما أحداً{ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ}، أي: بلاء ابتُلينا به{ !فَلا تَكْفُرْ !}

عن رجل من التابعين:

أخرج ابن المنذر، وابن أبي الدنيا في "الإشراف في منازل الأشراف" (٣١٢/١)، من طريق الأوزاعي، عن هارون بن رئاب، قال" :دخلت على عبد الملك بن مروان وعنده رجل قد ثنيت له وسادة وهو متكئ عليها، فقالوا هذا قد لقي هاروت وماروت .فقلت: هذا؟ قالوا: نعم. فقلت: حدِّثنا، رحمك الله! فأنشأ يحدّث، فلم يتمالك من الدموع، فقال:كنت غلاماً حدثاً ولم أدرك أبي. وكانت أمي تعطيني من المال حاجتي، فأنفقه وأفسده وأبذِّره، ولا تسألني أمي عنه. فلما طال ذلك وكبرت، أحببت أن أعلم من أين لأمي هذه الأموال؛ فقلت لها يوماً: من أين لكِ هذه الأموال؟ فقالت: يا بني كلْ وتنعّم، ولا تسأل؛ فهو خير لك! فألححت عليها، فقالت: إن أباك كان ساحراً. فلم أزل اسألها وألحّ، فأدخلتني بيتاً فيه أموال كثيرة، فقالت: يا بني، هذا كلّه لك، فكُلْ وتنعّم، ولا تسأل عنه! فقلت: لا بدّ من أن أعلم مِن أين هذا؟ قال: فقالت: يا بني، كلْ وتنعمْ، ولا تسأل، فهو خير لك! قال: فألححت عليها، فقالت: إن أباك كان ساحراً وجمع هذه الأموال مِن السِّحر. قال: فأكلت ما أكلت ومضى ما مضى. ثم تفكّرت، قلت: يوشك أن يذهب هذا المال ويفنى؛ فينبغي أن أتعلّم

السحر فأجمع كما جمع أبي. فقلت لأمي: مَن كان خاصة أبي وصديقه من أهل الأرض؟ قالت: فلان- لرجل في مكان ما-. فتجهّزت فأتيته، فسلّمت عليه فقال: من الرجل؟ قلت: فلان بن فلان صديقك. قال: نعم، مرحباً. ما جاء بك؟ فقد ترك أبوك من المال ما لا يُحتاج إلى أحد. قال: فقلت :جئت لأتعلّم السحر. قال: يا بني، لا تريده! لا خير فيه! قلت :لا بد مِن أن أتعلّمه! قال: فناشدني وألحّ عليّ أن لا أطلبه ولا أريده. فقلت: لا بدّ من أن أتعلّمه! قال: أمّا إذ أبيتَ، فاذهب. فإذا كان يوم كذا وكذا، فوافني ها هنا. قال: ففعلت فوافيته. قال: فأخذ يناشدني أيضاً وينهاني ويقول: لا تريد السحر، لا خير فيه! فأبيت عليه. فلما رآني قد أبيت قال :فإني أُدخلك موضعاً، فإياك أن تذكر الله فيه! قال: فأدخلني في سرب تحت الأرض. قال: فجعلت أدخل ثلاثمائة وكذا مرقاة، ولا أنكر من ضوء النهار شيئاً. قال: فلما بلغت أسفله، إذا أنا بهاروت وماروت معلّقان بالسلاسل في الهواء. قال: فإذا أعينهما كالترسة ورؤوسهما -قال الراوي: ذكر شيئاً لا أحفظه-، ولهما أجنحة. فلما نظرت إليهما، قلت: لا إله إلاّ الله. قال فضربا بأجنحتهما ضرباً شديداً وصاحا صياحاً شديداً ساعة، ثم سكتا. ثم قلت أيضاً: لا إله إلاّ الله، ففعلا مثل ذلك. ثم قلت الثالثة، ففعلا مثل ذلك أيضاً، ثم سكتا .وسكت، فنظرا إلي فقالا لي: آدمي؟ فقلت: نعم. قال: قلت: ما بالكما حين ذكرت الله فعلتما ما فعلتما؟ قالا: إن ذلك اسم لم نسمعه من حين خرجنا من تحت العرش. قالا: من أمة من؟ قلت: من أمة محمد. قالا: أو قد بُعث؟ قلت: نعم. قالا: اجتمع الناس على رجل واحد أو هم مختلفون؟ قلت: قد اجتمعوا على رجل واحد. قال: فساءهما ذلك، فقالا: كيف ذات بينهم؟ قلت: سيء. فسرّهما ذلك، فقالا: هل بلغ البنيان بحيرة الطبرية؟ قلت: لا. فساءهما ذلك، فسكتا. فقلت: لهما: ما بالكما حين أخبرتكما باجتماع الناس على رجل واحد ساءكما ذلك؟ فقالا: إن الساعة لم تقرب ما دام الناس على رجل واحد. قلت: فما بالكما سرّكما حين أخبرتكما بفساد ذات البين؟ قالا: لأنّا رجونا اقتراب الساعة. قال: قلت: فما بالكما ساءكما أن البنيان لم يبلغ بحيرة الطبرية؟ قالا: لأن الساعة لا تقوم أبداً حتى يبلغ البنيان بحيرة الطبرية. قال: قلت لهما: أوصياني! قالا: إن قدرت أن لا تنام فافعل، فإن الأمر جد."!

ورجاله ثقات، وفيه دليل على اهتمام السلف بذلك، وتصديقهم له.

وأخرجه في "الإشراف"، من طريق ابن المبارك، قال: "أخبرنا رجل عن رجل، عن عروة بن رويم، قال: لما قدم مسلمة بن عبد الملك ها هنا أميراً، قيل له: إن ها هنا رجلاً دخل على هاروت وماروت. فأرسل إليه، فإذا شيخ جليل، فثُنيت له وسادة بين السماطين. فقال له مسلمة: أنت الذي دخلت على هاروت وماروت؟ فأرسل عينيْه فبكى، ثم شف دموعه، فقال: إني كنت غلاما يافعاً في حجر أمي...". فذكر نحوه، وفيه زيادات .وفي آخره، قال ابن المبارك: "طمس ذلك المكان، فلا يُعرف اليوم."

عن خصيف الجزري:

أخرجه سعيد بن منصور (٥٧٦/٢)، عن عتاب بن بشير عنه، قال: في قوله –عز وجل :– {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ}، "قال: كان سليمان إذا نبتت الشجرة، قال: لأي داء أنت؟ فتقول: لكذا وكذا..."؛ فذكر الحديث .

وفيه: "وذكر أنها في قراءة أُبيّ" :وما يُتلَى على الملَكيْن ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر" سبع مرار. فإن أبى إلاّ أن يكفر، علّماه؛ فيخرج منه نار أو نور حتى يسطع في السماء، قال: المعرفة التي كان يعرف."

وسنده حسن.

عن ابن زيد:

أخرجه ابن جرير عنه، قال{ :وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ }فقرأ حتى بلغ{ :فَلا تَكْفُرْ}، قال: "الشياطين والملّكان يعلِّمون الناس السِّحر."

وإسناده صحيح.

عن الحسن:

أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم واللفظ له، من طريقيْن عنه، في قوله{ :حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ}، قال" :نعم، أُنزل الملكان بالسِّحر، ليعلِّموا الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأُخذ عليهم الميثاق أن لا يعلِّما أحداً{ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ."}وإسناده صحيح.

عن ابن جريج:

أخرجه ابن جرير عنه، قال: "أُخذ الميثاق عليهما أن لا يعلِّما أحداً حتى يقولا: إنما نحن فتنة

فلا تكفر! لا يجترئ على السحر إلاّ كافر ."

وفيه ضعف.

عن أبي جعفر الباقر:

أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٩/١، ١٨٩)، وابن عساكر عنه، قال" :السجل ملَك، وكان هاروت وماروت من أعوانه. وكان له كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب. فنظر نظرة لم تكن له، فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور، فأسرّ ذلك إلى هاروت وماروت. فلما قال تعالى{ :إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا}، قالا ذلك استطالة على الملائكة ."

وفي إسناده مبهم.

غيرهم:

أخرج ابن جرير بإسناد فيه ضعف، عن معمر، قال: قال غير قتادة: "أُخذ عليهما أن لا يعلِّما أحداً حتى يتقدّما إليه فيقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر."!

من الشواهد على إثبات السِّحر لهاروت وماروت:

ما أخرجه ابن أبي الدنيا في "ذم الدنيا"، والبيهقي في "شُعب الإيمان"، عن أبي الدرداء، قال: قال: رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) –احذروا الدنيا! فإنها أسحر من هاروت وماروت.((!

وأخرج الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، عن عبد الله بن بسر المازني، مرفوعاً نحوه.

وأخرج الخطيب في "رواة مالك"، عن ابن عمر مرفوعاً، نحوه مطولاً.

وإلى هنا انتهى سوق الروايات الواردة في القصة المطوّلة والمختصرة.

كلام بعض أهل العلْم في قصة هاروت وماروت، مع مناقشته.

وننقل كلام بعض أهل العلْم فيها، مع مناقشته:

قال ابن كثير، بعد أن ذكر المرفوع والموقوف، وتكلّم على كل رواية منفردة كما سبق ذكْره: "وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد، والسدي، والحسن (البصري)، وقتادة، وأبي العالية، والزهري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم...

وقصها خلْق من المفسِّرين (من المتقدِّمين) والمتأخِّرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وظاهر سياق القرآن :إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها؛ فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى –والله أعلم بحقيقة الحال–

قلت: هذا الكلام من ابن كثير –رحمه الله– فيه هروب من بيان معنى الآيات، مع جزم بلا دليل، ثم تناقض واضح بين أوّله وآخره؛ وبيان ذلك يتضح من كلامي الآتي:

أولاً :كيف يذكر في أوّل الكلام رواية مرفوعة في ديوان أهل السنة –"مسند الإمام" أحمد–، وبسند ظاهره الحُسن، ثم يذكر روايات موقوفة يجزم بصحّتها وثبوتها عن كبار الصحابة، ومنهم الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، وابن عمر الذي كان يسبّ هذا النجم بناء على هذه القصة، وابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن الذي كان ينهى المسلمين عن الأخذ عن أهل الكتاب، ويذكر أيضاً قصة المرأة التي جاءت من دومة الجندل، والصحابة متوافرون وقد صدقوها ورقُّوا لحالها بإجماع منهم، ثم يذكر هذه الكوكبة من أئمة التفسير في عهد التابعين، ولا يذكر رائحة خلاف لكل ذلك في الصدر الأول، لا في عهد الصحابة ولا تابعيهم، ثم يقول" :وقصها خلْق من المفسرين من المتقدِّمين والمتأخِّرين"؟

هذا كله، إن لم يكن يدل على ثبوت القصة وصحة نقلها عن الصادق المعصوم، وأنها لا يمكن أن تكون عن غيره، حتى ولو لم ينقل هذا صراحة، فنقول على الدين السلام! ورحم الله تلك القرون المفضّلة: تلاميذ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وتلاميذهم الذين تناقلوا كلاماً في تفسير كتاب الله، هو من أكاذيب أهل الكتاب وخرافاتهم! ويا حسرة على العلم في تلك العهود الذي مرجعه رجل يهودي أسلم بل ادّعى الإسلام عند بعضهم، فاستطاع أن يلعب بدين علي وابن عمر وابن عباس وابن مسعود وعائشة وحفصة وأم سلمة وجمهور الصحابة! وكذا لعب على أئمة التفسير وحماة العقيدة في عصر التابعين ممّن ساق بعض أسمائهم!

وليس ثمة دليل على أن أصل ذلك مرجعه لأخبار بني إسرائيل. والرواية عن كعب طرف صغير من هذه القصة لم يثبت عنه سواه، وحكاية ابن عمر عنه ذلك من باب الاستظهار فقط، كما رجحه الحافظ ابن حجر. وهذا واضح جداً لأيّ متأمِّل، وإلاّ فمن أين أتى عليّ

بروايته؟ ومن أين أتى ابن عباس بروايته؟ ومن أين أتى هذا الاتفاق من الصحابة في قصة المرأة؟

ولا بد لنا أن نكذِّب أيضاً من رآهما، ونسفه من حكى ذلك عنهم، ومن استمع وصدّق وتناقل!

وقال الآلوسي: "وأما ما روي أن الملائكة تعجبت من بني آدم... إلخ، إلى غير ذلك من الآثار التي بلغت طُرقها نيفاً وعشرين، فقد أنكره جماعة منهم القاضي عياض. وذكَر أنّ ما ذكَره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت لم يرد منه شيء، لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله– صلى الله تعالى عليه وسلم–، وليس هو شيئاً يُؤخذ بالقياس .وذكر في "البحر" أن جميع ذلك لا يصح منه شيء، ولم يصحّ أن رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم– كان يلعن الزهرة، ولا ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما–، خلافاً لمن رواه. وقال الإمام الرازي –بعد أن ذكر الرواية في ذلك–: "إن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة. ونص الشهاب العراقي على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملَكان يعذبان على خطيئتهما مع الزهرة، فهو كافر بالله تعالى العظيم؛ فإن الملائكة معصومون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون. والزهرة كانت يوم خلْق الله تعالى السموات والأرض، والقول بأنها تمثلت لهما فكان ما كان، ورُدّت إلى مكانها غير معقول ولا مقبول."

قال الآلوسي: "واعترض الإمام السيوطي على مَن أنكر القصة، بأن الإمام أحمد، وابن حبان، والبيهقي، وغيرهم، رووها مرفوعة وموقوفة على عليّ، وابن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، –رضي الله تعالى عنهم–، بأسانيد عدّة صحيحة، يكاد الواقف عليها يقطع بصحتها، لكثرتها وقوة مُخرِّجيها. وذهب بعض المحققين إلى أنّ ما رُوي حكايةٌ لِما قاله اليهود، وهو باطل في نفسه؛ وبطلانه في نفسه لا ينافي صحة الرواية، ولا يرد ما قاله الإمام السيوطي عليه، إنما يرد على المنكرين بالكلية."

ثم أتى الآلوسي بطامة من طاماته، فقال: "ولعل ذلك من باب الرموز والإشارات، فيُراد من الملكيْن: العقل النظري والعقل العملي، اللذان هما من عالَم القدس، ومن المرأة المسماة بالزهرة: النفس الناطقة... إلى آخر التخليط المعروف عند أصحاب هذه الخرافة المسماة بالتفسير

الإشاري.

ثم قال الآلوسي: "ومَن قال بصحة هذه القصة في نفس الأمر، وحملها على ظاهرها، فقد ركب شططاً، وقال غلطا، وفتح باباً من السحر يُضحك الموتى ويُبكي الأحياء، وينكس راية الإسلام ويرفع رؤوس الكفرة الطغام، كما لا يخفى ذلك على المنصفين من العلماء المحققين."

قلت: بل والله العكس! فكيف بك تتّهم الصحابة والتابعين بلا خلاف بينهم بما تقول؟ فما الذي بقي للإسلام وهم حمَلَته وناقِلوه، وعلماؤه وفقهاؤه، وأهل العقيدة والتوحيد؟

وقد كثر في كلام أهل العلم من المفسرين وغيرهم التعرض لنسبة السحر لهاروت وماروت، وذكر قصتهما بطريق التسليم بها؛ وتتبّع ذلك يطول.

ونذكر هنا أمثلة على ذلك: قال ابن رجب في كتاب" التخويف من النار" (٣٦/١): "وأما سائر الخلق، فأشرفهم الملائكة، وهم متوعّدون على المعصية بالنار، وهم خائفون منها. قال الله تعالى{ :وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ .}وقد استفاض عن جماعة من الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم: أن هاروت وماروت كانا ملَكيْن، وأنهما خُيّرا بعد الوقوع في المعصية بيْن عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا لعلْمهما بانقضائه. وقد روي في ذلك حديث مرفوع من حديث ابن عمر، عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، خرّجه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه، ولكن قد قيل: إن الصحيح: إنه موقوف على كعب."

وقال الكتاني في "نظم المتناثر من الحديث المتواتر" (٢٢٢/١): ذكر ابن حجر والسيوطي: أنه ورد من نحو عشرين طريقاً. وفي حواشي البيضاوي للسيوطي: القصة ثابتة وقد استوعبتُ طُرقها في التفسير المسند، وكذا ذكر في كتابه" الحبائك في أخبار الملائك" أنه استوفى طُرقها في "تفسيره الكبير". وقال في "مناهل الصفا": ورد فيها عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الصحيح وغيره. كما استوعبت طُرق القصة في التفسير المسند. وحاصل ذلك: أن القصة وردت مرفوعة ...فذكر طُرقها ثم قال: "ووردت موقوفة على علي، وابن مسعود، وابن

عمر، وابن عباس، وغيرهم... بأسانيد عدة صحيحة وغيرها .قال ابن حجر في "شرح البخاري": وفي "القول المسدد": لهذه القصة طُرق تفيد العلْم بصحتها". اهـ .

وقال في "اللآلئ المصنوعة": "قصة هاروت وماروت رويناها من طُرق كثيرة، عن ابن عمر، وابن عباس، وعلي، وغيرهم، وموقوفاً، بألفاظ مختلفة .ثم نقل عن ابن حجر في "القول المسدد" قال وردت مِن طُرق يقطع الناظر فيها بوقوع هذه القصة."

وقال أبو محمد ابن قتيبة في "تأويل مختلف الحديث" :(١/١٨٢) "وأما قولهم في قول الله تبارك وتعالى{ :وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}، ثم قال{ :يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ }إن تأويله: ولم ينزل على الملَكين ببابل، فليس هذا بمنكر من تأويلاتهم المستحيلة المنكوسة. فإذا كان لم ينزل على الملكيْن ببابل هاروت وماروت، صار الكلام فضلاً لا معنى له... إلى أن قال" :وتأويل هذا عندنا مبين بمعرفة الخبر المروي فيه، وجملته على ما ذكر بن عباس" ... فذكر الرواية في ذلك.

وقال في "عمدة القاري" (٢/٢٧٨): "قوله{ :هَارُوتَ وَمَارُوتَ :}بدل من{ :الْمَلَكَيْنِ}، أو عطف بيان؛ وفيهما اختلاف كثير. والأصح :أنهما كانا ملَكين أنزلا من السماء إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وقصتهما مشهورة."

وقال المناوي في "فيض القدير{" :(١/١٣٩) "هَارُوتَ وَمَارُوتَ }قال الحرالي :هما ملكان جُعلا حكَمين في الأرض. وقال القاضي كالزمخشري: ملكان أنزلا لتعليم السحر، ابتلاء من الله تعالى للناس، وتمييزاً بينه وبين المعجزة. وقيل: رجلان سُميا ملَكين باعتبار صلاحهما. ومنع صرفهما للعلمية والعجمة. وقال الكازروني: ملكان من أعبد الملائكة، ركّب الله فيهما الشهوة بعد ما طعن الملائكة فينا، ليُظهر عذرنا، فعصيا؛ فخيّرهما بين عذابي الدنيا والآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فعذبهما إلى يوم القيامة يمتحن بها عباده ."انتهى .

قال: ولا يعلِّمان السحر حتى يقولا{ :إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ .}فهما يعلِّمان السحر ويبيّنان فتنته... وهما يعلِّمان ما يفرِّق بين المرء وزوجه.

قال: "وقصة هاروت وماروت المشهورة وردت من نحو عشرين طريقاً، بعضها حسن، فزعْمُ بطلانها غير صواب، كما بينه الحافظ ابن حجر. وقال: من وقف عليها يكاد يقطع بوجود

القصة" اهـ.

وقال العجلوني في "كشف الخفاء" (٤٣٩/٢): "صحح هذه القصة السيوطي، ولا عبرة بمن أنكرها، كالرازي، والقرطبي؛ فإنهم ليسوا في مرتبة المصحِّحين رواية ولا دراية."

ونختم هذه النقول بقول ابن حجر في "العجاب" :(١/٣١٧) "ومنهم -أي: من أهل العلْم- من يعسر عليه التأويل، فيبادر إلى تكذيب المنقول، لعدم معرفته بأحوال النقَلة؛ حتى إن ابن حبان -مع أنه ممّن ينتسب إلى الحديث وأهله، و يتبسّط في توثيق بعض الشيوخ وتجريحهم- تبع غيره في إنكار ما ورد من قصة هاروت وماروت والزهرة، كما سأذكر لفظه .وقد ورد في ذلك خبر مرفوع رجاله موثقون وله شواهد كثيرة... فذكر الحديث، وقال :

قال شيخنا الحافظ أبو الحسن في "زوائد المسند": "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير موسى بن جبير و هو ثقة."

قال: "قلت: السند على شرط الحسن، وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه كعادته في تصحيح مثله، فأخرجه في النوع الرابع من القسم الثالث، عن الحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن أبي بكير، ورجاله رجال الصحيح إلا موسى بن جبير؛ فإنه مدني نزل مصر، وروى عنه جماعة، ولم أر فيه تجريحاً ولا تعديلاً إلا ذكْر ابن حبان له في الثقات، وإخراج حديثه في صحيحه.

وقال ابن حبان بعد تخريجه: "الزهرة هذه: امرأة كانت في ذلك الزمان، لا أنها الزهرة التي هي في السماء ."

قلت -أي: ابن حجر-: "وهذا ممّا قاله من عنده، وقد ورد الخبر بخلاف ما زعم، وصرح فيه بأنها الزهرة الكوكب الذي هو الآن في السماء، وإن تلك المرأة مسخت كوكباً."

ثم قال: "تنبيه: طعن في هذه القصة من أصلها بعضُ أهل العلْم ممّن تقدّم، وكثير من المتأخِّرين. وليس العجب مِن المتكلّم والفقيه، إنما العجب ممّن ينتسب إلى الحديث كيف يطلق على خبر ورد بهذه الأسانيد القوية مع كثرة طرقها أو تباين أسانيدها: أنه باطل، أو نحو ذلك من العبارة، مع دعواهم تقوية أحاديث غريبة أو واردة من أوجه لكنها واهية، واحتجاجهم بها و العمل بمقتضاها؟ ."

وقد لخص الثعلبي، ثم ابن ظفر، ثم القرطبي، هذه القصة من بعض ما ذكرته، ومن رواية

الكلبي وغيره من المفسرين، وذكروا في القصة زيادات.

قال: "وأما من أنكرها، فجماعة منهم القاضي أبو بكر بن العربي في "أحكام القرآن"، فقال : "وقد روى المفسرون عن نافع، قال: قال لي ابن عمر :أطلعت الحمراء؟ قلت: نعم. و ذكَر أنه لعنها. فقلت: سبحان الله! نجم مسخّر مُطيع تلعنه؟ قال: ما قلت إلاّ ما سمعت من رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: أن الملائكة عجبت من معاصي بني آدم في الأرض... فذكَر القصة ولخّص بعض ما ورد في ذلك. ثم قال :وإنما سقت هذا الخبر، لأن العلماء رووه و دوّنوه، فخشينا أن يقع لمن يضل به. وتحقيق القول فيه: أنه لم يصحّ سنده، ولكنه جائز كله في العقل لو صح النقل... إلى آخر كلامه ."فجوّز وقوع ذلك، ودفع صحة النقل بوقوعه؛ وهو محجوج بما قدّمته .

وقد تلقاه عنه القرطبي المفسِّر، فقال –بعد أن أشار إلى القصة باختصار– ما نصه: "وهذا كله ضعيف وبعيد على ابن عمر. وممن أنكر صحة ذلك: أبو محمد ابن عطية في "تفسيره"، فقال: روي عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وكعب الأحبار، والسدي، والكلبي، ما معناه... فذكر القصة ملخّصة ثم قال: "وهذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر و غيره، لا يصح منه شيء؛ فإنه قول تدفعه الأصول في المنقول. وأما العقل فلا ينكر ذلك، إذ في قدرة الله تعالى كلّ موهوم؛ لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلاّ بالسمع، ولم يصحّ". انتهى .

ومنهم: أبو محمد ابن حزم، فقال في كتاب "الملل و النحل"، بعد أن قرّر عصمة الأنبياء واستدل بالآيات الواردة في ذلك، وأطنب في التمسك بظاهرها وعمومها، ثم ختم بأن قال : "وهذا يبطل ظن من قال إن هاروت وماروت كانا ملكين فعصيا بالزنى و شرب الخمر وقتل... النفس ثم أخذ يتأول القصة التي في الآية، قال: و لم يقل الله إنهما كفرا و لا عصيا، وإنما جاء ذلك في خرافة موضوعة لا تصح من طريق الإسناد أصلاً، ولا هي مع ذلك عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، بل هي موقوفة على من دونه فسقط التعلق بها ...إلى أن قال: نسبوا إلى الله ما لم يأت به أثر يُشتغل به، وإنما هو كذب مفترى أن الله أنزل إلى الأرض ملَكين وهما هاروت وماروت، وإنهما عصيا بشرب الخمر، والحُكم بالباطل، وقتل النفس المحرمة، والزنى، وتعليم الزانية اسم الله الأعظم فطارت به إلى السماء فمسخت كوكباً، وهي :الزهرة. وإنهما عُذِّبا في غار ببابل، قال: وأعلى ما في هذا الباب: خبر رويناه من طريق

عمير بن سعيد وهو مجهول، يقال له: مرة النخعي، ومرة الحنفي؛ ما نعلم له رواية إلا هذه الكذبة، و ليست مرفوعة بل وقفها على علي، وكذبة أخرى في :أنّ حدّ الخمر لم يسنّه النبي –صلى الله عليه وسلم ."–انتهى .

وكلامه في هذا الفصل يُنبئ عن قصوره في النقل، فرد عليه كلامه في عمير بن سعيد –أي: ابن حجر–، وقال: فسقط كلامه وقد تلقاه منه بالقبول شيخ من شيوخنا: أثير الدين أبو حيان، وسأذكر كلامه بعْد .

وممّن صرح بنفي ورود حديث مرفوع في هذه القصة: القاضي عياض في "الشفاء"، فقال ما نصه –بعد أن حكى الخلاف في عصمة الأنبياء: هل هي عامة في الجميع؟ أو في المرسلين فقط؟ و فيمن عداهم؟ خلاف–. قال: فممّا احتج به من لم يوجب عصمة جميعهم قصة هاروت وماروت وما ذكر فيها أهل الأخبار و نقلة التفسير، وما يُروى عن علي وابن عباس في خبرهما و ابتلائهما، فاعلم: أن هذه الأخبار لم يُرو منها شيء لا سقيم و لا صحيح عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وليس هو شيئاً يؤخذ بقياس، والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه. وقد أنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف وهذه الأخبار من كذب اليهود وافترائهم."

قلت –أي: ابن حجر–: "وهذا من غريب ما وقع لهذا الإمام المشتهر بالحديث، المعدود في حفاظه، المصنف في شرحه! كيف يجزم بما نفاه من ورود خبر مرفوع في هذه القصة؟ وكيف يجزم بأن الذي ورد من ذلك إنما هو من افتراء اليهود؟ مع أن علياً، وابن عباس، وابن عمر، و غيرهم، ثبت عنهم الإنكار على من سأل اليهود عن شيء من الأمور، وكثرة الأخبار الواردة في هذه القصة.

وقال أبو حيان في "تفسيره الكبير" الذي سماه: "البحر": "وقد ذكر المفسّرون في قراءة من قرأ{ :الْمَلَكَيْنِ– }بفتح اللام– قصصاً تتضمن أن الملائكة تعجبّت من بني آدم... فذكر قصة ملخّصة إلى أن قال: وكل هذا لا يصح منه شيء. والملائكة معصومون لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون. ولا يصح أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان يلعن الزهرة، ولا ابن عمر". انتهى .

قال ابن حجر: "وليعتبر الناظر في كلام هؤلاء، والعجب ممّن ينتمي منهم إلى الحديث،

ويدّعي التقدم في معرفة المنقول، ويسمّى عند كثير من الناس بالحافظ، كيف يُقدم على هذا النفي و يجزم به، مع وجوده في تصانيف مَن ذكرنا من الأئمة بالأسانيد القوية و الطرق الكثيرة؟ والله المستعان."!

وأقول -أي: ابن حجر-: في طُرق هذه القصة: القوي و الضعيف، ولا سبيل إلى ردّ الجميع؛ فإنه ينادى على مَن أطلقه بقلّة الاطّلاع والإقدام على ردّ ما لا يعلمه؛ لكن الأولى: أن يُنظر إلى ما اختلفت فيه بالزيادة و النقص، فيؤخذ بما اجتمعت عليه، ويؤخذ من المختلف ما قوي و يطرح ما ضعف أو ما اضطرب؛ فإن الاضطراب إذا بعد به الجمع بين المختلف ولم يترجّح شيء منه التحق بالضعيف المردود. والله المستعان!". انتهى كلام ابن حجر، وهو نفيس جداً.

ونلاحظ أن الاعتراض على هذه القصة من وجهيْن:

الأوّل نقليّ:

وهو: عدم ورود نقل صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا مردود بورود النقول المتضافرة التي لا يمكن أن تكون عن غير النبي- صلى الله عليه وسلم-، حتى وإن لم يُصرّح فيها بالرفع؛ فإن الموقوف الذي له حكم المرفوع، كالمصرح برفعه سواء. وقد وردت القصة من هذه الطرق:

مرفوعة :

-١من طريقيْن: عن ابن عمر، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مطولاً، أحد هذيْن الطريقين صحّحه ابن حبان، وقال فيه الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، خلا موسى بن جبير، وهو: ثقة. وقال فيه ابن حجر: إسناده حسن. وصححه السيوطي.

-٢من ثلاثة طُرق عن عليّ مرفوعاً باختصار.

-٣عن عمر مرفوعاً مختصراً.

-٤عن عمر مولى غفرة مرسلاً مطولاً.

موقوفة :

جاءت عن ابن عمر، وابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، مطوّلة بأسانيد صحيحة أو حسَنة؛ جزم بذلك الحاكم، وابن كثير، وابن حجر، والسيوطي، وغيرهم...

وكذا جاءت مختصرة بإسناد صحيح، عن أم سلمة، وعائشة، وحفصة. وكذا رويت عن عمر.

وجاءت بما يشبه الإجماع من الصحابة، في قصة المرأة التي قدِمت من دومة الجندل.

عن التابعين:

جاءت مطولة بسند صحيح، عن مجاهد، وعبيد الله بن عبد الله بن عباس، وكعب الأحبار، والسدي، والربيع. وجاءت مختصرة عن قتادة، والحسن، وأبي جعفر الباقر، وابن جريج، وخصيف، وابن زيد .

كما جاءت رؤيتهما وأنهما معذبان في بابل العراق، منكّسة رؤوسهما، ويعلِّمان السحر، عن أربعة:

١- بسند صحيح عن صحابية جليلة أو تابعية مخضرمة، أقرها جمهور الصحابة على ما قالت، وصدّقوها فيه.

٢- بسند صحيح عن تابعي فاضل، اشتهر بذلك في الصدر الأول، وكان الناس يسألونه بمحضر الولاة والعلماء عن تلك الحادثة.

٣- بسند لا بأس به، عن إمام من أئمة التابعين في التفسير، وهو: مجاهد بن جبر. وتناقل العلماء قصته، وجزموا بحصولها معه.

٤- عن المفسر الحسين بن داود، المشهور بسُنَيْد، كما نقلها ابن العربي في "الأحكام."

وليس لكل هؤلاء مخالف ولا منكر في القرون الأولى المفضلة، ولا يثبت أي تفسير للآيات بسوى ذلك في الصدر الأول؛ بل جزم بعض العلماء بتواتر القصة، وأنها تفيد العلْم -كما تقدم.-

والثاني عقليّ:

وهو: موضوع عصمة الملائكة. وهذه المسألة لا يظهر فيها أي إشكال، لأن الرواية تبيّن أنهم نُقلوا من طبيعة الملائكة، وركِّبت فيهم شهوات بني آدم؛ فلا أدري لماذا يتعلّل بها مَن تعلّل؟ !

وقد ردّ عليهم جماعة من أهل العلْم تقدّم ذكْر بعضهم. ونضيف هنا مايلي :

قال البيهقي في "الشُعب": فمَن يعبد الله وطينه معجون بالهوى والشهوة، كانت عبادته أفضل؛ ألا ترى مَن ابتلي من الملائكة بالشهوة، كيف وقع في المعصية؟ وذكر قصة هاروت

وماروت.

وقال ابن العربي في "أحكام القرآن" (٤٤/١): "وتحقيق القول فيه: أنه لم يصحّ سنده، ولكنه جائز كلّه في العقل لو صح في النقل. وليس بممتنَع أن تقع المعصية من الملائكة، ويوجد منهم خلاف ما كُلفوه، وتُخلق فيهم الشهوات؛ فإن هذا لا ينكره إلا رجلان: أحدهما: جاهل لا يدري الجائز من المستحيل. والثاني: مَن شم ورد الفلاسفة، فرآهم يقولون إن الملائكة روحانيون، وإنهم لا تركيب فيهم، وإنما هم بسائط .وشهوات الطعام والشراب والجماع لا تكون إلاّ في المركبات من الطبائع الأربع؛ وهذا تحكم في القولين من وجهيْن:

أحدهما :أنهم أخبروا عن الملائكة وكيفيتهم بما لم يعاينوه ولا نُقل إليهم، ولا دل دليل العقل عليه.

والثاني :أنهم أحالوا على البسيط أن يتركّب، وذلك عندنا جائز؛ بل يجوز عندنا بلا خلاف أن يأكل البسيط، ويشرب ويطأ، ولا يوجد من المركّب شيء من ذلك... إلى أن قال : "وخبر الله تعالى عنهم بأنهم يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، ويفعلون ما يؤمرون، صدْق لا خلاف فيه، لكنه خبر عن حالهم وهي ما يجوز أن تتغير فيكون الخبر عنها بذلك أيضاً. وكل حق صدق لا خلاف فيه. وقد قال علماؤنا: إنه خبر عام يجوز أن يدخله التخصيص، وهذا صحيح أيضاً. وقد روى سُنَيْد في" تفسيره": أنه دخل إليهما في مغارهما وكلّمهما وتعلّم منهما في زمن الإسلام؛ وليس التعلم منهما إلا سماع كلامهما، وهما إذا تكلما إنما يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر! أي: لا تجعل ما تسمع منا سبباً ،للكفر كما جعل السامري ما اطلع عليه من أثر فرس جبريل سبباً لاتخاذ العجل إلهاً من دون الله. وفي هذا من العبرة الخشية من سوء العاقبة والخاتمة، وعدم الثقة بظاهر الحالة، والخوف من مكر الله تعالى؛ فهذا بلعام في الآدميين كهاروت وماروت في الملائكة المقربين."

وقال المناوي في "فيض القدير :(١٧٨/١) "

"فائدة :قال بعض الشافعية يُستثنى من جزم الأئمة بقبول التوبة، أربعة لا تُقبل توبتهم: إبليس، وهاروت، وماروت، وعاقر ناقة صالح. قال بعضهم: ولعل المراد: أنهم لا يتوبون". انتهى .

واعترض بأن ما ذكره في إبليس غير صواب، بل هو على ظاهره. وما ذكره في هاروت وماروت غير صحيح، لأن قصتهم قد دلت على أنهم يُعذَّبون في الدنيا فقط، وأنهم في الآخرة يكونون مع الملائكة، بعد ردّهم إلى صفاتهم.

الأسئلة :

١. روى ابن جرير من طريق عن السدي قصة هاروت وماروت وإغواء المرأة لهما وفيها قصة مسخ المرأة إلى كوكب وتعليقهما ببابل وتعليمهما السحر ، وإسناده حسن (صح) .

٢. قال السدي كما روى عنه ابن جرير بإسناد حسن : إذا أتاهما إنسان يريد السحر ، وعظاه ، وقالا له : لا تكفر ، إنما نحن فتنة . فإذا أبى ، قالا له : ائت هذا الرماد ، فبل عليه . فإذا بال عليه ، خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء ، وذلك الإيمان . وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان ، حتى يدخل في مسامعه وكل شيء ، وذلك غضب الله . فإذا أخبرهما بذلك ؛ علماه السحر (صح) .

٣. أخرجه ابن جرير بإسناد صحيح عن قتادة قال : قوله يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت فالسحر سحران سحر تعلمه الشياطين وسحر يعلمه هاروت وماروت (صح) .

٤. قال ابن كثير بعد أن ذكر الأحاديث والآثار في قصة هاروت وماروت : وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى . والله أعلم بحقيقة الحال (صح) .

٥. ما ذهب إليه ابن كثير من رد قصة هاروت وماروت وأنها منقولة عن أهل الكتاب هو الصحيح الذي عليه أكثر العلماء (خطأ) .

٦. ما ذهب إليه ابن كثير من رد قصة هاروت وماروت غير صحيح ففيه رد لأقوال أكثر المفسرين من الصحابة والتابعين بغير دليل (صح) .

٧. ما قاله ابن كثير في رد قصة هاروت وماروت يناقض أوله آخره (صح) .

٨. كثرة المنقول عن الصحابة والتابعين في قصة هاروت وماروت والمرأة من غير إنكار أحد منهم لها دليل واضح على صحتها (صح) .

٩. ممن رد قصة هاروت وماروت الآلوسي والرازي والقاضي عياض والشهاب العراقي (صح)

١٠. قال الألوسي بعد أن ذكر رد السيوطي على من رد قصة هاروت وماروت وأن لها أسانيد كثيرة تقطع بصحة الرواية : وذهب بعض المحققين إلى أن ما روي حكاية لما قاله اليهود وهو باطل في نفسه وبطلانه في نفسه لا ينافي صحة الرواية ولا يرد ما قاله الإمام السيوطي عليه إنما يرد على المنكرين بالكلية (صح) .

١١. من طامات الألوسي في التفسير قوله في قصة هاروت وماروت أنها لعلها من باب الرموز والإشارات (صح) .

١٢. قول الألوسي بأن من قال بصحة قصة هاروت وماروت قد ركب شططاً وقال غلطاً وساعد على تنكيس راية الإسلام كلام باطل مردود لأن من قال بصحة ذلك إنما هم الصحابة والتابعون فهل هؤلاء كما قال ؟ (صح) .

١٣. ذكر الحافظ ابن رجب في كتاب (التخويف من النار) أن قصة هاروت وماروت قد استفاضت عن جماعة من الصحابة والتابعين ولم ينكرها (صح)

١٤. نقل الكتاني في المتناثر من الحديث المتواتر تصحيح ابن حجر العسقلاني والسيوطي لقصة هاروت وماروت واعتمده (صح) .

١٥. ممن رد القصة واستنكرها ابن قتيبة في مختلف الحديث حيث ذكر أن المعنى للآيات النفي وأن ما في قوله تعالى (وما أنزلنا على الملكين) هي نافية (خطأ)

١٦. ممن اعتمد القصة وصححها العيني في عمدة القاري (صح) .

١٧. ممن رد وضعف قصة هاروت وماروت صاحب فيض القدير (خطأ) .

١٨. وقال العجلوني في كشف الخفاء في قصة هاروت وماروت : صحح هذه القصة السيوطي ولا عبرة بمن أنكرها كالرازي والقرطبي فانهم ليسوا في مرتبة المصححين رواية ولا دراية .(صح) .

المحاضرة الخامسة والأربعون

***

تابع تفسير الآيات من (١٠١) إلى (١٠٣) من سورة) البقرة.(

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

فقد انتهينا في المحاضرة السابقة من سوْق الآثار الواردة في قصة هاروت وماروت، مع التعليق عليها، ونستكمل هنا بقية الآثار الواردة في تفسير بقية الآيات.

تابع الآثار الواردة في قصة هاروت وماروت.

عن قتادة في قوله{ :إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ}، قال: بلاء .

وأما قوله تعالى{ :فَلا تَكْفُرْ :}

فأخرج البزار، والحاكم وصححه، عن عبد الله بن مسعود، قال)) :من أتى كاهناً أو ساحراً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد .((

وأخرج البزار، عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم)) :-ليس منا مَن تطيّر، أو تُطيِّر له، أو تكهّن أو تُكهِّن له، أو سحر أو سُحِر له. ومن عقد عقدة، ومن أتى كاهناً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزِل على محمد .((

وأخرج عبد الرزاق، عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم :-))من تعلّم شيئاً من السِّحر- قليلاً أو كثيراً- كان آخر عهده من الله.((

والأحاديث في السِّحر وذمّه، وما يتعلق به، كثيرة لا نطيل بذكْرها، ويأتي بعضها في مسائل الآيات -إن شاء الله تعالى.-

وعن ابن جريج، قال في هذه الآية: "لا يجترئ على السِّحر إلاّ كافر."

وأما قوله تعالى{ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا }...الآية :

فأخرج مسلم وغيره، عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال)) :إن الشيطان ليضَع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس؛ فأقربهم عنده

منزلة :أعظمهم عنده فتنة. يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول: كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً! ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينه وبين أهله. قال: فيقرِّبه ويُدنيه ويلتزمه، ويقول :نِ◌عم أنت .((!بفتح النون وكسرها .

وقال ابن كثير -رحمه الله-: "رجّح شيخنا أبو الحجاج المزي فتح النون، وراجعته فثبت على ذلك. والمشهور عند النحاة: كسْرها. واحتج به بعضهم على جواز كون فاعل "نعم" مضمراً، وهو قليل ."

وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، قال: "ما أبالي أفرّقت بين الرجل وامرأته، أو مشيت إليهما بالسيف."

وأخرج ابن ماجة، عن أبي رهم، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-من أفضل الشفاعة: أن يُشفع بين اثنيْن في النكاح .((

عن قتادة، في قوله{ :فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}، قال:" يؤخّرون أحدهما عن صاحبه، ويبغِّضون أحدهما إلى صاحبه."

وعن الحسن البصري، قال{ :وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ}، قال: "نعم. من شاء الله سلّطهم عليه، ومن لم يشإِ الله لم يُسلّط؛ ولا يستطيعون ضُرَّ أحد إلاّ بإذن الله، كما قال الله تعالى ."

وعن الحسن، أنه قال:" لا يضر هذا السحر إلاّ من دخل فيه ."

وعن قتادة{ :مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ}، قال: "لقد علِم أهل الكتاب فيما يقرؤون من كتاب الله، وفيما عُهِد لهم: أنّ الساحر لا خلاق له عند الله يوم القيامة .

وعن ابن عباس، في قوله{ :مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ }قال: "قوام ."

وعن ابن عباس، ومجاهد، والسدي{ :مِنْ خَلاَقٍ" :}من نصيب."

وأخرج الطستي في "مسائله"، عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله -عز وجل{ :-مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ}، قال: من نصيب .قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت أمية بن أبي الصلت، وهو يقول؟

يَدْعُون بالويل فيها لا خَلاقَ لهم	إلاّ سَرَابِيل من قَطِرٍ وأغلالِ

وعن قتادة" :ما له في الآخرة من جهة عند الله ."

وعن الحسن{ :مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ }قال: "ليس له دِين ."

وعن السدي في قوله{ :وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا }قال" :باعوا ."

قوله تعالى{ :وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. }

عن ابن عباس قال: "كل شيء في القرآن{ لَوْ}، فإنه لا يكون أبداً ."

و عن قتادة، في قوله{ :لَمَثُوبَةٌ}، قال" :ثواب."

أقوال المفسرين.

قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ}: الضمير لبني إسرائيل، لا لعلمائهم فقط، والرسول: محمد -صلى الله تعالى عليه وسلم-.

{مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ}: أي: من التوراة، من حيث إنه -صلى الله تعالى عليه وسلم- جاء على الوصف الذي ذُكر فيها، أو أخبر بأنها كلام الله تعالى المنزل على نبيه موسى -عليه السلام-، أو صدّق ما فيها من قواعد التوحيد، وأصول الدين، وإخبار الأمم، والمواعظ والحِكم، أو أظهر ما سألوه عنه من غوامضها.

{نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}: أي: التوراة، وهم اليهود الذين كانوا في عهده -صلى الله تعالى عليه وسلم-، لا الذين كانوا في عهد سليمان -عليه السلام- كما توهمه بعضهم من اللحاق، لأن النّبذ عند مجيء النبي -صلى الله تعالى عليه وسلم- لا يُتصوّر منهم.

{كِتَابَ اللَّهِ}: المراد به: التوراة. وقيل: القرآن. وأيده أبو حيان بأن الكلام مع الرسول، فيصير المعنى: أنه يُصدّق ما بأيديهم من التوراة، وهم بالعكس يكذِّبون ما جاء به من القرآن، ويتركونه ولا يؤمنون به، بعدما لزمهم تلقّيه بالقبول.

{كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ}: جملة حالية، أي: نبذوه مُشَبَّهين بمن لا يعلم أنه كتاب الله تعالى، أو لا يعلمه أصلاً، أو لا يعلمونه على وجه الإتقان، ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته -صلى الله عليه وسلم-؛ وهذا على تقدير أن يراد الأحبار، وفيه إيذان بأن علْمهم به رصين، لكنهم يتجاهلون.

وعن الشعبي: "هو بين أيديهم يقرؤونه، ولكنهم نبذوا العمل به".

وعن سفيان:" أدرجوه في الديباج والحرير، وحلّوْه بالذهب، ولم يُحلّوا حلاله ولم يُحرِّموا حرامه".
ومَن فسّر كتاب الله تعالى بالقرآن، جعل متعلّق العلْم أنه كتاب الله، أي: كأنهم لا يعلمون أن القرآن كتاب الله تعالى، مع ثبوت ذلك عندهم وتحقّقه لديهم. وفيه إشارة إلى أنهم نبذوه لا عن شبهة، ولكن بغياً وحسداً.

قال الآلوسي: "فاليهود أربع فِرَق: ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها، كمؤمني أهل الكتاب؛ وهم الأقلّون المشار إليهم بـ{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}. وفرقة جاهروا بنبذ العهود وتعدي الحدود؛ وهم المعنيّون بقوله تعالى: {نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ}. وفرقة لم يجاهروا، ولكن نبذوا لجهلهم؛ وهم الأكثرون. وفرقة تمسّكوا بها ظاهراً ونبذوها سراً؛ وهم المتجاهلون".

قال ابن كثير: "فالقوم ذمّهم الله بنبْذهم العهود التي تقدّم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها؛ ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعْته وصفته وأخباره. وقد أُمروا فيها باتّباعه ومؤازرته ومناصرته، كما قال: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالأِنْجِيلِ...} الآية. وقال ها هنا: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}، أي: اطّرَح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم -مما فيه البشارة بمحمد -صلى الله عليه وسلم- {وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}، أي: تركوها {كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ} ما فيها، وأقبلوا على تعلّم السِّحر واتّباعه. ولهذا أرادوا كيد الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وسحروه في مُشْط ومُشَاقة -وهو شعر من الرأس واللحية يسقط مع المِشْق، وهو: المِشْط-، وجُفّ طَلْعة ذَكر- وهو: وعاء الطَّلع، وهو: قِشْره-، تحت رَاعُوفَة بئر ذي أَرْوان -وهي بئر في المدينة في بستان بني زُرَيق-. ورَاعُوفَة البئر: صخرة تنزل في أسفل البئر إذا احتفرت تكون هناك؛ فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقِّي عليها. ويقال: هو حجَر يكون على رأس البئر، يقوم عليها المستقي. وكان الذي تولى ذلك منهم: رجل يقال له: لَبِيد بن الأعصم -لعنه الله-. فأطلع الله على ذلك رسولَه -صلى الله عليه وسلم-، وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين، عن عائشة أمّ المؤمنين -رضي الله عنها-.

قال الآلوسي: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ}، الضمير للذين تقدموا من اليهود، أو الذين كانوا في زمن سليمان -عليه السلام-، أو الذين كانوا في زمن نبينا -صلى الله تعالى عليه

وسلم–، أو ما يتناول الكلّ.

والمتبادر من الشياطين: مردة الجنّ، وهو قول الأكثرين. وقيل: المراد بهم: شياطين الإنس؛ وهو قول المتكلِّمين من المعتزلة.

وقوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا...} الآية: ساق ابن كثير جملة كبيرة من الآثار المتقدّمة في تفسير الآية، ثم قال:

"فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة، والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم –والله الهادي–".

قال: "فقوله تعالى: }وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ{، أي: واتّبعت اليهود –الذين أوتوا الكتاب –بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم، ومخالفتهم الرسول (محمداً) –صلى الله عليه وسلم– ما تتلوه الشياطين. أي: ما (ترويه وتخبر به)، وتحدثه الشياطين على ملك سليمان. وعدّاه بـ }عَلَى{ لأنه ضمن }تَتْلُوا{: تكذب".

وقال ابن جرير: "}عَلَى{ ها هنا بمعنى: "في"، أي: تتلو في ملك سليمان"، ونقله عن ابن جريج، وابن إسحاق.

قال ابن كثير: والتضمين أحسن وأولى –والله أعلم–. وقول الحسن البصري –رحمه الله–: قد كان السِّحر قبل زمان سليمان بن داود، صحيح لاشك فيه، لأن السحرة كانوا في زمان موسى –عليه السلام–، وسليمان بعده، كما قال تعالى: }أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...{ الآية، ثم القصة بعدها، وفيها: }وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ{. وقال قوم صالح –وهم قبل إبراهيم الخليل –عليه السلام– لنبيّهم صالح: }إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ{، (أي: المسحورين، على المشهور).

وظاهر قوله تعالى: }يَعْلَمُونَ...{ إلخ: أنهم يُفهمونهم إياه بالإقراء والتعليم. وقيل: يدلّونهم على تلك الكتب؛ فأطلق على تلك الدلالة تعليماً إطلاقاً للسبب على المسبب. وقيل: المعنى يُوقّرون في قلوبهم أنها حق تضر وتنفع، وأن سليمان –عليه السلام– إنما تم له ما تم بذلك.

وقيل: يُعْلِمون بمعنى: يُعلمون مِن "الإعلام" وهو: الإخبار، أي: يُخبرونهم بما أو بمن يتعلّمون به أو منه السّحر.

وقوله تعالى: }وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ{:

}وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ{: المراد: الجنس، وهو عطف على السحر وهما واحد، إلاّ أنه نزّل تغايرَ المفهوم منزلة تَغايُر الذات.

وقد يراد بالموصول المعهود، وهو نوع آخر أقوى؛ فيكون من عطف الخاصّ على العامّ، إشارة إلى كماله. وقال مجاهد: "هو دون السِّحر، وهو ما يفرّق به بين المرء وزوجه، لا غير".

والمشهور الأول.

قال الآلوسي: "وجوّز العطف على: }مَا تَتْلُوا{، فكأنه قيل: اتّبعوا السحر المدوّن في الكتب وغيره. وهذان الملكان أنزلا لتعليم السِّحر ابتلاء من الله تعالى للناس؛ فمن تعلّم وعمل به كفَر، ومَن تعلّم وتوقّى عمله ثبت على الإيمان. ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء، كما امتحن قوم طالوت بالنهر، وتمييزاً بينه وبين المعجزة، حيث إنه كثر في ذلك الزمان، وأظهر السحرة أموراً غريبة وقع الشك بها في النبوة؛ فبعث الله تعالى الملكيْن لتعليم أبواب السِّحر حتى يُزيلا الشّبه ويميطا الأذى عن الطريق. قيل: كان ذلك في زمن إدريس- عليه السلام-".

قال ابن كثير: اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أنّ }مَا{ نافية، أعني: التي في قوله: }وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ{. [قال القرطبي: }مَا{: نافية، ومعطوف على قوله: }وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ{، ثم قال: }وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحر وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ{، وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل، فأكذبهم الله، وجعل قوله: }هَارُوتَ وَمَارُوتَ{ بدلاً من: }الشَّيَاطِينَ{، قال: وصح ذلك إمّا لأنّ الجمع يطلق على الاثنيْن، كما في قوله تعالى: }فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ{، أو لكون لهما أتباع، أو ذُكرا من بينهم لتمرّدهما. تقدير الكلام عنده: يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت. ثم قال: وهذا أولى ما حُملت عليه الآية وأصح، ولا يُلتفت إلى ما سواه].

قال ابن جرير: "فتأويل الآية على هذا: }وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ{ مِن السِّحر. }وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ{، ولا أنزل الله السحر على الملكيْن. }وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ{ ببابل هاروت وماروت، فيكون قوله: }بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ{ مِن المؤخَّر الذي معناه المقدَّم".

قال:" فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه: أن يقال: }وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ{ وما أنزل الله على الملَكين، }وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ{ ببابل هاروت وماروت. فيكون معنياً بالملكين: جبريل وميكائل –عليهما السلام–، لأن سحرة اليهود –فيما ذُكر– كانت تزعم أنّ الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمداً –صلى الله عليه وسلم–: أن جبريل وميكائل لم ينزلا بسحر، وبرَّأ سليمان –عليه السلام– ممّا نحلوه من السِّحر. وأخبرهم أنّ السحر عن عمل الشياطين، وأنها تعلِّم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلِّمونهم ذلك رجلان؛ اسم أحدهما: هاروت، واسم الآخر: ماروت؛ فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم". هذا لفظه بحروفه.

ثم شرع ابن جرير في ردّ هذا القول، وأن }مَا{ بمعنى: الذي. وأطال القول في ذلك، وادّعى أنّ هاروت وماروت ملَكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر، اختباراً لعباده وامتحاناً، بعد أنه بيّن لعباده أنّ ذلك ممّا يُنْهى عنه على ألسنة الرّسل. وادّعى أن هاروت وماروت مُطيعان في تعليم ذلك، لأنهما امتثلا ما أُمِرا به.

قال ابن كثير: "وهذا الذي سلكه غريب جداً! وأغرب منه: قول مَن زعم أنّ هاروت وماروت قبيلان من الجن [كما زعمه ابن حزم]".

قلت: أمّا أنهما ملكان أنزلا إلى الأرض إلى آخر القصة، فهذا تقدّم كلامنا فيه في الآثار؛ وهو الصحيح، ولا غرابة فيه؛ بل الغرابة في أيّ قول سواه. وأمّا أن يكون سبب الإنزال تعليم السحر، فهو الغريب.

وعن الضحاك بن مزاحم: هما علجان من أهل بابل.

قلت : العلج هو: الكافر الغليظ. والعلوج: الكفار.

قال ابن كثير: ووجّه أصحاب هذا القول "الإنزال" بمعنى: الخلق، لا بمعنى: الإيحاء، في قوله: }وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ{، كما قال تعالى: }وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ{، }وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ{، }وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً{. وفي الحديث: ((ما أنزل الله داءً

إلاّ أنزل له دواء))، وكما يقال: أنزل الله الخير والشر.

فالمعنى: وما خلق على عهد الملكين ببابل، أي: من السحر.

[وحكى القرطبي، عن ابن عباس، وابن أبزى، والحسن البصري: أنهم قرؤوا: }وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ{ -بكسر اللام-، قال ابن أبزى: وهما: داود وسليمان. قال القرطبي: فعلى هذا، تكون }مَا{ نافية أيضاً].

وقال بعضهم: هما رجلان، إلاّ أنهما سُمّيا ملَكين باعتبار صلاحهما، ويؤيّده ما قيل: إنهما داود وسليمان.

قال الآلوسي: "وممّا يقضي منه العجب، ما قاله الإمام القرطبي: إن }هَارُوتَ وَمَارُوتَ{ بدل من: }الشَّيَاطِينَ{ على قراءة التشديد، و}مَا{ في: }وَمَا أُنْزِلَ{ نافية. والمراد من الملَكين: جبرائيل وميكائيل، لأن اليهود زعموا أن الله تعالى أنزلهما بالسحر. وفي الكلام تقديم وتأخير... إلى أن قال: وأعجب من قوله هذا: قوله: وهذا أوْلى ما حُملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يُلتفت إلى ما سواه. ولا يخفى لدى كل منصف أنه لا ينبغي حمْل كلام الله تعالى -وهو في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة- على ما هو أدنى من ذلك، وما هو إلاّ مسخ لكتاب الله تعالى -عز شأنه- وإهباط له عن شأوه؛ ومفاسد قلّة البضاعة لا تحصى".

قلت: تقدم انتقاد ابن قتيبة لذلك أيضاً في المحاضرة الفائتة.

قال ابن كثير: "وذهب كثيرون من السلف إلى أنهما كانا ملَكيْن من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، كما سبق في: الآثار.

قال: وعلى هذا، فيكون الجمع بين هذا وبين ما ثبت من الدلائل على عصمة الملائكة: أن هذيْن سبق لهما في علْم الله هذا؛ فيكون تخصيصًا لهما، فلا تعارض حينئذ. كما سبق في علْمه من أمر إبليس ما سبق -وفي قول أنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: }وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ{... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك- مع أن شأن هاروت وماروت -على ما ذكر- أخفّ مما وقع من إبليس -لعنه الله-".

قال الآلوسي: واختلف في كيفية تلقي ذلك العلْم منهما، فقال مجاهد: إنهما لا يصل إليهما أحد من الناس، وإنما يختلف إليهما شيطانان في كل سنة اختلافة واحدة، فيتعلّمان منهما.

وقيل -وهو الظاهر-: إنهما كانا يباشران التعليم بأنفسهما في وقت من الأوقات، والأقرب أنهما ليسا إذ ذاك على الصورة الملَكية.

}وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ{، قال الآلوسي: أي ما يُعلِم الملَكان أحداً حتى ينصحاه، ويقولا له: إنما نحن ابتلاء من الله -عز وجل-، فمن تعلّم منا وعمل به كفَر، ومن تعلّم وتوقّى ثبت على الإيمان. فلا تكفُر باعتقاده وجواز العمل به!

وقيل: فلا تتعلّم معتقداً إنه حق حتى تكفر! وهو مبني على رأي الاعتزال من أن السحر تمويه وتخييل. ومن اعتقد حقيته يكفر.

و }حَتَّى{ للغاية، وقيل: بمعنى "إلاّ".

وقوله تعالى: }فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ{، أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت -من علْم السِّحر- ما يتصرّفون به فيما يتصرّفون من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرّقون به بين الزوجين، مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف؛ وهذا من صنيع الشياطين.

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر: ما يُخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق، أو نحو ذلك، أو عقد، أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة.

وقيل: المراد ما يُفرِّق لكونه كفراً، لأنه إذا تعلّم كفر فبانت زوجته، أو إذا تعلّم عمل، فتراه أناس فيعتقدون أنه حق، فيكفرون فتبِين أزواجهم.

وقوله تعالى: }وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ{: قال سفيان الثوري: "إلاّ بقضاء الله".

وقال محمد بن إسحاق: "إلاّ بتخلية الله بينه وبين ما أراد".

}وَمَا هُمْ{: الضمير للسحرة الذين عاد إليهم ضمير }فَيَتَعَلَّمُونَ{. وقيل: لليهود الذين عاد إليهم ضمير }وَاتَّبَعُوا{. وقيل: لـ}الشَّيَاطِين{ وضمير }بِهِ{ عائد لـ}مَا{ و}مِنْ{ زائدة، لاستغراق النفي؛ كأنه قيل: وما يضرون به أحداً.

قال الآلوسي: والمراد من الإذن هنا: التخلية بين المسحور وضرر السحر؛ قاله الحسن. وفيه دليل على أن فيه ضرراً مودَعاً: إذا شاء الله تعالى حال بيْنه وبيْنه، وإذا شاء خلاّه وما أودعه فيه؛ وهذا مذهب السلف في سائر الأسباب والمسببات. وقيل: الإذن بمعنى الأمر، ويُتجوز به عن التكوين بعلاقة ترتب الوجود على كلّ منهما في الجملة، والقرينة: عدم كون القبائح

مأموراً بها؛ ففيه نفي كون الأسباب مؤثِّرة بنفسها، بل بجعله إياها أسباباً.

وقوله تعالى: }وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ{، أي: يضرّهم في دِينهم، وليس فيه نفع يوازي ضرره.

}وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ{: لأنهم يقصدون به العمل قصداً جازماً، وقصد المعصية كذلك معصية، أو لأنّ العلْم يدعو إلى العمل ويجرّ إليه، لا سيما عمل الشر الذي هو هوى النفس.

}وَلاَ يَنْفَعُهُمْ{ عطف على ما قبله، للإيذان بأنه شر بحت وضرر محض، لا كبعض المضار المشوبة بنفع وضرر، لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار بأكاذيب السحرة، ولا إماطة الأذى عن الطريق حتى يكون فيه نفع في الجملة.

}وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ{، أي: ولقد علم اليهود -الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسل- لَمَن فعَل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق.

وقيل: الضمير لليهود الذين كانوا على عهد سليمان -عليه السلام-. وقيل: للملَكين، لأنهما كانا يقولان: فلا تكفر! وأتى بضمير الجمع على قول من يرى ذلك.

}لَمَنِ اشْتَرَاهُ{: أي: استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله.

وقوله تعالى: }وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{؛ يقول تعالى: }وَلَبِئْسَ{ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسل، لو كان لهم علْم بما وُعظوا به.

ولا تنافي بين إثبات العلْم لهم أولاً، ونفْيه عنهم ثانياً، إما لأن المثْبَت لهم هو: العقل الغريزي، والمنفيّ عنهم هو: الكسب الذي هو من جملة التكليف، أو لأن الأول هو: العلْم بالجملة، والثاني هو: العلم بالتفصيل؛ فقد يعلم الإنسان مثلاً قبح الشيء، ثم لا يعلم أنّ فعله قبيح. فكأنهم علموا أنّ شراء النفس بالسحر مذموم، لكن لم يتفكروا في أنّ ما يفعلونه هو من جملة ذلك القبيح. أو لأنهم علِموا العقاب ولم يعلموا حقيقته وشدّته، وإما لأنّ الكلام مُخرَّج على تنزيل العالِم بالشيء منزلة الجاهل، ووجود الشيء منزلة عدمه، لعدم ثمرته؛ حيث إنهم لم يعملوا بعلمهم، أو على تنزيل العالِم بفائدة الخبر ولازمها منزلة الجاهل، بناء على أن قوله تعالى: }لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{ معناه: لو كان لهم علْم بذلك الشراء، لامتنعوا منه، أي: ليس لهم علْم؛ فلا يمتنعون.

}وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ{، أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله، واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم ممّا استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: }وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ{.

}لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ{: أصله: لأُثيبوا مثوبة من عند الله، خيراً ممّا شروا به أنفسهم. ولم يقل: "لَمثوبة الله"، مع أنه أخصر، ليُشعر التنكير بالتقليل، فيفيد أنّ شيئاً قليلاً من ثواب الله تعالى في الآخرة الدائمة خير من ثواب كثير في الدنيا الفانية. فكيف وثواب الله تعالى كثير دائم، وفيه من الترغيب والترهيب المناسبيْن للمقام ما لا يخفى؟

وذهب أبو حيان إلى أن: }خير{ هنا: للتفضيل لا للأفضلية، على حد قوله:

... فخيرُكما لشرِّكما فداءُ

}لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{: المفعول محذوف، بقرينة السابق، أي: إن ثواب الله تعالى خير. ونفْي العلْم لنفْي ثمرته الذي هو العمل، أو لترْك التّدبر.

المعنى الإجمالي.

يُخبر تعالى عن طرف من مخازي اليهود، وهو: موقفهم عندما جاءهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بالبيان والبراهين الدالة على صدْقه، بما يوافق ما لديهم في كتابهم من بشارات به وغيرها، فنبذوا كتابهم وراء ظهورهم، وأهملوا العمل به كأنهم لا يعلمون أن فيه تصديق هذا النبي والأمر باتباعه. واستعاضوا عن ذلك باتّباع ما افترتْه الشياطين من السحر في كتب سليمان التي أخرجتها بعد موته من تحت كرسيه، وادّعت عليه أنه كان يعمل بها، وبها كان ملكه، فرماه من رماه بالكفر. فبرَّأه الله تعالى منه، وبيّن أنه حاشاه أن يكفر، وإنما كفر هؤلاء الشياطين الذين علّموا الناس هذا السحر .

كما اتّبعوا ما أنزل الله من أنواع السحر على الملَكين اللّذين قبلا الابتلاء من الله بوضع شهوات بني آدم فيهما وإنزالهما إلى الأرض، فما كان منهما إلاّ أن وقعا في المعصية، وافتتنا بالمرأة التي مسخها الله كوكباً، وهي :الزهرة، كما في القصة المشهورة؛ فكان عقابهما أنهما يعذَّبان في بابل مُنَكَّسة رؤوسهما. وجُعلا فتنة للناس، فمن أراد أن يتعلّم أنواعاً من السحر

أتاهما فعلماه إياها، ولا يعلِّمان أحداً يأتيهما إلاّ بعد أن يُحذِّراه ويُخبراه أنهما جُعلا فتنة وبلاء، وأن تعلّمه هذا السحر منهما يؤدّي إلى كفره وخروج الإيمان منه. فمَن قبِل بذلك تعلّم منهما ما يمكنه أن يُفرّق به بين الرجل وامرأته، كما فعل هؤلاء اليهود مع النبي –صلى الله عليه وسلم– حيث أخذوه عن أهله بما سحره به لبيد بن الأعصم اليهودي.

ثم بيّن تعالى أنه لا يتمكّن الساحر من إيقاع الضرر بالمسحور إلاّ بإذن الله. فقد يخلق الله من الأسباب ما يحول بينه وبين تحقيق الضرر بالمسحور .

وهؤلاء الذين يتعلّمون السحر إنما هم في الحقيقة يتعلمون ما يضرهم ضرراً محضا بضياع آخرتهم، فإنهم قد علموا يقيناً أن من اشترى هذا السحر إنما يشتريه ببذل إيمانه، فليس له في الآخرة أي نصيب؛ فبئس هذا البيع الذي باعوا به أنفسهم، لو كانوا يعلمون حقيقة ما ارتكبوا وعظم قبحه وسوء مآله.

ولو أنهم آمنوا برسول الله تعالى، وما أنزل إليه، واتقوا ما يغضب الله من التكذيب والسحر واتباع الشياطين وغير ذلك، لكان الثواب الذي هو من عند الله هو الخير لهم لو كانوا يعلمون حقيقة ذلك .

نكتفي بهذا القدر، وننهي حديثنا عن هذه الآيات في المحاضرة القادمة إن شاء الله تعالى حول مسائلها –والله الموفق.–

الأسئلة :

١. الفتنة في قول هاروت وماروت (إنما نحن فتنة) يعني : إنما ابتلينا وافتتنا بما وقعنا فيه (خطأ) .

٢. ثبتت الأحاديث والآثار أن العمل بالسحر كفر (صح) .

٣. ثبت الحديث بأن أقرب جنود إبليس إليه من يفرق بين الرجل وزوجته (صح) .

٤. الخلاق في قوله (وما لهم في الآخرة من خلاق) المقصود به : النجاة من العذاب (خطأ)

٥. السحر لا يضر إلا بإذن الله سبحانه الكوني والشرعي (خطأ) .

٦. قال ابن عباس : كل ما في القرآن (لو) فإنه لا يكون (صح) .

٧. قوله (لمثوبة من عند الله) أي : الثواب (صح) .

٨. قوله (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) هو المسيح عليه السلام مصدق لما في التوارة (خطأ) .

٩. قوله (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) أي : نبذوا التوراة وما فيها وراء ظهورهم (صح) .

١٠. قوله (كأنهم لا يعلمون) جملة حالية ، أي : نبذوه متشبهين بالذين لا يعلمون ، وفيه إشارة إلى أنهم أصحاب علم ولكنهم يتجاهلون (صح) .

١١. المراد بالكتاب الذي نبذوه وراء ظهورهم القرآن الكريم وهم يعلمون أنه كتاب الله ولكنهم يتجاهلون (صح) .

١٢. الآيات وما قبلها فيها ذم اليهود بتركهم العهود التي عهدها الله إليهم ولهذا كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء ذكره في كتابهم (صح) .

١٣. الآيات فيها التنبيه إلى أن اليهود لعنهم الله تركوا ما أنزل الله إليهم من الكتاب وأقبلوا على تعلم السحر والعمل به حتى أنهم سحروا النبي صلى الله عليه وسلم (صح) .

١٤. تعدى فعل (تتلوا) بعلى في قوله تعالى (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) لأنه ضمنه معنى (تكذب) (صح) .

١٥. قال ابن جرير : على . أي في قوله تعالى : (على ملك سليمان) . بمعنى : في ملك سليمان ، ونقله عن ابن جريج وابن إسحاق ، قال ابن كثير : وهو أحسن وأولى (خطأ) .

١٦. الظاهر من الآيات أن السحر أول ما كان في زمن سليمان عليه السلام وهو الصحيح (خطأ) .

١٧. (ما) في قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) نافية على الصحيح ، وهو الذي ذهب إليه القرطبي وابن جرير الطبري ورجحه على غيره (خطأ) .

١٨. جعل القرطبي (هاروت وماروت) بدلاً عن (الشياطين) وتقدير الآية : ولكن الشياطين كفروا هاروت وماروت (صح) .

١٩. قال الضحاك بن مزاحم في هاروت وماروت أنهما علجان من أهل بابل ، والعلج هو الكافر الغليظ (صح) .

٢٠. ذهب بعضهم إلى أن الإنزال في الاية بمعنى الخلق لا بمعنى الإيحاء وأن هاروت وماروت من البشر لا من الملائكة ، وهو خلاف القول الصحيح (صح) .

٢١. رد ابن قتيبة والألوسي على القرطبي في ترجيحه بأن هاروت وماروت كانا من غير الملائكة وأن (ما) هنا نافية (صح) .

٢٢. جميع ابن كثير بين قصة هاروت وماروت وبين عصمة الملائكة أنهما مخصصان من ذلك لما سبق في علم الله أنهما سيفعلان هذا (صح) .

٢٣. نقل الألوسي عن مجاهد أن تعلم السحر منهما لا يكون مباشرة وإنما من خلال شيطانين يختلفان إليهما في كل سنة مرة فيتعلمان منهما ، ورجحه بقوله : وهو الظاهر (خطأ) .

٢٤. (حتى) في قوله : (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) هي للغاية ، أي : إنهما لا يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويبينا له أنهما فتنة وأن تعلم السحر كفر (صح) .

٢٥. قوله (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) يدل على أن السحر ليس له تأثير ولا يضر أحداً وأن الضرر هو من بإذن الله فقط (خطأ) .

٢٦. قوله (ما يضرهم ولا ينفعهم) فيه دليل على أن السحر ليس فيه نفع قط وإنما هو ضرر كله (صح) .

٢٧. قوله (لمثوبة من عند الله) أي : لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم (صح) .

٢٨. التنكير في قوله (لمثوبة من عند الله) يدل على التكثير ، أي : لمثوبة عظيمة من عند الله خير (خطأ) .

٢٩. ذهب أبو حيان إلى أن (خير) هنا للتفضيل لا للأفضلية على حد قوله : فخيركما لشركما فداء (صح) .

٣٠. نفي العلم في قوله (لو كانوا يعلمون) لنفي ثمرته وهو العمل (صح) .

المحاضرة السادسة والأربعون

***

تابع تفسير الآيات من (١٠١) إلى (١٠٣) من سورة) البقرة :(

مسائل الآيات.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد :

فمع المحاضرة الأخيرة المتعلقة بهذه الآيات، وهي تتعلق بمسائلها:

الأولى :في قصة سليمان –عليه السلام–، وذهاب مُلْكه، وأمْر خاتمه.

تقدّمت روايات في الآثار تتعلّق بها، ولم نُعرّج على نقْدها والكلام عنها لأنها تتعلق بتفسير قوله تعالى{ :وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ .}والحديث عنها يطول، وإنما اقتصرنا على موضع الشاهد الخاص بأمر السِّحر، وافتراء الشياطين على سليمان –عليه السلام .–وتفصيل الكلام على تِلكم الروايات يُطلب في محلّه.

الثانية: أنواع السِّحر، وما هو المُحرَّم منه؟

ذكَر الرازي ثمانية أنواع من السِّحر :

الأول: سحر الكُلدانيّين والكُشدانيِّين، الذين كانوا يعبدون الكواكب (السبعة) المتحيِّرة، وهي السّيّارة .

وكانوا يعتقدون أنها مُدبِّرة العالَم، وأنها تأتي بالخير والشر. وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل –عليه السلام– مُبطلاً لمقالتهم وراداً لمذاهبهم .

قال ابن كثير: وقد استقصى الرازي في كتاب "السِّرّ المكتوم في مخاطبة الشمس والنجوم" المنسوب إليه -كما ذكره القاضي ابن خَلكان وغيره- طرائقَهم في مخاطبة كلّ من هذه الكواكب السبعة، وكيفيّة ما يفعلون وما يلبسونه وما يتنسّكون به.

قال: ويقال: إنه تاب منه. وقيل: بل صنّفه على وجه إظهار الفضيلة، لا على سبيل الاعتقاد؛ وهذا هو المظنون به .

قلت: لم يظهر من كلام الرازي هذا نوع معيّن من السحر، ولكن هذا يُعتبر داخلاً فيما يأتي من الاستعانة بالشياطين، لأن عبادة هذه الكواكب مِن التّقرّب إليهم .وقد صحّ عن النبي – صلى الله عليه وسلم قوله)) :مَن اقتبس عِلماً مِن النجوم، اقتبس شُعبة مِن السِّحر، زاد ما زاد .((أخرجه أحمد وغيره.

قال الرازي :

والنوع الثاني: سِحر أصحاب الأوهام والنّفوس القوية.

ثم استدلّ على أنّ الوهم له تأثير، بأن الإنسان يُمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجْه الأرض، ولا يُمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه. قال :وكما أجمعت الأطباء على نَهْي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحُمر، والمصروع إلى الأشياء القويّة اللّمعان أو الدّوران، وما ذاك إلاّ لأنّ النفوس خُلقت منطبعة للأوهام. قال: وقد اتّفق العقلاء على أنّ الإصابة بالعين حق.

وله أن يستدلّ على ذلك بما ثبت في الصحيح: أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-قال :))العيْن حق، ولو كان شيء سابق القدَر لسبقتْه العيْن.((

قال: فإذا عرفت هذا، فنقول: النفس التي تفعل هذه الأفاعيل، قد تكون قوية جداً فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات. وتحقيقه: أن النفس إذا كانت مشتغلة عن البدن، شديدة الانجذاب إلى عالَم السماوات، صارت كأنها روح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالَم. وإذا كانت ضعيفة، شديدة التّعلّق بهذه اللّذات البدنية، فحينئذ لا يكون لها تصرّف

البتّة إلاّ في هذا البدن. ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والانقطاع عن الناس، والرياضة.

قال ابن كثير: وهذا الذي يُشير إليه هو التّصرّف بالحال، وهو على قسميْن :

تارة يكون حالاً صحيحة شرعية، يتصرّف (بها) فيما أمر الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، وترْك ما نهى الله تعالى عنه ورسوله -صلى الله عليه وسلم-. وهذه الأحوال مواهب من الله تعالى، وكرامات للصالحين مِن هذه الأمة؛ ولا يُسمّى هذا سِحراً في الشّرع .

وتارة تكون الحال فاسدة، لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يتصرّف بها في ذلك؛ فهذه حال الأشقياء المخالِفين للشريعة. ولا يدل إعطاء الله (إيّاهم) هذه الأحوال على محبته لهم، كما أنّ الدّجّال -لعنه الله- له من الخوارق للعادات ما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة، مع أنه مذموم شرعاً -لعنه الله-. وكذلك مَن شابهه مِن مُخالفي الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وبسْط هذا يطول جداً، وليس هذا موضعه .

قلت: وهذا النوع لا علاقة له بالسِّحر المذكور في الآية.

قال الرازي :

النوع الثالث مِن السِّحر: الاستعانة بالأرواح الأرضية- وهم الجن-، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة. وهم على قسميْن :مؤمنون، وكفّار، وهم الشياطين.

قال: واتّصال النفوس الناطقة بها أسهل مِن اتصالها بالأرواح السماوية، لما بينهما من المناسبة والقرب. ثم إنّ أصحاب الصنعة وأرباب التجربة، شاهدوا أنّ الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة، مِن الرّقى والدَّخْن والتجريد؛ وهذا النوع هو المسمَّى بالعزائم وعمَل تسخير.

قال القرطبي: ومِن السحر ما يكون كلاماً يُحفظ، ورُقًى من أسماء الله تعالى. وقد يكون من عهود الشياطين. ويكون أدوية وأدخنة، وغير ذلك...

قلت: وهذا النوع مِن السحر ممّا يدخل تحت الآية، وقول القرطبي: من أسماء الله تعالى، فيه نظر؛ فلو كان كذلك لما كان سِحراً، ولما حرُم، وإنّما جلّه أسماء للشياطين، والعياذ بالله.

قال:

النوع الرابع مِن السِّحر: التّخييلات والأخذ بالعيون والشعْبذة، ومبناه (على) أنّ البصر قد يُخطئ، ويشتغل بالشيء المعيَّن دون غيره.

ألا ترى أن المشَعْبِذ الحاذق يُظهر عمَل شيء يُذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفْرغهم الشغْل بذلك الشيء بالتحديق نحوه، عمل شيئاً آخر بسرعة شديدة؛ وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه، فيتعجّبون منه جداً. ولو أنه سكت، ولم يتكلّم بما يَصرف الخواطر إلى ضدّ ما يريد أن يعمله، ولم تتحرّك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكلّ ما يفعله .

قال: وكلّما كانت الأحوال التي تفيد حسّ البصر نوعاً من أنواع الخلل أشدّ، كان العمل أحسن. مثل: أن يجلس المشَعْبِذ في موضع مضيء جداً، أو مظلم، فلا تقف القوة الباصرة على أحوالها– لكلاهما –والحالة هذه.

قال القرطبي: ومِن السحر ما يكون بخفّة اليد كالشعوذة .

والشَعْوَذِيّ: البريد، لخفة سيره. قال ابن فارس: "وليست هذه الكلمة مِن كلام أهل البادية ."

قال ابن كثير: وقد قال بعض المفسّرين: إنّ سحر السحرة بين يدي فرعون، إنما كان من باب الشعبذة، ولهذا قال تعالى{ :قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}، وقال تعالى{ :يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .}قالوا:ولم تكن تسعى في نفس الأمر –والله أعلم .–

قلت: هذا أيضاً ليس مِن السحر المذكور في الآية، ولا يظهر وجه لتحريمه أصلاً، وفي إلحاق سحرة موسى به نظر واسع؛ فالله سبحانه وصَفه بالسحر العظيم، ولو كان مجرّد حيلة، فلا يليق وصْفه بذلك. وفرْق كبير بين أن تُسْحَر العين فترى الشيء على خلاف حقيقته، وبين أن تُخدع بحيث تنشغل عن حقيقة الأمر بشيء آخر.

قال:

النوع الخامس مِن السِّحر: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركَّبة مِن النِّسب الهندسيّة.

كفارس على فرس في يده بوق، كلّما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسّه أحد .

ومنها: الصّوَر التي تصوِّرها الروم والهند حتى لا يُفرّق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصوِّروها ضاحكة وباكية... إلى أن قال: فهذه الوجوه مِن لطيف أمور المخاييل. قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل.

قال ابن كثير: يعني ما قاله بعض المفسِّرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصيّ، فحشَوْها زِئْبَقاً، فصارت تتلوّى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق؛ فيُخيَّل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها .

قال الرازي: ومن هذا الباب: تركيب صندوق السّاعات .ويندرج في هذا الباب علْم جرّ الأثقال بالآلات الخفيفة .قال: وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يُعدّ من باب السحر، لأن لها أسباباً معلومة يقينيّة، مَن اطّلع عليها قدَر عليها .

قلت: وهذا ليس مِن السِّحر المحرّم في شيء، ولا علاقة له بما جاء في الآية، ويدخل فيه: الهاتف والمِذياع والكمبيوتر وسائر التقنيات...

قال ابن كثير: ومِن هذا القبيل: حيَل النصارى على عامّتهم بما يُرونهم إياه مِن الأنوار، كقضية قمامة الكنيسة التي لهم بالبلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة، تروج على الطُّغام منهم. وأما الخواصّ فهم معترفون بذلك، ولكن يتأوّلون أنهم يجمعون شمْل أصحابهم على دينهم، فيرَوْن ذلك سائغاً لهم. وفيه شبه للجهلة الأغبياء مِن مُتعبدي الكرامية، الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب، فيَدخلون في عداد مَن قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فيهم :))مَن كذَب عليَّ مُتعمِّداً، فليتبوَّأْ مقعده مِن النار((!، وقوله)) :حدِّثوا عني ولاَ تكذبوا (عليّ)! فإنه مَن يَكذب عليّ يَلِج النار.((

ثم ذكر الرازي ها هنا حكاية عن بعض الرهبان: وهو أنه سمع صوت طائر حنين الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور ترقّ له، فتذهب فتُلقي في وكْره مِن ثمر الزيتون ليتبلّغ به. فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكْله، وتوصّل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يُسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر. وانقطع في صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم، وعلّق ذلك الطائر في مكان منها. فإذا كان زمان الزيتون، فتح باباً من

ناحية؛ فيدخل –أي :الهواء– إلى داخل هذه الصورة، فيُسمع صوتها كذلك الطائر في شكله أيضاً، فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً. فلا ترى النصارى إلاّ ذلك الزيتون في هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه. ففَتَنهم بذلك، وأوهم أنّ هذا من كرامات صاحب هذا القبر –عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .–

قال الرازي :

النوع السادس مِن السحر: الاستعانة بخواص الأدوية –يعني :في الأطعمة– والدّهانات. قال: واعلم: أنه لا سبيل إلى إنكار الخواصّ، فإنّ أثر المغناطيس مشاهَد .

قال ابن كثير: يدخل في هذا القبيل كثير ممّن يدّعي الفقر، ويتحيّل على جهلة الناس بهذه الخواصّ مدَّعياً أنها أحوال له، من مخالطة النيران، ومَسك الحيات، إلى غير ذلك مِن المحالات...

قلت: وهذا النوع أيضاً لا علاقة له بالسِّحر المذكور في الآية، إلاّ إذا كان فيه استخدام للشياطين –والله أعلم .–

قال :

النوع السابع مِن السحر: تعليق القلْب.

وهو أن يدّعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم، وأنّ الجنّ يُطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور. فإذا اتّفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل، قليل التمييز، اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرّعب والمخافة. فإذا حصل الخوف، ضعفت القوى الحسّاسة؛ فحينئذ يتمكّن الساحر أن يفعل ما يشاء .

قال ابن كثير: هذا النمط يقال له: التَّنْبَلَة؛ وإنما يروج على الضعفاء العقول من بني آدم. وفي علْم الفِراسة ما يُرشد إلى معرفة كامل العقل مِن ناقصه، فإذا كان المتَنْبِل حاذقاً في علْم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره.

قلت: هذا أيضاً ليس مِن السِّحر المذكور في الآية.

قال :

النوع الثامن مِن السِّحر: السّعي بالنميمة والتَّضْرِيب من وجوه خفيّة لطيفة، وذلك شائع في الناس .

قال ابن كثير :النميمة على قسميْن :

تارة تكون على وجه التَّحْرِيش (بين الناس)، وتفريق قلوب المؤمنين؛ فهذا حرام متّفق عليه.

فأمّا إذا كانت على وجه الإصلاح (بين الناس)، وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث)) :ليس بالكذّاب مَن ينمّ خيراً((، أو يكون على وجْه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث)) :الحرب خدعة((، وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبني قريظة، وجاء إلى هؤلاء فنَمَى إليهم عن هؤلاء كلاماً، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر، ثم لأَمَ بين ذلك؛ فتناكرت النفوس، وافترقت. وإنما يحدو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة –والله المستعان .–

قلت: وهذا كذلك لا علاقة له بالسِّحر المذكور في الآية.

ثم قال الرازي: فهذه جملة الكلام في أقسام السِّحر، وشرح أنواعه وأصنافه .

قال ابن كثير: وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فنّ السِّحر للَطافة مداركها، لأن السِّحر في اللغة عبارة عمّا لطف وخفِي سببه؛ ولهذا جاء في الحديث)) :إنّ مِن البيان سِحراً .((

قال القرطبي: وقوله –عليه السلام)) :–إنَّ مِن البيان سِحراً ((يحتمل أن يكون مَدحاً كما تقوله طائفة، ويحتمل أن يكون ذماً للبلاغة. قال: وهذا أصح. قال: لأنها تُصوِّب الباطل، حتى توهم السامع أنه حقّ، كما قال)) :فلعلّ بعضَكم أن يكون أَلْحَن بِحُجَّته مِن بعض، فأقضي له...((الحديث .

قال ابن كثير: وسُمّي السَّحور لكونه يقع خفياً آخر الليل. والسَّحْر: الرئة، وهي محلّ الغذاء، وسُمِّيت بذلك لخفائها ولُطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغُضُونه، كما قال أبو جهل يوم بدر

لعتبة: انتفخ سَحْره، أي: انتفخت رئته من الخوف. وقالت عائشة -رضي الله عنها-: "تُوفِّي رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بين سَحْري ونَحْرِي". وقال تعالى{ :سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ}، أي: أخفوا عنهم عمَلهم- والله أعلم .-

قلت: أما قوله: إنّ الرئة محلّ الغذاء فليس بواضح؛ فالرئة موضع دخول الهواء في الجوف عن طريق القصبة الهوائية .وكلام أبي جهل، وكذا قول عائشة- رضي الله عنها- واضح في ذلك. وكلام أهل اللغة يؤيِّده، ولا علاقة للغذاء به .

وأمّا من ناحية ما ذكر مِن أنواع السِّحر، فجلّها من باب المعنى اللغوي، كما أشار إليه الحافظ ابن كثير، ولا دخْل لها في آيتنا، وحكمها متفرّع عن مقاصدها.

وخلاصة الأمر: لا يدخل تحت الآية منها سِوى سحْر عبَدة النجوم، وسحْر الاستعانة بالجن؛ وهما داخلان تحت قوله{ :وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.}

ولم يتعرّض الرازي في الأنواع للسحر المتَعلَّم مِن هاروت وماروت، وقد عدّه بعض السلف نوعاً مستقِلاً غير ما يعلِّمه الشياطين؛ فكان ينبغي إفراده.

الثالثة: هل يجوز تعلّم السِّحر المُحرَّم؟

قال الرازي: العلْم بالسِّحر ليس بقبيح ولا محظور؛ اتّفق المحقِّقون على ذلك، لأن العلْم لذاته شريف، وأيضاً لعموم قوله تعالى{ :قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ}، ولأن السِّحر لو لم يُعلم، لما أمكن الفرْق بينه وبين المعجزة. والعلم بكوْن المعجز معجزاً واجب، وما يتوقّف الواجب عليه فهو واجب. فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلْم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحا؟ !

قال ابن كثير: هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر مِن وجوه :

أحدها :قوله" :العِلْم بالسِّحر ليس بقبيح"، إن عنى به: ليس بقبيح عقلاً، فمُخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا. وإن عنى: أنه ليس بقبيح شرعاً، ففي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلّم السحر. وفي الصحيح)) :مَن أتى عرَّافاً أو كاهناً، فقد كفَر بما أُنزِل على محمّد .((!وفي السّنن)) :مَن عقد عُقدة ونفث فيها، فقد سحَر.((

قلت: أمّا الذم في الآية فمقبول، وأما ما استدل به من أحاديث، فليست في محلّ النِّزاع كما هو واضح؛ فالأول ليس في المتعلِّم وإنما فيمن ذهب وصدّق، والثاني فيمن سحر وليس فيمن تعلّم فقط، على ما في إسناده من ضعف .

قال ابن كثير: وقوله: "ولا محظور؛ اتفق المحقّقون على ذلك"؛ كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث؟! واتّفاق المحقِّقين يقتضي أن يكون (قد) نصّ على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك؟

ثم إدخاله (علْم) السحر في عموم قوله تعالى{ :قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ }فيه نظر، لأنّ هذه الآية، إنّما دلت على مدح العالِمين العلْم الشّرعيّ، ولِمَ قُلت: إنّ هذا منه؟ ثم ترقِّيه إلى وجوب تعلّمه بأنه لا يحصل العلْم بالمعجز إلاّ به، ضعيف، بل فاسد لأن أعظم معجزات رسولنا –عليه الصلاة والسلام– هي: القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديْه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد .ثم إنّ العلم بأنه معجز لا يتوقف على علْم السِّحر أصلاً. ثم مِن المعلوم بالضرورة: أنّ الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامّتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرِّقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يَعلمون السِّحر ولا تعلّموه ولا علَّموه –والله أعلم .–

قال الآلوسي: ونقل بعضهم وجوبَ تعلّمه على المفتي، حتى يَعلم ما يُقتل به وما لا يُقتل به؛ فيفتي به في وجوب القصاص. والحقّ عندي: الحرمة، تبعاً للجمهور إلاّ لداعٍ شرعيّ.

وتعقب الرازي بقوله: أولاً: لا ندّعي أنه قبيح لذاته، وإنما قُبحه باعتبار ما يترتّب عليه. فتحريمه من باب سدّ الذرائع. وكم مِن أمر حُرِّم لذلك. وفي الحديث)) :مَن حام حوْل الحِمى يوشك أن يقع فيه.((

وأما ثانيا :فلأنّ توقّف الفرق بينه وبين المعجزة على العلْم به، ممنوع. ألا ترى أن أكثر العلماء أو كلّهم إلاّ النادر، عرفوا الفرْق بينهما، ولم يعرفوا علم السِّحر؟ وكفى فارقاً بينهما: ما تقدم. ولو كان تعلّمه واجباً لذلك، لرأيت أعلم الناس به الصّدر الأول، مع أنهم لم يُنقل عنهم شيء من ذلك. أفتراهم أخلّوا بهذا الواجب، وأتى به هذا القائل؟! أو أنه أخّل به كما أخلوا؟

وأمّا ثالثاً :فلأن ما نُقل عن بعضهم غير صحيح، لأن إفتاء المفتي بوجوب القَوَد أو عدمه لا يستلزم معرفته علْم السحر، لأن صورة إفتائه على ما ذكرَه العلامة ابن حجر: إن شهد عدلان عرفاَ السِّحر وتابا منه أنه يَقتل غالباً، قتل الساحر، وإلاّ فلا.

الرابعة: حُكم مَن تعلّم السِّحر، ومَن علَّمه، ومَن عمل به.

قوله تعالى في قصة هاروت وماروت: }إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ{.
استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير مَن تعلّم السِّحر، واستشهد له بالحديث الذي رواه البزار وغيره، عن عبد الله، قال: ((مَن أتى كاهناً أو ساحراً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزِل على محمد)).
قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد، وله شواهد أخر.
وقد يستدل بقوله: }وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا...{ مَن ذهب إلى تكفير السّاحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل، وطائفة من السلف.
وقيل: بل لا يكفر، ولكن حدّه: ضرب عنقه، كما سيأتي بيانه.

قال ابن حجر في "الفتح":
وقد استُدل بهذه الآية على أن السّحر كفر، ومتعلِّمه كافر؛ وهو واضح في بعض أنواعه، وهو: التّعبّد للشياطين أو للكواكب. وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة، فلا يكفر به من تعلّمه أصلاً. قال النووي: عمَل السحر حرام، وهو مِن الكبائر بالإجماع؛ وقد عدّه النبي –صلى الله عليه وسلم– مِن السّبْع الموبقات. ومنه ما يكون كفراً، ومنه ما لا يكون كفراً بل معصية كبيرة. فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر، وإلاّ فلا. وأمّا تعلّمه وتعليمه فحرام؛ فإن كان فيه ما يقتضي الكفر كفر، واستتيب منه ولا يقتل. فإن تاب قُبلت توبته. وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عُزّر.
... إلى أن قال: وقد أجاز بعض العلماء تعلّم السِّحر لأحد أمْرين: إمّا لتمييز ما فيه كفر من غيره، وإمّا لإزالته عمّن وقع فيه.

فأما الأول: فلا محذور فيه إلاّ من جهة الاعتقاد؛ فإذا سلِم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرّده لا تستلزم منعاً، كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان للأوثان، لأن كيفيّة ما يعمله السّاحر إنما هي حكاية قول أو فعل، بخلاف تعاطيه والعمل به.

وأما الثاني: فإن كان لا يتم –كما زعم بعضهم– إلاّ بنوع من أنواع الكفر أو الفسق، فلا يحلّ أصلاً، وإلاّ جاز للمعنى المذكور... وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة.

قال: وفي إيراد المصنف –أي: البخاري– هذه الآية: إشارة إلى اختيار الحُكم بكفْر الساحر، لقوله فيها: }وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ{. فإن ظاهرها: أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلاّ وذلك الشيء كفر. وكذا قوله في الآية على لسان الملَكيْن: }إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ{؛ فإن فيه إشارة إلى أنّ تعلّم السِّحر كفْر، فيكون العمل به كفراً. وهذا كلّه واضح على ما قرّرته من العمل ببعض أنواعه. قد زعم بعضهم: أن السحر لا يصحّ إلاّ بذلك؛ وعلى هذا فتسْمية ما عدا ذلك سحراً مجاز، كإطلاق السِّحر على القول البليغ.

قلت: والزعم الذي نقله عن البعض هو الظاهر، كما سيأتي بيانه.

وقد اختلفوا فيمن يتعلّم السحر ويستعمله:

فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك.

ومِن أصحاب أبي حنيفة مَن قال: إن تعلّمه ليتّقيَه أو ليجْتنبه، فلا يكفر. ومَن تعلّمه معتقداً جوازه، أو أنه ينفعه، كفر. وكذا مَن اعتقد أنّ الشياطين تفعل له ما يشاء، فهو كافر.

وقال الشافعي –رحمه الله–: إذا تعلّم السحر، قلنا له: صفْ لنا سحرك! فإن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافر. وإن كان لا يوجب الكفر، فإن اعتقد إباحته فهو كافر.

قلت: المطّلع على ما صُنِف في السِّحر من الكتب العربية والأعجمية، يلاحظ أنّ السِّحر المحرَّم فيه درجات:

– سحر يتعلّمه السّاحر نقلاً عن بعض هذه الكتب، بعمَل أمور تُطلب منه، فيحضر له الجنّيّ، وينفِّذ له ما يطلبه؛ ولا يكون ذلك إلاّ بعد شِركيّات وكُفريّات يؤدِّيها.

- وسحر لا بدّ لمتعلّمه أن يلتقي بالشيطان فَيُتَوِّجه ساحراً في حفلة كُفريّة قذرة، ويبصق بين كتفيه تاركاً علامة، تشبّها بخاتم النبوة. وهؤلاء ترفض الكنائس دخولهم وإجراء مراسم جنائزهم، بمجرّد رؤيتهم لهذه العلامة. وقد أخبرني مَن رأى هذه العلامة على جدِّه الساحر وهو منتسب للإسلام، وهي تُشبه رجْل الهرّ. ومنها يدخل قرينه جسده، ومنها يخرج. وهذا لا يكون إلاّ بكفْر ورِدّة وتعاهد مع الشيطان في صكّ كفري.

- وسحر لا بد لِمتعلِّمه من الذهاب لهاروت وماروت ببابل، فيَخرج منه إيمانه هناك، ويشتري دنياه بآخرته، كما مرّ معنا في الآثار الصحيحة.

ومما قدّمته، يتبيّن أنّ السحر الحقيقيّ كلّه كفْر وشرك، ولكن بعضه أغلظ من بعض -والله المستعان-.

وقد استدل بالآية على العكس مَن جوّز تعلّم السِّحر، ووجْهه: أنّ فيها دلالة على وقوع التعليم من الملائكة، مع عصمتهم، والتّعلم مطاوع له. قال الآلوسي: ولا يخفى أنه لا دليل فيها على الجواز مطلقاً، لأن ذلك التعليم كان للابتلاء والتمييز. وقد ذكر القائلون بالتحريم: أنّ تعلّم السحر إذا فُرض فُشوّه في صِقع، وأريد تبيين فساده لهم ليرجعوا إلى الحق، غير حرام. كما لا يحرم تعلّم الفلسفة للمنصوب للذّبّ عن الدين، بِردِّ الشّبَه، وإن كان أغلب أحواله التحريم؛ وهذا لا ينافي إطلاق القول به.

قلت: هذا مبنيّ على فهْم غير صحيح للآية، وهو: أنّ الله أنزل هاروت وماروت ليعلِّما الناس السحر ليجتنبوه، وقد تقدّم بطلان هذا الفهم.

الخامسة: حدّ السّاحر إذا كان مسلماً أو غير مسلم.

ذهب جماعة من أهل العلْم إلى قتْله، لِما رواه البخاري وغيره عن بجالة بن عبدة، قال: "كتب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: أن اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر ."

وهكذا صحّ: أن حفصة أمّ المؤمنين سحرتْها جارية لها، فأمرت بها فقُتلت .

وروى الترمذي وغيره، عن جندب الأزدي: أنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :-

))حدُّ السّاحر: ضربةٌ بالسّيف .((

ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلاّ مِن هذا الوجه. وإسماعيل بن مسلم يضعف في الحديث.

والصحيح: عن الحسن عن جندب، موقوفاً .

قال ابن كثير: قد رواه الطبراني من وجْه آخر، عن الحسن، عن جندب مرفوعاً –والله أعلم .–

قال: وقد روي مِن طُرق متعدِّدة: أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل، ثم يصيح به فيردّ إليه رأسه. فقال الناس: سبحان الله !يحيي الموتى! ورآه رجل من صالحي المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه. وذهب يلعب لعِبَه ذلك، فاخترط الرجل سيفه، فضرب عنق السّاحر، وقال: إن كان ساحراً فلْيُحْيِ نفسه! وتلا قوله تعالى{ :أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ .}فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فسجنه، ثم أطلقه –والله أعلم .–

وروى الإمام أحمد وغيره، عن حارثة، قال: (كان) عند بعض الأمراء رجل يلعب، فجاء جندب مشتملاً على سيفه، فقتله .قال: أُراه كان ساحراً .

قال (الإمام) أحمد بن حنبل: فثلاثة من أصحاب النبي– صلى الله عليه وسلم– في قتْل السّاحر .يعني: ثبت ذلك عنهم، وهم: عمر، وحفصة، وجندب.

قال ابن كثير: وحمل الشافعي –رحمه الله– قصّة عمر وحفصة على سحْر يكون شِرْكاً –والله أعلم .–

قلت: قد قدّمت أنه لا سِحر بلا شرك.

قال ابن هبيرة: وهل يُقتل بمجرّد فعْله واستعماله؟

فقال مالك وأحمد: نعم .

وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا .

فأمّا إن قَتل بسِحره إنساناً، فإنه يُقتل عند مالك والشافعي وأحمد. وقال أبو حنيفة: لا يُقتل، حتى يتكرّر منه ذلك، أو يقرّ بذلك في حقّ شخص مُعيّن. وإذا قُتل فإنه يُقتل حداً عندهم، إلاّ الشافعي، فإنه قال :يُقتل –والحالة هذه– قصاصاً .

قال: وهل إذا تاب السّاحر تُقبل توبته؟

فقال مالك، وأبو حنيفة وأحمد -في المشهور عنهما-: لا تُقبل .

وقال الشافعي وأحمد -في الرواية الأخرى-: تُقبل.

وأمّا ساحر أهل الكتاب :

فعند أبي حنيفة: أنه يُقتل كما يُقتل الساحر المسلم .

وقال مالك والشافعي وأحمد: لا يُقتل، يعني: لقصة لبيد بن الأعصم .

واختلفوا في المسلمة السّاحرة.

فعند أبي حنيفة: أنها لا تُقتل، ولكن تُحبس .

وقال الثلاثة :حُكمها حُكم الرجل -والله أعلم .-

وعن الزهري قال: يُقتل ساحر المسلمين، ولا يُقتل ساحر المشركين، لأنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سحرتْه امرأة من اليهود فلم يقتلها .

]وقد نقل القرطبي عن مالك -رحمه الله-: أنه قال في الذِّمِّي: يُقتل إن قَتل سِحره. وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذّمّي إذا سحر: إحداهما: أنه يُستتاب، فإن أسلم وإلاّ قُتل .والثانية: أنه يُقتل وإن أسلم .

وأمّا الساحر المسلم، فإن تضمّن سحره كفراً، كفَر عند الأئمة الأربعة وغيرهم، لقوله تعالى : {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ.}

لكن قال مالك: إذا ظُهر عليه، لم تُقبل توبته لأنه كالزنديق؛ فإن تاب قبل أن يُظهر (عليه)، وجاءنا تائباً قبلناه، فإن قَتل سحرُه قُتل .

قال الشافعي: فإن قال: لم أتعمّد القتل فهو مُخطئ، تجب عليه الدية .

وقد حاول ابن حزم دفْع الحجج على قتْل الساحر فأخطأ في ذلك، وتفصيل الكلام في هذه المسألة ليس هذا محلّه.

السادسة: هل للسِّحر حقيقةً تأثيرٌ؟

قال الزمخشري{ :مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}، أي: علْم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجيْن مِن حيلة وتمويه، كالنّفث في العقد، ونحو ذلك ممّا يُحدث الله عنده الفرك

والنشوز والخلاف، ابتلاءً منه؛ لا أنّ السحر له أثر في نفسه، بدليل قوله تعالى{ :وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ}، لأنه ربما أحدث الله عنده فعلاً من أفعاله، وربما لم يحدث.

وحكى الرازي وغيره عن المعتزلة :أنهم أنكروا وجود السِّحر، قال :وربما كفّروا مَن اعتقد وجوده .

)قال(: وأمّا أهل السنة :فقد جوّزوا أن يَقدر الساحر أن يطير في الهواء، ويقلب الإنسان حماراً، والحمار إنساناً، إلاّ أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرّقى والكلمات المعيّنة؛ فأمّا أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلَك والنجوم فلا، خلافاً للفلاسفة والمنجِّمين والصابئة .

ثم استدل على وقوع السّحر، وأنه بخلْق الله تعالى، بقوله تعالى{ :وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ}، ومن الأخبار بأنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم- سُحر، وأن السّحر عمل فيه، وبقصة تلك المرأة مع عائشة –رضي الله عنها–، وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلّمها السحر. قال: وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات الكثيرة.

وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة –رحمه الله– في كتابه" :الإشراف على مذاهب الأشراف" باباً في السحر، فقال: أجمعوا على أنّ السّحر له حقيقة، إلاّ أبا حنيفة فإنه قال: لا حقيقة له عنده .

وقال القرطبي :وعندنا أنّ السحر حق وله حقيقة، يخلق الله عنده ما يشاء، خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفراييني من الشافعية، حيث قالوا: إنه تمويه وتخييل .

قال ابن كثير، بعد أن ساق قصّة المرأة من دومة الجندل:

وقد استدل بهذا الأثر مَن ذهب إلى أنّ الساحر له تمكّن في قلب الأعيان، لأن هذه المرأة بذرت واستغلّت في الحال .

وقال آخرون :بل ليس له قدرة إلاّ على التّخييل، كما قال تعالى{ :سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}، وقال تعالى{ :يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى.}

قال الآلوسي" :وأكفر المعتزلة مَن قال ببلوغ الساحر إلى حيث ما ذكرنا، زعماً منهم أنّ بذلك انسداد طريق النبوة؛ وليس كما زعموا، على ما لا يخفى. ومِن المحققين مَن فرّق بين السحر والمعجزة، باقتران المعجزة بالتحدي، بخلافه فإنه لا يمكن ظهوره على يد مُدّعي نبوة كاذباً، كما جرت به عادة الله تعالى المستمرة، صوناً لهذا المنصب الجليل عن أن يتسور حماه الكذابون."

السابعة: هل يُسأل السّاحر حلاً لسِحْره؟

أجازه سعيد بن المسيّب، فيما نقله عنه البخاري. وقال عامر الشّعبي: لا بأس بالنّشرة. وكَرِه ذلك الحسن البصري .

وفي الصحيح عن عائشة: أنها قالت: يا رسول الله، هلا تَنَشَّرت؟ فقال)) :أمّا والله لقد شفاني، وخشيت أن أفتح على الناس شراً .((

وحكى القرطبي عن وهب: أنه قال: يُؤخذ سبع ورقات من سِدر، فتُدقّ بين حجَرين، ثم تُضرب بالماء، ويُقرأ عليها آية الكرسي. ويَشرب منها المسحور ثلاث حسوات، ثم يغتسل بباقيه؛ فإنه يذهب ما به .وهو جيّد للرجل الذي يُؤخذ عن امرأته .

قال ابن كثير: أنفع ما يُستعمل لإذهاب السحر: ما أنزل الله على رسوله محمد –صلى الله عليه وسلم– في إذهاب ذلك، وهما المعوّذتان، وفي الحديث)) :لم يتعوّذ المتعوِّذون بمِثلِهما((، وكذا قراءة آية الكرسي، فإنها مطردة للشيطان.

قلت: أمّا حلّ السِّحر بكفر وشرك، فلا شكّ في عظم تحريمه .وأمّا بنحو ما ذُكر عن وهب بن منبه، فلا يوجد ما يمنع منه –والله أعلم.–

الثامنة: اختلف أهل العلْم: هل بابل المذكورة في الآية هي بابل العراق، أم غيرها؟

وقد دلّت الآثار الصحيحة –ومنها قصة المرأة– على أنّ بابل المذكورة في القرآن هي: بابل العراق، لا بابل ديناوند، كما قاله السدي وغيره ...

وقال ابن كثير: ثم الدليل على أنها بابل العراق ...فذكر ما رواه ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–، قال: "إنّ حبيبي –صلى الله عليه وسلم– نهاني أن أصلّي ببابل؛ فإنها ملعونة ."

وما رواه أبو داود عن أبي صالح الغفاري: أنّ علياً مرّ ببابل وهو يسير، فجاءه المؤذّن يؤذنه بصلاة العصر. فلما برز منها، أمَر المؤذن فأقام الصلاة. فلما فرغ قال: إنّ حبيبي –صلى الله عليه وسلم– نهاني أن أصلي في المقبرة، ونهاني أن أصلّي بأرض بابل؛ فإنها ملعونة .

قال ابن كثير: وهذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود، لأنه رواه وسكت عنه. ففيه من الفقه: كراهية الصلاة بأرض بابل، كما تُكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الدخول إلى منازلهم، إلاّ أن يكونوا باكين .

قال أصحاب الهيئة: وبُعد ما بين بابل –وهي من إقليم العراق– عن البحر المحيط الغربي، ويقال له: أُوقْيَانوس: سبعون درجة، ويسمّون هذا: طولاً. وأمّا عرضها– وهو بُعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب–، وهو المسامت لخط الاستواء: ثنتان وثلاثون درجة – والله أعلم .–

قلت: الحديث فيه ضعف، ولكنه يصلح كشاهد على أنّ بابل هنا بابل العراق، كما ذكر ابن كثير. وأمّا حُكم نزول الأرض الملعونة، فقد فصّلته في كتاب: "الصيحة الحزينة في البلد اللعينة"؛ وهو في حُكم زيارة ديار ثمود.

وقال الآلوسي: قال الخطابي: في إسناد هذا الحديث مقال، ولا أعلم أحداً من العلماء حرّم الصلاة بها. ويشبه– إن ثبت الحديث– أن يكون نهاه عن أن يتّخذها وطناً ومقاماً، فإذا أقام بها كانت صلاته فيها... إلى أن قال: وكان ذلك إنذاراً منه بما لقي مِن المحنة في تلك الناحية.

قلت: ذكرت في الرسالة الآنفة نقولاً عن الإمام أحمد، والبيهقي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، في كراهة الصلاة في أماكن العذاب والخسف.

هذا، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

الأسئلة :

١. ذكر الرازي للسحر ثمانية أنواع ، وعد منها السحر الذي كان في الذين أرسل إليهم عليه السلام من عبدة النجوم والكواكب (صح) .

٢. ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » (صح) .

٣. ذكر الرازي من أنواع السحر سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، وعلق عليه ابن كثير بأنه هو التصرف بالحال وأنه على قسمين ، وهذا النوع ليس له علاقة بالسحر المذكور في الآية (صح) .

٤. من أنواع السحر الاستعانة بالشياطين من خلال أعمال ورقى وتعوذات وطلاسم (صح)

٥ . من أنواع السحر سحر الشعوذة وخفة اليد التي تجعل الشخص يرى الأمور التي يردها الساحر ويغفل عن أمور يخفيها (صح) .

٦. من أنواع سحر الشعوذة والتخييل على القول الصحيح ما فعله سحرة فرعون بدليل (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) فدل على أنها لم تكن تسعى في نفس الأمر (خطأ) .

٧. قول الله تعالى في سحرة فرعون (وجاءوا بسحر عظيم) يدل على أن ما جاءوا به لم يكن من باب الحيلة وخفة اليد وإنما سحروا أعين الناظرين حتى جعلوها ترى الأمور على غير حقيقتها (صح) .

٨. ذكر ابن كثير أن بعض المفسرين ذهب إلى أن سحر سحرة فرعون كان من باب الخدع التركيبية حيث أنه جعلوا في الحبال والعصي زئبقاً فصارت تتلوى بسبب ذلك ، ورجح ذلك الرازي ، وهو الصحيح من الأقوال (خطأ) .

٩. من أنواع السحر التي ذكرها الرازي ما يستعمله الساحر من الأودية التي لها بعض الخواص التي تخفى على الناس ، وهذا النوع لا علاقة له بالسحر المذكور في الآية (صح) .

١٠. من السحر عند الرازي المشي بالنميمة بين الناس ، وعلق ابن كثير على ذلك بأن النميمة إن كانت للتفريق بن المسلمين فهي حرام وإن كانت للإصلاح أو من باب خدعة الكفار فهي جائزة ومطلوبة ، وليس هذا حقيقة من باب السحر المذكور في الآية (صح) .

١١. السحر في اللغة ما لطف وخفي سببه ومنه الحديث (إن من البيان لسحراً) (صح) .

١٢. رجح القرطبي أن قوله ﷺ (ليس من البيان لسحراً) من باب مدح البلاغة لما فيها من إظهار المعاني في ألفاظ قليلة (صح) .

١٣. رجح القرطبي أن قوله ﷺ (إن من البيان لسحراً) من باب الذم للبلاغة لا من باب المدح (صح) .

١٤. الأنواع الثمانية التي ذكرها الرازي للسحر لا يدخل منها تحت السحر المذكور في الآية إلا نوعان فقط وهما سحر الاستعانة بالشياطين وسحر عبدة النجوم والأصناف الباقية من باب الأنواع اللغوية (صح) .

١٥. لم يذكر الرازي سحر هاروت وماروت من أنواع السحر ، والصحيح أنه نوع مستقل كما عده جمع من العلماء (صح) .

١٦. ذهب الرازي إلى أن مجرد تعلم السحر ليس بمحظور بل من حيث علم فهو ممدوح ، وقد يكون واجباً للتفريق بينه وبين المعجزة ، وهذا القول قوي جداً كما ذكر ابن كثير (خطأ)

١٧. رد ابن كثير على قول الرازي بأن مجرد تعلم السحر ليس بمذموم من وجوه بعضها فيه نظر (صح) .

١٨. ما ذهب إليه الرازي بأن تعلم السحر ليس مذموماً بل هو ممدوح لأنه علم وأن الله قد مدح العلم غير صحيح لأن العلم الممدوح هو العلم الشرعي (صح) .

١٩. رجح الألوسي أن تعلم السحر محرم من باب تحريم الذرائع ورد على الرازي في حل ذلك (صح) .

٢٠. ذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى تكفير من تعلم السحر واستشهد بهذه الآية وبحديث (من أتى كاهنا أو ساحراً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) وهو مذهب أبي حنيفة ومالك (صح) .

٢١. الشافعي ذهب إلى عدم كفر الساحر مطلقاً وهو الذي رجحه النووي وابن حجر (خطأ) .

٢٢. الصحيح من الأقوال أن السحر الحقيقي كله كفر وشرك لأنه لا يكون إلا بأمور كفرية وإن كان بعضه أغلظ من بعض (صح) .

٢٣. استدل بهذه الآية بعض العلماء على جواز تعلم السحر لأن الملكين كانا يعلمانه بإذن الله لهما ذلك ليعلم الناس خطره وليجتنبوه ، وهو الصحيح من الآية (صح) .

٢٤. ذهب كثير من العلماء منهم الإمام أحمد على أن حد الساحر القتل ، وذهب الشافعي إلى أنه لا يقتل إلا إذا كان سحره فيه كفر وشرك ، وقول الشافعي هو الصحيح المعتمد عند أكثر علماء السلف (خطأ) .

٢٥. ثبت قتل الساحر عن ثلاثة من الصحابة وهم عمر وحفصة وجندب البجلي رضي الله عنهم (صح) .

٢٦. ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية أن توبة الساحر لا تقبل (صح) .

٢٧. الجمهور على أن ساحر أهل الكتاب لا يقتل لأن النبي ﷺ لم يقتل اليهودي الذي سحره (صح) .

٢٨. ذهب المعتزلة إلى أن السحر لا حقيقة له ولا تأثير وهو خلاف ما عليه أهل السنة من أهل السحر له حقيقة وتأثير ولكنه لا يؤثر بنفسه وإنما بإذن الله (صح) .

٢٩. الصحيح أنه لا يجوز حل السحر إلا بقراءة القرآن ، وأما حله بأي نوع من الرقى أو ما شابه فهو حرام (خطأ) .

٣٠. ذهب الجمهور إلى جواز حل السحر بالقرآن والرقى الذي ليس فيها شيء من الشرك ، وأما حله بسحر مثله فهو حرام وعظيم (صح) .

المحاضرة السابعة والأربعون

***

تفسير الآيات من (١٠٤) إلى (١٠٧) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ.}

القراءات:

قرأ ابن عامر{ :مَا نُنسِخ }بضمّ النون الأولى، وكسْر السين، والباقون بفتْحها. وقرأ ابن عامر، والكوفيون، ونافع، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلَف العاشر{ :أو نُنْسِها- }بالضم ثم الكسر، من غير همز بعد السين-، والباقون، وهم :ابن كثير وأبو عمرو{ :نَنسَأهَا- }بفتح النون والسين، مع الهمز .-

ونسخ الآية هنا: إزالتها بإبدال أخرى مكانها تَخْلُفها، وإنْسَاخها: الأمر بنسخها وهو: أن يأمر جبريل بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسْخها .

ونَسْؤُها: مِن: "النَّسْء وهو: تأخيرها وإذهابها، لا إلى بدل يخلفها. وإنْسَاؤها مِن "الإِنْسَاء"، وهو :أن يذهب بحفظها عن القلوب.

المناسبة:

لما ذكَر سبحانه إجرام اليهود باتّباعهم السِّحر وإيذائهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- به، ذكَر نوعاً آخر مِن إيذائهم إيّاه بنوع مِن سحْر البيان، وهو: استخدامهم لفظاً يريدون به

غير ظاهره، ونهى المسلمين عن مشابهتهم في استعمال هذا اللفظ. ثم عطف سبحانه بموقف آخر من مواقفهم في إيذاء النبي –صلى الله عليه وسلم –والمؤمنين، بطعنهم في دِينهم، لِما فيه مِن تغيير لبعض الأحكام المنزلة؛ وهو: موضوع النسخ.

لغويّات.

{رَاعِنَا :}قال الأخفش: هو: "فَاعِلْنا" مِن: المراعاة، على معنى: أَرْعِنَا سَمْعَك، ولكن الياء ذهبت للأمر. وهو مِن: أَرْعَيْتُه سمعي: إذا أَصْغَيْتُه إليه.

قال: ويقال: راعِناً –بالتنوين– على إعمال القول فيه، كأنه قال: لا تقولوا فُحْشاً، ولا تقولوا هجراً. وهو مِن :الرُّعُونة. وبه قرأ الحسن.

والرّعي :حفظ الغير لمصلحته، سواء كان الغير عاقلاً أو لا.

{وَقُولُوا انْظُرْنَا}، أي :انتظرنا، وتأنَّ علينا، أو انظر إلينا، ليكون ذلك أقوى في الإفهام والتعريف. وكان الأصل أن يتعدّى الفعل بـ"إلى"، لكنه توسّع فيه، فتعدّى بنفسه، على حدّ قوله:

ظاهرات الجمالِ والحُسن ينْـ ظُرن كما ينْظر الأَرَاكَ الظِّباءُ

وقيل: هو مِن: نظر البصيرة، والمراد به: التّفكّر والتّدبّر فيما يُصلح حال المنظور في أمره.

والمعنى: تفكّر في أمرنا.

وقيل: مِن: نظَره إذا انتظره، وقرأ أُبَيّ{ :أَنْظِرْنَا }مِن النَّظِرَة، أي: أَمْهِلنا حتى نحفظ.

{مَا يَوَدُّ :}الودّ :محبة الشيء، وتمنّي كونه. ويُذَكَّر ويُراد كلّ واحد منهما قصداً والآخر تبعاً، والفارق كون مفعوله جملة إذا استعمل في التّمنّي، ومفرداً إذا استعمل في المحبّة؛ فتقول على الأوّل: وددت لو تفعل كذا، وعلى الثاني: وددْت الرجل.

و"النسخ" -في اللغة :-إزالة الصورة، أو ما في حكْمها عن الشيء، وإثبات مثل ذلك في غيره، سواء كان في الأعراض أو في الأعيان. فمن الأول: نَسَخَت الريحُ الأثرَ، أي: أزالته. ومن الثاني نَسَخْتُ الكتاب، إذا أثبت ما فيه في موضع آخر.

الآثار.

عن معن وعون، أو أحدهما: أنّ رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إليّ! فقال: "إذا سمعت الله يقول: }يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا{، فأرعِها سمعَك؛ فإنه خير يُؤْمر به، أو شرّ يُنهَى عنه".

وعن خيثمة قال: ما تقرؤون في القرآن: }يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا{، فإنه في التوراة: "يا أيها المساكين".

وأخرج أبو نعيم في "الدلائل" عن ابن عباس، قال: }رَاعِنَا{ بلسان اليهود: السّبّ القبيح؛ فكان اليهود يقولون لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- سراً، فلما سمعوا أصحابه يقولون، أعلنوا بها. فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم؛ فأنزل الله الآية.

وأخرج أبو نعيم في "الدلائل"، عن ابن عباس قال: }لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا{، وذلك أنها سبّة بلغة اليهود، فقال تعالى: }وَقُولُوا انْظُرْنَا{ يريد: أسمِعْنا. فقال المؤمنون بعدها: مَن سمعتموه يقولها، فاضربوا عنقه. فانتهت اليهود بعد ذلك.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن ابن عباس، في قوله: }لا تَقُولُوا رَاعِنَا{، قال: كانوا يقولون للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أرعنا سمعك وإنما راعنا؛ كقولك: أعطنا.

يعني: مِن: المعاطاة، ولعلّ معناه: اسمع منا ونسمع منك!

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي صخر، قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أدبر ناداه مَن كانت له حاجة مِن المؤمنين فيقول: "أرعنا سمعك!". فأعظم الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يُقال ذلك له، وأمرهم أن يقولوا: }انْظُرْنَا{ ليعزّروا رسوله ويوقّروه.

وعن السدي قال: كان رجلان من اليهود: مالك بن الصِّيف ورفاعة بن زيد، إذا لقيا النبي -صلى الله عليه وسلم- قالا له وهما يكلِّمانه: راعنا سمعك، واسمع غير مسمع! فظن المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يعظِّمون به أنبياءهم، فقالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك؛ فأنزل الله: }يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا..{ الآية.

وفي لفظ: كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد، يأتي النبي -صلى الله عليه وسلم- فإذا لقيه فكلّمه قال: أرْعني سمعك، واسمع غير مسمع! وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفخّم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع! -غير صاغر-، وهي كالتي في سورة (النساء)؛ فتقدم الله إلى المؤمنين أنّ لا يقولوا: }رَاعِنَا{.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا.

وعن ابن عباس: }رَاعِنَا{، أي: أرعنا سمعك!

وعن قتادة، في قوله: }لا تَقُولُوا رَاعِنَا{، قال: كان أناس من اليهود يقولون: راعنا سمعك! حتى قالها أناس من المسلمين؛ فكره الله لهم ما قالت اليهود.

وعن أبي العالية، قال: إنّ مشركي العرب كانوا إذا حدّث بعضهم بعضاً يقول أحدهم لصاحبه: أرعني سمعك! فنُهوا عن ذلك.

وعن عطاء، في قوله: }لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا{، قال: كانت لغة في الأنصار في الجاهلية، ونهاهم الله أن يقولوها، وقال: }وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا{.

وروي عن أبي مالك، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، نحو ذلك.

وقال مجاهد: }لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا{: لا تقولوا خلافاً. وفي رواية: لا تقولوا: اسمع منّا ونسمع منك! وقولوا: انظرنا، أفهِمْنا، بيِّنْ لنا.

وقال الحسن: }لا تَقُولُوا رَاعِنَا{، قال: الراعن من القول: السّخريّ منه؛ نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد -صلى الله عليه وسلم- وما يدعوهم إليه من الإسلام.

وكذا رُوي عن ابن جريج: أنه قال مثله.

وعن السدي في قوله: }وَاسْمَعُوا{، قال: اسمعوا ما يُقال لكم!

وأخرج أبو نعيم في "الحلية"، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أنزل الله آية فيها: }يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا{، إلاّ وعليّ رأسها وأميرها)).

قال أبو نعيم: لم نكتبه مرفوعاً، إلاّ من حديث ابن أبي خيثمة، والناس رووه موقوفاً.

وعن مجاهد: }وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ{، قال: القرآن والسلام.

قوله: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ...{ إلخ.

أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم في "الكنى"، وابن عدي، وابن عساكر، عن ابن عباس، قال: كان ممّا ينزل على النبي-صلى الله عليه وسلم- الوحي بالليل، وينساه بالنهار؛ فأنزل الله -عز وجل-: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا{.

وأخرج الطبراني عن ابن عمر، قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكانا يقرآن بها. فقاما ذات ليلة يصلّيان، فلم يقدرا منها على حرف. فأصبحا غاديَيْن على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فذكرا ذلك له، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنها ممّا نُسِخ وأُنسِي، فالهَوْا عنها)). فكان الزهري يقرؤها: }مَا نُنْسِخْ مِنْ آيَةٍ{ -بضم النون خفيفة-.

قال ابن كثير: في إسناده سليمان بن الأرقم، وهو ضعيف.

وأخرج أبو داود في "ناسخه"، وابن المنذر، وابن الأنباري في "المصاحف"، وأبو ذر الهروي في "فضائله"، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أن رجلاً كانت معه سورة، فقام من الليل فقام بها فلم يقدر عليها. وقام آخر بها فلم يقدر عليها. وقام آخر بها فلم يقدر عليها. فأصبحوا، فأتوْا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاجتمعوا عنده فأخبروه، فقال: ((إنها نُسِخَت البارحة)).

وأخرج أبو داود في "ناسخه"، والبيهقي في "الدلائل" من وجه آخر، عن أبي أمامة: أن رهطاً من الأنصار من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبروه: أن رجلاً قام من جوف الليل يريد أن يفتتح سورة كان قد وعاها، فلم يقدر منها على شيء إلا بسم الله الرحمن الرحيم. ووقع ذلك لناس من أصحابه، فأصبحوا، فسألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن السورة فسكت ساعة لم يرجع إليهم شيئاً، ثم قال: ((نُسِخَت البارحة))، فنُسخت من صدورهم ومن كل شيء كانت فيه.

وأخرج البخاري، والنسائي، وابن الأنباري في "المصاحف"، والحاكم، والبيهقي في "الدلائل"، عن ابن عباس، قال: قال عمر: عليٌّ أقضانا، وأبيٌّ أقرؤنا. وإنا لندع بعض ما يقول أبيٌّ، وأبيٌّ يقول: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((فلن أدعه لشيء. والله يقول: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا{)).

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأبو داود في "ناسخه"، وابنه في "المصاحف"، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن القاسم بن ربيعة، قال: سمعت سعد بن (أبي) وقاص يقرأ: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ تَنْسَهَا{ قال: قلت له: فإن سعيد بن المسيب يقرأ: }أَوْ نُنْسِها{. قال: فقال سعد: إن القرآن لم ينزل على المسيّب ولا على آل المسيب! قال: قال الله جل ثناؤه }سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى{، }وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ{.

وروي عن محمد بن كعب، وقتادة، وعكرمة، نحو قول سعيد.

وعن ابن عباس في قوله: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا{، يقول: ما نبدِّل من آية أو نتركها لا نبدّلها، نأت بخير منها أو مثلها، يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم.

وعن ابن عباس قال: خطبَنا عمر فقال: "يقول الله تعالى: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا{، أي: نؤخّرها.

وعن مجاهد أنه قرأ: }أَوْ نَنْسَأْهَا{.

وعن مجاهد قال: في قراءة أبيّ: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِكَ".

وعن عبيد بن عمير الليثي في قوله: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا{، يقول: أو نتركها نرفعها من عندهم.

وعن الضحاك، قال: في قراءة ابن مسعود: "مَا نُنْسِكّ من آية أو نَنْسَخْها".

عن ابن عباس: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ{: ما نُبَدّل من آية.

وعن مجاهد: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ{: أي: ما نمحو من آية.

وعن مجاهد عن أصحاب ابن مسعود في قوله: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ{، قال: نُثبت خطّها ونُبدل حُكمها.

وروي عن أبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي، نحو ذلك.

وقال الضحاك: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ{: ما نُنسِك.

وقال عطاء: أمّا }مَا نَنْسَخْ{، فما ترك من القرآن.

قال ابن أبي حاتم: يعني: ترك، فلم ينزل على محمد –صلى الله عليه وسلم–.

وقال السدي: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ{، نسخها: قبضها.

وعن قتادة، قال: كانت الآية تنسخ الآية، وكان نبي الله يقرأ الآية والسورة وما شاء الله من السورة، ثم تُرفع فيُنسيها الله نبيّه، فقال الله يقصّ على نبيه: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا{، يقول: فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي.

وعن ابن عباس، قال: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{، ثم قال: }وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ{، وقال: }يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ{.

وعن أبي العالية، قال: يقولون: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا{، كان الله أنزل أموراً في القرآن ثم رفعها، فقال: }نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا{.

وعن قتادة في قوله: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا{، قال: كان الله تعالى يُنسي نبيه –صلى الله عليه وسلم– ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وعن الحسن، في قوله: }أَوْ نُنْسِهَا{، قال: إن نبيكم –صلى الله عليه وسلم– أُقرِئ قرآناً، ثم أُنسِيَه، فلم يكن شيئاً. ومِن القرآن ما قد نُسخ وأنتم تقرؤونه.

وقال عبيد بن عمير: }أَوْ نُنْسِهَا{: نرفعها من عندكم.

وعن ابن عباس قال: خطبنا عمر –رضي الله عنه– فقال: يقول الله –عز وجل–: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا{، أي: نؤخِّرها.

عن ابن عباس:}مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا{ يقول: ما نبدّل من آية، أو نتركها لا نبدّلها.

وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: }أَوْ نَنْسَأْهَا{، قال: نؤخّرها عندنا.

وقال عبيد بن عمير، ومجاهد، وعطاء: }أَوْ نَنْسَأْهَا{: نؤخّرها ونُرجئها.

وقال عطية العوفي: }أَوْ نَنْسَأْهَا{: نؤخّرها فلا ننسخها.

وقال السدي مثله أيضاً، وكذا الربيع بن أنس.

وقال الضحاك: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا{، يعني: الناسخ من المنسوخ.

وقال أبو العالية: }مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ{ فلا نعمل بها، }أَوْ نَنْسَأْهَا{، أي: نُرجئها عندنا، نأت بها أو نظيرها.

عن ابن عباس: }نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا{، يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم.

وقال السدي: }نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا{، يقول: نأت بخير من الذي نسخناه، أو مثل الذي تركناه.

وقال قتادة: }نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا{، يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نَهْي.

وقد ذكر السيوطي هنا جملة ممّا ورد مِن منسوخ القرآن، لا نطيل بذكْره، ومحل تفصيله في علوم القرآن. ومن ذلك:

ما أخرجه ابن سعد، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود في "ناسخه"، وابن الضُّرَيْس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبان، والبيهقي في "الدلائل"، عن أنس، قال: أنزل الله في الذين قُتلوا ببئر معونة قرآنا قرأناه، حتى نسخ بعد: "أنْ بلِّغوا قومَنا أنّا قد لقينا ربَنا فرضي عنا وأرضانا".

وما أخرجه مسلم، وابن مردويه، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "الدلائل"، عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة بـ(براءة)، فأُنْسيتُها، غير أني حفظت منها: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوفه إلاّ التراب". وكنا نقرأ سورة نشبِّهها بإحدى (المسبّحات)، أوّلها: "سبّح لله ما في السموات"، فأُنسيناها، غير أني حفظت منها: "يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون، فتُكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة".

كما ذكر في العرضة الأخيرة آثاراً، وموضع ذلك في "علوم القرآن" في مبحث: "جمع القرآن". ونذكر هنا على سبيل المثال:

ما أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف"، وابن الأنباري، والبيهقي في "الدلائل"، عن عبيدة السلماني، قال: القراءة التي عرضت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في العام الذي قُبض فيه: هذه القراءة التي يقرؤها الناس، التي جمع عثمان الناس عليها.

وفي أهمية علْم النّاسِخ والمنسوخ:

عن أبي البُختري، قال: دخل عليّ بن أبي طالب المسجد، فإذا رجل يُخوِّف، فقال: "ما هذا؟ فقالوا: رجل يذكِّر الناس. فقال ليس برجل يذكِّر الناس، ولكنه يقول: أنا فلان بن فلان، فاعرفوني! فأرسل إليه. فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال: لا! قال: فاخرج من مسجدنا ولا تُذكِّر فيه!".

و عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: "مرّ عليّ بن أبي طالب برجل يقصّ، فقال: أعرفت الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا. قال: هلكت وأهلكت!".

وعن الضحاك بن مزاحم، قال: مرّ ابن عباس بقاصّ يقصّ، فركله برجله، وقال: "أتدري الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا. قال: هلكت وأهلكت!".

وعن حذيفة، قال: "إنما يُفتي الناسَ أحدُ ثلاثة: رجل يَعلَم ناسخ القرآن من منسوخه،وذلك عمر. ورجل قاضٍ لا يجد من القضاء بُداً. ورجل أحمق متكلّف. فلست بالرجلين الماضيَيْن، فأكره أن أكون الثالث".

أقوال المفسّرين.

نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبّهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أنّ اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص -عليهم لعائن الله-. فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولون: راعِنا. ويُورُّون بالرعونة -وهي: الحمق والاسترخاء-، كما قال تعالى{:مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً .}وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم

كانوا إذا سلّموا إنما يقولون: السَّام عليكم. والسام هو :الموت؛ ولهذا أُمرنا أن نردّ عليهم بـ"وعليكم ."وإنه يُستجاب لنا فيهم، ولا يُستجاب لهم فينا.

وقيل: كان المسلمون يقولون لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعِنا. أي: راقبنا وانتظرنا، وتأنّ بنا حتى نفهمه ونحفظه! وكانت لليهود كلمة يتسابّون بها عبرانية، أي: شر ما فيه، وهي: راعِينا .فلما سمعوا بقول المؤمنين: "راعِنا"، افترضوه وخاطبوا به الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وهم يعنون به تلك السبة؛ فنُهي المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها، وهو: انظرنا، مِن :النَّظِرة. أي: أمهلنا حتى نحفظ !

{وَاسْمَعُوا :}أي: وأحسنوا سماع ما يكلّمكم به رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ويلقي عليكم من المسائل، بقلوب واعية وآذان حاضرة، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراعاة، واسمعوا سماع قبول لا كسماع اليهود.

قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه –صلى الله عليه وسلم–: "راعنا"، لأنها كلمة كرِهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه –صلى الله عليه وسلم–، نظير الذي ذُكر عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال)) :لا تقولوا للعِنب: الكرْم، ولكن قولوا: الحَبَلة. ولا تقولوا: عبدي، ولكن قولوا: فتاي .((وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى{ :مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ}، يُبيّن تعالى بذلك شدّة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين –الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم– للمؤمنين، ليقطع المودة بينهم وبينهم. ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد– صلى الله عليه وسلم– حيث يقول تعالى{ :وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .}

قوله تعالى{ :مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ}، قال ابن أبي حاتم: يعني: قبضها: رفعها، مثل قوله: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة". وقوله: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثا ."

وقال ابن جرير{ :مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ :}ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدّله ونغيّره، وذلك أن يُحوّل الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً؛ ولا يكون ذلك إلاّ في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة، فأما الأخبار، فلا يكون فيها ناسخ ولا

منسوخ. وأصل النسخ مِن: نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة أخرى غيرها؛ فكذلك معنى: نسخ الحُكم إلى غيره، إنما هو تحويله ونقل عبادة إلى غيره. وسواء نُسخ حكمها أو خطّها، (إذ هي) في كلتا حالتيها منسوخة .

وقوله{:نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}، أي :في الحُكم بالنسبة إلى مصلحة المكلَّفين.

وقوله{ :أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}، يُرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلْقه بما يشاء؛ فله الخلْق والأمر، وهو المتصرِّف. فكما يخْلُقهم كما يشاء، ويُسعد من يشاء ويُشقي مَن يشاء، ويُصحّ من يشاء ويُمرض مَن يشاء، ويُوفِّق مَن يشاء ويخذل مَن يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء؛ فيُحلّ ما يشاء ويحرّم ما يشاء، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء. وهو الذي يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرُسله بالنسخ؛ فيأمر بالشيء لِما فيه من المصلحة التي يَعلمها تعالى، ثم يَنهى عنه لِما يعلمه تعالى. فالطاعة كلّ الطاعة في امتثال أمره، واتّباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامتثال ما أمروا، وترْك ما عنه زجروا .

قال الإمام أبو جعفر بن جرير –رحمه الله–: فتأويل الآية: ألم تعلم– يا محمد–: أنّ لي مُلكَ السموات والأرض وسلطانَهما دون غيري: أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدّل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء إذا أشاء، وأقرّ فيهما ما أشاء؟

المعنى الإجمالي.

ينهى الله –سبحانه وتعالى– عباده المؤمنين أن يشابهوا اليهود في مخاطبة النبي –صلى الله عليه وسلم–، بكلمة تحتمل معنًى سيئاً أو سبة له –صلى الله عليه وسلم–، وإن كان ظاهرها ليس كذلك؛ وهي كلمة" :راعِنا" التي كانوا يقولونها له –صلى الله عليه وسلم– لكي يُمهلهم حتى يَعُوا عنه ما يأمرهم به وينهاهم عنه. وكان اليهود يقولونها ويريدون بها

المعنى القبيح، فأمر الله عباده المؤمنين أن يقولوا له بدلاً منها كلمة: "انظرنا"، وهي بنفس المعنى إلاّ أنها لا تحتمل ما كانت تحتمله الكلمة الأولى. وأمرهم أن يسمعوا سماع وعْي، لا كسماع اليهود . وبيّن لهم أنّ هؤلاء الكافرين من اليهود وغيرهم، قد أعدّ لهم عذاباً موجعاً على كفرهم وعنادهم.

ثم بيّن سبحانه حقْد هؤلاء الكافرين من يهود ونصارى وسائر المشركين، وما تُكنّه صدورهم مِن بغض لأيّ خير يُنزله الله على هذه الأمة ويختصها به، مهما كان يسيراً؛ ولكن لله الحكمة البالغة، فهو يختص من يشاء برحمته لسابق علمه، وفضله عظيم واسع.

ثم ذكر سبحانه أنه ما يرفع حُكم أو تلاوةَ آية أو هما معاً، سواء أكان ذلك بإنسائها وهو رفعها من الصدور، أو بنَسْئها وهو تأخيرها، فإنه سبحانه يُنزل بدلاً من ذلك ما هو من مصلحة العباد في حينه، بدرجة مساوية لما رُفع، أو بما هو خير لهم منه. فهو سبحانه على كل شيء قدير، وله ملك السموات والأرض، يتصرّف فيهما كيف يشاء، ويعلم ما يصلحهما ويصلح عباده فيهما؛ فليس لهم من دونه مَن ينصرهم أو يُعينهم.

بعض مسائل الآيات.

الأولى: مشابهة الكافرين:

في الآيات: أنّ الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً. فقال{ :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .}

وأخرج أحمد، وأبو داود، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-بُعثت بيْن يدَي الساعة بالسّيف، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له. وجُعل رزقي تحت ظلِّ رمحي، وجُعل الذلة والصغار على من خالف أمري. ومَن تشبّه بقوم فهو منهم .((

وقوله)) :مَن تشبّه بقوم فهو منهم :((فيه دلالة على النهي الشديد، والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار، في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم، وغير ذلك مِن أمورهم التي لم تُشرع لنا، ولم نُقرّر عليها.

الثانية: في النسخ وأنواعه:

اختلفت عبارات الأصوليّين في حدّ النسخ؛ والأمر في ذلك قريب، لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء .ولخّصه بعضهم بأنه: رفْع الحُكم بدليل شرعي متأخِّر. فاندرج في ذلك نسخ الأخفّ بالأثقل وعكسه، والنسخ لا إلى بدل .

وقيل: نسخ الآية: بيان انتهاء التّعبّد بقراءتها، كآية: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم"، أو الحكم المستفاد منها، كآية { :وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ}، أو بهما جميعاً، كآية: "عشر رضعات معلومات يُحرِّمن ."

وعليه، فالنسخ ثلاثة أنواع :

رفْع التلاوة وبقاء الحُكم.

رفْع الحُكم وبقاء التلاوة.

رفْع التلاوة والحكم .

وأما تفاصيل أحكام النسخ، وذكر أنواعه، وشروطه، فمبسوط في فنّ "أصول الفقه"، وكذا في "علوم القرآن."

الثالثة: إنكار النسخ:

أنكر اليهود النّسخ، فقالوا: النسخ يوهِم البَدَاء، وهو ظهور المصلحة بعد خفائها؛ وهو على الله محال.

وافترقت اليهود على ثلاث فِرَق: فالشمعونية منَعوه عقلاً وسمعاً. والعنانية منعوه سمعاً فقط. والعيسوية قالوا بجوازه ووقوعه، وأن محمداً لم ينسخ شريعة موسى، بل بُعث إلى بني إسماعيل دون بني إسرائيل.

والنسخ جائز عقلاً، وواقع سمعاً، خلافاً ليهود ولبعض المسلمين.

قال ابن كثير: "في هذا المقام ردّ عظيم، وبيان بليغ، لكفر اليهود وتزييف شُبهتهم –لعنهم الله– في دعوى استحالة النسخ، إمّا عقلاً –كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإمّا نقلاً –كما تَخَرَّصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً ."

قال ابن جرير: "وهذا الخبر، وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه –صلى الله عليه وسلم –على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوّة عيسى ومحمد –عليهما الصلاة والسلام–، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيّر ما غيّر الله من حكم التوراة .فأخبرهم الله أنّ له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأنّ الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمْره ونهْيه، وأنّ له أمْرهم بما يشاء ونهْيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه ."

قال ابن كثير: "الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كُتبه المتقدِّمة، وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرّم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكْل جميع الحيوانات، ثم نسخ حلّ بعضها. وكان نكاح الأختيْن مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حُرِّم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها. [وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل. وأمر جمهور بني إسرائيل بقتْل مَن عَبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل]، وأشياء كثيرة يطول ذكْرها .وهم يعترفون بذلك، ويصدِفون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة في المعنى؛ إذ هو المقصود .

وكما في كُتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد –صلى الله عليه وسلم–، والأمر باتباعه؛ فإنه يفيد وجوب متابعته –عليه الصلاة والسلام–، وأنه لا يُقبَل عمل إلاّ على شريعته. وسواء قيل: إن الشرائع المتقدمة مُغَيَّاة إلى بعثته –عليه الصلاة والسلام–، فلا يُسمى ذلك نسخاً، كقوله : {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ}، أو قيل: إنها مُطلَقة، وإن شريعة محمد –صلى الله عليه وسلم– نسختْها، فعلى كلّ تقدير فوجوب اتّباعه متعيّن، لأنه جاء بكتاب هو آخِر الكتب عهداً بالله –تبارك وتعالى .–

]ففي هذا المقام بيّن تعالى جواز النسخ، رداً على اليهود –عليهم لعائن الله–، حيث قال : {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ .}فكما أنّ له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ .}وقرر في سورة) آل عمران) –التي نزل صدرها خطاباً مع أهل

الكتاب- وقوع النسخ عند اليهود، في قوله تعالى{ :كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ }...الآية . والمسلمون كلّهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وكلهم قال بوقوعه ."

وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسِّر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن. قال ابن كثير : وقوله هذا ضعيف، مردود، مرذول. وقد تعسّف في الأجوبة عمّا وقع من النسخ. فمن ذلك: قضية العدّة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يُجب عن ذلك بكلام مقبول .وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس، لم يجب بشيء. ومن ذلك: نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنيْن. ومن ذلك: نسخ وجوب الصّدقة قبل مناجاة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وغير ذلك... -والله أعلم.[-

قلت: وللأسف! انتشرت مقولة الأصفاني عند جماعة مِن المتأخِّرين، وليس لقولهم وجْه -كما ذكَر ابن كثير-، إلاّ أنّ التوسط في أمر النسخ مطلوب؛ فقد بالغ كثيرون في القول بنسخ آيات لا يصحّ نسخها. ولتحرير ذلك وبسْطه محلّ غير هذا -والله تعالى أعلم.-

الأسئلة :

١. قرأ الجمهور (ننسخ) بفتح النون من النسخ ، وقرأ ابن عامر (ننسخ) بضم النون من الإنساخ وهو الأمر بنسخها (صح) .

٢. قرأ بعض القراء ننسأها بالهمز من النسأ وهو تأخيرها وإذهابها ، وهي قراءة شاذة وإن كان معناها صحيحاً (خطأ) .

٣. بعد أن ذكر الله اليهود وإيذاءهم للنبي ﷺ واتباعهم للسحر ذكر نوعاً آخر من أنواع السحر وهو سحر الكلام بأن يقولوا حيث كانوا يقولون كلاماً لا يريدون ظاهره ، ونهى المسلمين عن مشابهتهم (صح) .

٤. قوله (راعنا) هو فاعلنا من المراعاة ، والمعنى : أرعنا سمعك (صح) .

٥. قرأ الحسن (راعناً) بالتنوين على معنى : لا تقولوا فحشاً من الرعونة (صح) .

٦. قوله (انظرنا) أي : انتظرنا واصبر علينا أو انظر إلينا وحذف حرف إلى للتوسع فيه (صح) .

٧. الود : إذا جاء مفعوله مفرداً فهو بمعنى التمني ، وإذا جاء مفعوله جملة فهو بمعنى المحبة (خطأ) .

٨. النسخ بمعنى الإزالة (صح) .

٩. عن ابن مسعود قال : إذا سمعت الله يقول : يا أيها الذين آمنوا ، فأرعها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه (صح) .

١٠. ورد أن (راعنا) مسبة في لسان اليهود ، فكانوا يقولونها لرسول الله وكان المسلمون يقولونها أيضاً فيضحك اليهود من ذلك ، فنزلت الآية (صح) .

١١. عن ابن عباس أن (راعنا) بمعنى : أرعنا سمعك (صح) .

١٢. عن الحسن : الراعن من القول هو السخري منه ، ففي الآية النهي عن السخرية بما يقوله محمد ﷺ (صح) .

١٣. ورد في الآثار أن الآيات والسور كانت تنزل على النبي ﷺ ثم ينسخ الله بعضها فينساها الناس وتنسخ من صدورهم (صح) .

١٤. قرأ سعد بن أبي وقاص (أو تَنسَها) بالتاء المفتوحة ، واستدل على صحتها بقوله تعالى : [سنقرئك فلا تنسى] وهذه القراءة قراءة شاذة (صح) .

١٥. معنى : [ما ننسخ من آية أو ننساها] أي : نتركها ولا نبدلها كما فسرها ابن عباس (صح) .

١٦. معنى قراءة (ننسأها) بالهمز ، أي : نزيلها من مكانها (خطأ) .

١٧. قوله (نأت بخير منها) أي : خير لكم بما فيه من المنفعة أو التخفيف (صح) .

١٨. من المنسوخ من القرآن ما نزل في صحاب بئر معونة (أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) (صح) .

١٩. جمع عثمان ﷺ الناس على القراءة الأخيرة التي كانت للنبي ﷺ بعد وضح الناسخ من المنسوخ (صح) .

٢٠. تضافرت الآثار عن الصحابة أن معرفة الناسخ والمنسوخ ليس شرطاً في معرفة معاني القرآن وتفسيره بدليل أن كثيراً منهم كان لا يعلم العرضة الأخيرة للقرآن (خطأ) .

٢١. الآيات فيها نهي المؤمنين عن التشبه بالكفار بما فيه تورية وتعريض بالسوء ، وأما ما لم يكن فيه شيء من ذلك فليس فيه كراهة كما فعل النبي ﷺ في موافقة اليهود بصيام يوم عاشوراء (خطأ) .

٢٢. الآيات فيها بيان خبث اليهود في تعاريضهم ومحاولتهم تنقيص النبي ﷺ وسبه كما كانوا يقولون إذا سلموا : السام عليكم ، ويقصدون الدعاء بالموت ، وكما كانوا يقولون (راعنا) ويقصدون الرعونة ، ففضحهم الله ونهى المؤمنين عن موافقتهم في ذلك ظاهراً (صح) .

٢٣. قوله [والله يختص برحمته من يشاء) هم المؤمنون من أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد ﷺ ولم يفعلوا ما فعل كفارهم من السخرية (خطأ) .

٢٤. ذهب بعض العلماء إلى أن النسخ لا يكون في الأخبار والصحيح أنه يدخل في الأخبار والأحكام (خطأ) .

٢٥. ينقسم النسخ في القرآن إلى ثلاثة أنواع : نسخ الحكم وبقاء التلاوة ، ونسخ التلاوة وبقاء الحكم ، ونسخ الحكم والتلاوة (صح) .

٢٦. في الآيات رد على اليهود الذين أنكروا وقوع النسخ جحوداً وكفراً وعناداً (صح) .

٢٧. ذكر الله دليلاً على النسخ بأن الله له ملك السماوات والأرض وأنه على كل شيء قدير ، فكما أن الملك له بلا منازع فكذلك له الحكم بلا منازع (صح) .

٢٨. ذهب بعض المفسرين إلى أن النسخ لم يقع في القرآن ، وممن رد عليهم المفسر أبو مسلم الأصبهاني كما ذكر ابن كثير (خطأ) .

٢٩. لا ينبغي التوسع في باب النسخ حتى يدخل فيه ما لم يثبت نسخه وإنما يحتاج إلى ثبوت ذلك (صح) .

٣٠. من العلماء من كان يسمي تقييد المطلق نسخاً وتخصيص العام نسخاً وهكذا ، فيجب التنبه لهذا (صح) .

المحاضرة الثامنة والأربعون

***

تفسير الآيات من (١٠٨) إلى (١١٣) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.}

القراءات:

لا يوجد في الآيات قراءات تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

لما بيّن لهم أنه مالِك أمورهم ومُدبِّرها، وهو الخبير بما يضرّهم وينفعهم مِن النّسخ وغيره، وقرّرهم على ذلك، شرع في توصيتهم بالتسليم بأمره، وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحت آباء اليهود على موسى مِن الأشياء التي كانت عامّتها وبالاً عليهم، كقولهم{ :اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}،{ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً}، وغير ذلك... وهو تتمّة لتوجيه المؤمنين إلى عدم التشبّه

بالكفار والاقتداء بهم، وبيان العداوة المتأصِّلة بين الفريقيْن، وبيان طرف مِن أكاذيبهم وادّعاءاتهم والتناحر فيما بينهم .

لغويات.

{حَسَداً :}الحسد، قال الراغب: تمنّي زوال نعمة مِن مستحقٍّ لها، وربما كان مع ذلك سعْي في إزالتها.

الصّفح :ترْك التثريب والتأنيب، وهو أبلغ مِن العفو؛ إذ قد يعفو الإنسان ولا يصفح. ولعلّه مأخوذ مِن تَوْلية صفحة الوجه إعراضاً، أو مِن: تَصَفَّحت الورقة إذا تجاوزت عمّا فيها.

{بَصِيرٌ" :}فَعِيل" مِن: البصر، وأصله: "مُبْصر"، صرف إلى: "بصير"،كما صُرف" مُبْدع" إلى: "بديع"، و"مُؤْلِم" إلى " أليم ."

وهُود :جمع هَائِد؛ كعُوذ جمع عَائِذ. وقيل: مصدر يستوي فيه الواحد وغيره. وقيل: إنه مخفّف "يهود" بحذف الياء؛ وهو ضعيف.

الأمانيّ :جمع أُمْنِيَّة، وهي ما يُتمنَّى، وأصلها: "أُفْعُولة"، كالأُضْحُوكة والأُعْجُوبة.

و{هَاتُوا :}بمعنى: أحضِروا، والهاء أصلية لا بدل من همزة "آتُوا"، ولا للتنبيه. وهي فعل أمر، خلافاً لمن زعم أنها: اسم فعل، أو صوت بمنزلة: "ها". وفي مجيء الماضي والمضارع والمصدر من هذه المادة خلاف، وأثبت أبو حيان: هاتَى يُهاتِي مُهَاتاة.

والبرهان :الدليل على صحّة الدعوى. قيل: هو مأخوذ من: البَرْه، وهو :القطع فتكون النون زائدة. وقيل: من: البَرْهَنَة، وهو :البيان؛ فتكون النون أصلية لفقدان "فَعْلَن" ووجود "فَعْلَلَ"، ويُبني على هذا الاشتقاق الخلاف في "برهان"، إذا سُمِّي به، هل ينصرف أو لا؟

الآثار.

أخرج ابن اسحق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيْمِلة ووهب بن زيد لرسول الله– صلى الله عليه وسلم–: يا محمد، ائتنا بكتاب تُنزله علينا من السماء نقرؤه، أو فجّرْ لنا أنهاراً نتّبعك ونصدّقك! فأنزل الله في ذلك{ :أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلوا رَسُولَكُمْ }إلى قوله{ :سَوَاءَ السَّبِيلِ .}وكان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب مِن أشدّ اليهود حسداً للعرب إذ خصّهم الله برسوله، وكانا جاهديْن في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا؛ فأنزل الله فيهما{ :وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .}

وعن أبي العالية، في قوله تعالى{ :أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ}، قال :قال رجل: يا رسول الله! لو كانت كفارتنا ككفّارات بني إسرائيل! فقال النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–اللهم لا نبغِيها– ثلاثاً–. ما أعطاكم الله خيرٌ ممّا أعطى بني إسرائيل .كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدُهم الخطيئة، وجدَها مكتوبة على بابه وكفّارتها. فإن كفّرها كانت له خِزياً في الدنيا. وإن لم يكفِّرها كانت له خزياً في الآخرة. فما أعطاكم الله خيرٌ ممّا أعطى بني إسرائيل .((قال{ :وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً } وقال)) :الصلوات الخمْس، ومِن الجمعة إلى الجمعة: كفّارات لِمَا بيْنهنّ((، وقال)) :مَن همّ بسيّئة فلمْ يعملْها لم تُكتب عليه، وإن عمِلها كُتبت سيّئة واحدة. ومَن همّ بحسنة فلم يعملْها كُتبت له حسنة واحدة، وإن عمِلها كُتبتْ له عشْر أمثالها. ولا يهلك على الله إلا هالك .((فأنزل الله{ :أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ .}

وقال مجاهد{ :أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ }أنْ يريهم الله جهرة. قال: سألت قريش محمداً –صلى الله عليه وسلم– أن يجعل لهم الصّفا ذهباً. قال)) :نعم، وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل((، فأبوْا ورجعوا .

وعن السدي، قال: سألت العرب محمداً –صلى الله عليه وسلم –أن يأتيهم بالله فيروْه جهرة، فنزلت هذه الآية.

وعن قتادة نحو هذا .

وعن أبي العالية، في قوله { :وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْأِيمَانِ}، يقول: يتبدّل الشّدّة بالرخاء.

وعن السدي في قوله{ :فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}، قال: عدَل عن السبيل.

وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في "الدلائل"، عن كعب بن مالك، قال: كان المشركون واليهود من أهل المدينة، حين قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، يُؤذون رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه أشدّ الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم؛ ففيهم أنزل الله{ :وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً }...الآية. وفيهم أنزل الله{ :وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً }...الآيه.

وأخرج البخاري، ومسلم، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في "الدلائل"، عن أسامه بن زيد، قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه يَعْفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى. قال الله{ :وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً}، وقال{ :وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ }وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يتأوّل في العفو ما أمَره الله به، حتى أذن الله فيهم بقتْل، فقتل الله به مَن قتَل من صناديد قريش.

قال ابن كثير، بعد ذكْره مِن رواية ابن أبي حاتم: وهذا إسناده صحيح، ولم أره في شيء من الكتب الستة، [ولكن له أصل في الصحيحيْن عن أسامة بن زيد –رضي الله عنهما .[–

قلت: هذا غريب؛ فالحديث في الصحيحين، وقد رواه البخاري بإسناده ومتْنه سواء، كما رواه ابن أبي حاتم، إلا أنه في البخاري مطوّلاً.

وروى ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن كعب بن مالك: أنّ كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي– صلى الله عليه و سلم–، وفيه أنزل الله{ :وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ }إلى قوله{ :فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا . }

وعن ابن عباس: أنّ رسولاً أمياً يُخبرهم بما في أيديهم مِن الرسل والكتب والآيات، ثم يُصدق بذلك كلّه مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً؛ وكذلك قال الله تعالى : {كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}، يقول: مِن بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكنّ الحسد حمَلهم على الجحود. فعيّرهم ووبّخهم ولامهم أشدّ

الملامة، وشرع لنبيه- صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين ما هم عليه مِن التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل (الله) عليهم وما أنزل مِن قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم .

وعن الزهري وقتادة، في قوله{ :وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، قالا: كعب بن الأشرف.

و عن الربيع بن أنس في قوله{ :حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ}، قال: مِن قِبَل أنفسهم{ .مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}، يقول: يتبيّن لهم أنّ محمداً رسول الله.

وقال أبو العالية{ :مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ :}مِن بعد ما تبيّن أنّ محمداً –صلى الله عليه وسلم- رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفَروا به حسداً وبغياً، إذ كان مِن غيرهم .

وكذا قال السدي .

وعن قتادة، في قوله{ :مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}، قال: من بعد ما تبيّن لهم أنّ محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، نعْته وأمْره ونبوّته. ومن بعد ما تبيّن لهم أن الإسلام دين الله الذي جاء به محمد –صلى الله عليه وسلم .-

{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا}، قال: أمَر الله نبيّه أن يعفو عنهم ويصفح،{ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}؛ فأنزل الله في (براءة)، وأمَره فقال{ :قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }...الآية، فنسختها هذه الآية، وأمَره الله فيها بقتال أهل الكتاب، حتى يُسلموا أو يُقرّوا بالجزية.

وعن ابن عباس، في قوله{ :فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ :}نسخ ذلك قولُه{ :فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}، وقوله{ :قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ }إلى قوله{ :وَهُمْ صَاغِرُونَ}؛ فنسخ هذا عفوَه عن المشركين .

وعن ابن عباس، في قوله{ :فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا}، وقوله{ :وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}، ونحو هذا في العفو عن المشركين، قال: نسخ ذلك كلّه بقوله{ :قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، وقوله : {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ.}

وعن السدي، في قوله{ :فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا}، قال: هي منسوخه، نسخَتْها{ :قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ.}

وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس: إنّها منسوخة بآية السيف.

وعن سعيد بن جبير، في قوله{ :وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ}، يعني: من الأعمال من الخير في الدنيا.

وعن أبي العالية، في قوله{ :تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ}، قال: تجدوا ثوابه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عقبة بن عامر، قال: رأيت رسول الله –صلى الله عليه و سلم– وهو يَقْتَرِئ هذه الآية{ :سَمِيعٌ بَصِيرٌ}، يقول: بكل شيء بصير.

عن أبي العالية في قوله{ :وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}، قال: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلاّ مَن كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلاّ مَن كان نصرانياً{ .تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ}، قال: أمانيّ يتمنّوْنها على الله بغير الحق{ .قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}، يعني: حجّتكم،{ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }بما تقولون أنها كما تقولون{ .بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}، يقول :أخلص لله.

وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس: أمانيّ تمنّوْها على الله بغير حق.

{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ :}قال أبو العالية، ومجاهد، والسدي، والربيع بن أنس: حجّتكم .

وقال قتادة: بيّنتكم على ذلك .

وعن مجاهد{ :مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}، قال: أخلص دينه.

وقال سعيد بن جبير{ :بَلَى مَنْ أَسْلَمَ :}أخلص{ وَجْهَهُ}، قال :دِينه .

وقال أبو العالية والربيع{ :بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}، يقول: مَن أخلص لله .

وعن سعيد بن جبير، في{ :وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، يعني: في الآخرة،{ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}، يعني: لا يحزنون للموت .

وأخرج ابن اسحق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله –صلى الله عليه وسلم –أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء! وكفر بعيسى وبالإنجيل . وقال رجل مِن أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء! وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله في ذلك مِن قولهما{ :وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ

النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ}، قال: إنّ كلاًّ يتلو في كتابه تصديق مَن كفَر به .

وقال مجاهد: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء .

وقال قتادة{ :وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ}، قال :بلى! قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرّقوا{ .وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ}، قال :بلى! قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرّقوا .

وعنه رواية أخرى، كقول أبي العالية والربيع بن أنس، في تفسير هذه الآية{ :وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ :}هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم.–

وعن الربيع بن أنس، وقتادة{ :كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}، قالا: وقالت النصارى مثل قول اليهود وقِيلهم .

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: مَن هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى، وقبل التوراة والإنجيل .

وقال السدى{ :كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}، هم: العرب، قالوا: ليس محمد على شيء.

وعن الحسن{ :يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ }أن يكذّبهم ويُدخلهم النار .

أقوال المفسّرين.

قوله تعالى{ :أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ}، أي: بل تريدون. أو هي على بابها في الاستفهام؛ وهو إنكاري، وهو يعمّ المؤمنين والكافرين؛ فإنه عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى{ :يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .}

والمراد: أن الله ذمّ مَن سأل الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى –عليه السلام– تعنتاً وتكذيباً وعناداً، قال الله

تعالى{ :وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ}، أي: ومَن يشتر الكفر بالإيمان،{ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}، أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال. وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى{ :أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ .}
قال الآلوسي: والمراد توصيته المسلمين بالثقة برسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم–، وترك الاقتراح، بعد ردّ طعن المشركين أو اليهود في النسخ؛ فكأنه قيل: لا تكونوا فيما أُنزل إليكم من القرآن، مثْل اليهود في ترك الثقة بالآيات البيّنة واقتراح غيرها، فتضلّوا وتكفروا بعد الإيمان.
قال{ :وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ}؛ فالسبب فيه أنه تركه، ويؤول المعنى إلى أنّ ضلال الطريق المستقيم –وهو: الكفر الصريح في الآيات– سبب للتبديل والارتداد .
وفسّر بعضهم التبدّل المذكور بترْك الثقة بالآيات، باعتبار كونه لازماً له؛ فيكون كناية عنه.
وحاصل الآية حينئذ: ومَن يترك الثقة بالآيات البيّنة المنزلة بحسب المصالح التي مِن جملتها الآيات الناسخة التي هي خير محض وحق بحت، واقترح غيرها، فقد عدَل وجار –من حيث لا يدري– عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى، وتاه في تيه الهوى، وتردّى في مهاوي الرّدى.

ثم يحذّر الله تعالى عباده المؤمنين مِن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويُعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه مِن الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضْل نبيّهم. ويأمر عباده المؤمنين بالصّفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمْر الله مِن النصر والفتح .ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويحثّهم على ذلك، ويرغّبهم فيه، فقوله{ :فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}، أي :فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عمّا يكون منهم مِن الجهل والعداوة حتى يأتيّ الله بأمْره الذي هو قتْل بني قريظة، وإجلاء بني النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم؛ وهي مثل قوله تعالى{ :وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ .}

وقد ذكَر ابن كثير الآثار في نسخ هذه الآية، ثم قال :ويُرشد إلى ذلك أيضاً: قوله{ :حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ .}

وقوله تعالى{ :وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ}، يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، مِن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يُمكِّن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد{ .يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}؛ ولهذا قال تعالى{ :إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، يعني: أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو شراً؛ فإنه سيجازى كل عامل بعمله .

وقال أبو جعفر ابن جرير، في قوله تعالى{ :إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ :}وهذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سراً أو علانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلها. وهذا الكلام- وإن كان خرج مخرج الخبر-، فإن فيه وعداً ووعيداً، وأمراً وزجراً. وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدّوا في طاعته، إذ كان ذلك مَذْخوراً لهم عنده، حتى يثيبهم عليه، كما قال{ :وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ}، وليحذروا معصيته.

ثم بيّن الله تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادّعت كلّ طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلاّ مَن كان على ملّتها، كما أخبر عنهم في سورة) المائدة) في أنهم قالوا{ :نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}، فأكذبهم (الله) تعالى بما أخبرهم أنه يعذّبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادّعوا لما كان الأمر كذلك. وكما تقدّم مِن دعواهم أنه لن تمسهم النار إلاّ أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، وردّ عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادّعوْها بلا دليل ولا حجّة ولا بيّنة، فقال{ :تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ}، أي: تلك الأماني الباطلة أمانيهم.

قال الآلوسي{ :وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ}، الضمير لأهل الكتاب، لا لكثير منهم كما يتبادر من العطف، والمراد بهم: اليهود والنصارى جميعاً. وكأنّ أصل الكلام: قالت اليهود: "لن يدخل الجنة إلاّ مَن كان هوداً"، وقالت النصارى: "لن يدخل الجنة إلاّ مَن كان نصارى"، فلفّ بيْن هذيْن المقوليْن، وجُعلاً مقولاً واحداً اختصاراً وثقة بفهم السامع، أنّ ليس المقصد أنّ كلّ واحد من الفريقيْن يقول هذا القول المردّد، وللعلم بتضليل كلّ واحد منهما صاحبه؛ بل المقصد: تقسيم القول المذكور بالنسبة إليهم. فكلمة{ :أَوْ }للتفصيل والتقسيم، لا للترديد؛ فلا غبار.

ثم قال تعالى{ :بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ}، أي :مَن أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى{ :فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ }...الآية .
{وَهُوَ مُحْسِنٌ}، أي: اتّبع فيه الرسول –صلى الله عليه وسلم .-
وقوله{ :فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم ممّا يخافونه مِن المحذور؛ ف{وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ }فيما يستقبلونه،{ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }على ما مضى ممّا يتركونه.
وقوله تعالى{ :وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ }يبيّن به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم.
أي: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، وفيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى. وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء به من التوراة من عند الله. وكلّ يكفر بما في يديْ صاحبه .
وهذا القول يقتضي أنّ كلاّ مِن الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمّهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف (ذلك)؛ ولهذا قال تعالى : {وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ}، أي: وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، كلّ منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً، ومقابلة للفاسد بالفاسد .
وقوله{ :كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}، يُبيِّن بهذا: جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول؛ وهذا من باب الإيماء والإشارة .

وقوله{ :كَذَلِكَ}، أي: مثل ذلك الذي سمعت به، على ذلك المنهاج، قال الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام والمعطلة؛ قالوا لكل أهل دين: ليسوا على شيء. وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم -مع علمهم- في سلك مَن لا يعلم.

وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى{ :الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}، كما تقدّم في الآثار. واختار أبو جعفر ابن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثم دليل قاطع يعيّن واحداً من هذه الأقوال.

قال ابن كثير: فالحمْل على الجميع أوْلى- والله أعلم .-

قال الآلوسي: وإنما جعل قول أولئك مشبهاً به لأنه أقبح؛ إذ الباطل مِن العالِم أقبح منه من الجاهل... وفيه مِن المبالغة والتوبيخ على التشبّه بالجهال ما لا يخفى .وإنما وُبِّخوا وقد صدقوا؛ إذ كِلا الدِّينيْن بعد النسخ ليس بشيء، لأنهم لم يقصدوا ذلك؛ وإنما قصد كلّ فريق إبطال دِين الآخر مِن أصله والكفر بنبيِّه وكتابه.

وقوله تعالى{ :فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، أي: أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة) الحج{ :(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، وكما قال تعالى{ :قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ .}

والمراد: أنّ الله يحكم بين اليهود والنصارى يوم القيامة، بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقّه.

المعنى الإجمالي.

يُحذِّر تعالى أمّة رسوله محمد -عليه الصلاة والسلام- مِن أن يسلكوا مسلك يهود في تعنّتهم مع نبيّهم موسى -عليه السلام-، واعتراضهم عليه، وسؤالهم إيّاه على وجه الاقتراح والتعجيز والاعتراض، وكما فعل رافع بن حُرَيْملة ووهب بن زيد عندما قالا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا محمد، ائتنا بكتاب تُنزله علينا من السماء نقرؤه، أو فجِّرْ لنا أنهاراً، نتبعْك

ونصدِّقك؛ وفي ذلك استبدال للإيمان بالكفر، ورِدَّة ظاهرة عن دين الله تعالى؛ وهو الضلال المبين عن سبيل الحق.

ثم يذكر تعالى عداوة أهل الكتاب، وما في قلوب كثيرين منهم مِن الرغبة والمحبة لرجوع المسلمين عن دِينهم إلى الكفر؛ وذلك لما في نفوسهم من الحسد للعرب، إذ خصّهم الله برسوله الخاتِم. ومن هؤلاء: حيي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب، كانا من أشد اليهود حسداً، وكانا جاهديْن في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، وذلك مع ما عندهم من الحق الواضح البيّن في صدْقه -صلى الله عليه وسلم- وصدْق رسالته.

فأمر الله المؤمنين بالعفو والصفح عن هذه المواقف، حتى يأتيهم الأمر منه سبحانه بخلاف ذلك، وهو قتالهم وترك التجاوز عنهم. والله سبحانه وتعالى هو القدير على كل شيء.

وأمَرهم أن يلتزموا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فهما أهم دعامتيْن في هذا الدِّين، وركناه بعد الشهادتيْن .وطمْأنهم سبحانه أنّ كل ما يفعلونه مِن خيرات، فهو ممّا يقدِّمونه لأنفسهم يوم القيامة، وسوف يجدونه عند لقائهم لربهم بجزائه الموفور؛ فالله تعالى بصير بكلّ ما يفعلونه، محيط بهم.

ثم ذكر سبحانه افتراءً مِن افتراءات أهل الكتاب، حيث ادّعت كل فرقة من يهود ونصارى: أنه لن يدخل أحد غيرها الجنة، فبيّن سبحانه: أنّ هذه أماني في نفوسهم، وليست من الحق في شيء، وليس عليها أي دليل يُثبتها. وتحدّاهم أن يأتوا ببرهان على ذلك إن كانوا قد صدقوا في تلك الدعوى. وردّ عليهم بأنّ الجنة إنما يدخلها مَن استوفى شرطيْن أساسين، وهما: الإخلاص التام لله، فلا يشرك بعبادته مع ربّه شيئاً، والإحسان في العمل، بأن يكون موافقاً لِما شرعه الله على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-. فمَن فعَل ذلك، فله الأجر والجزاء عند الله، ولا يخاف ممّا يقدم عليه من أمْر آخرته، ولا يحزن على ما فاته مِن دُنياه.

ثم بيّن الله -جل وعلا- دليلاً من دلائل تناقضهم واختلافهم، حيث نفى كلّ فريق منهم عن الآخر أن يكون على شيء من الحق، وكفر بكتابه ورسوله، كما فعل يوسف بن حريملة والنصراني النجراني بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والكتاب الذي بين أيديهم المنزل عليهم يشهد عليهم بكذبهم، ويلزمهم بالإيمان بموسى وعيسى معاً، وبالتوراة والإنجيل معاً؛ فشابهوا بفعلهم هذا أهل الجهل الذين لا علْم لديهم، في نفْيهم الرسالة وتكذيبهم

الرسل. فالله سبحانه سوف يكون هو الحَكَم بينهم يوم القيامة في هذا الاختلاف، وسيجزي كلاًّ منهم بما يستحق مِن لعنةٍ وعذاب.

مسائل الآيات.

الأولى :

نهى الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى{ :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ}، أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تُبيّن لكم. ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه، فلعلّه أن يُحرّم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح)) :أعظمُ المسلمين جُرماً: مَن سأل عن شيء لم يُحَرَّمْ، فحُرِّم مِن أجْل مسألته .((

ولما سُئل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلّم تكلّم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك، فكره رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المسائل وعابها. ثم أنزل الله تعالى حُكم الملاعنة. ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث المغيرة بن شعبة)) :أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان ينْهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال .((

وفي صحيح مسلم)) :ذروني ما تركتُكم! فإنما هلك من كان قبلَكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتُكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه .((!

وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أنّ الله كتب الحجّ، فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ثلاثاً–. ثم قال –عليه السلام)) :–لا. ولو قلت : نعم، لوجبت، ولو وجبتْ لما استطعتم .((ثم قال)) :ذروني ما تركتُكم ((...!الحديث .

وهكذا قال أنس بن مالك: نُهينا أن نسأل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن شيء، فكان يُعجبنا أن يأتي الرجل من (أهل) البادية فيسأله، ونحن نسمع .

وعن البراء بن عازب قال: إنْ كان ليأتي عليّ السّنة أريد أن أسأل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن شيء، فأتهيّب منه. وإنْ كنّا لنتمنّى الأعراب .

وعن ابن عباس قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد– صلى الله عليه وسلم–؛ ما سألوه إلاّ عن ثِنتيْ عشرة مسألة، كلها في القرآن{ :يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ}، {يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ}،{ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى}، يعني: هذا وأشباهه .

الثانية:

قوله تعالى{ :حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ }المراد به: الأمر بالقتال بقوله سبحانه{ :قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ }إلى{ :وَهُمْ صَاغِرُونَ}، أو الأمر بقتل قريظة وإجلاء بني النضير، وتقدّم في: "الآثار": أنّ الآية منسوخة بآية السيف. وقال الآلوسي: واستُشكل ذلك بأن النسخ لكونه بياناً لمدة الانتهاء بالنسبة إلى الشارع، ودفعاً للتأبيد الظاهري من الإطلاق بالنسبة إلينا، يقتضي أن يكون الحُكم المنسوخ خالياً عن التوقيت والتأبيد؛ فإنه لو كان مؤقتاً كان الناسخ بياناً له بالنسبة إلينا أيضاً، ولو كان مؤبّداً كان بدءاً لاَ بياناً بالنسبة إلى الشارع. والأمر ها هنا مؤقّت بالغاية؛ وكونها غير معلومة يقتضي أن تكون آية القتال بياناً لإجماله.

قلت: هذه مشاحّة في الاصطلاح، والسلف أطلقوا على مثل ذلك نسخاً، وهم أعرف بمدلولات اللغة؛ فالصواب: أنّ الحكم المغَيَّا بغاية يدخل تحت المنسوخ، لأنه قد رُفع بحكم آخر، وهذا هو مفهوم النسخ بغضّ النظر عن كوننا أعلمنا ابتداء بانتهائه في وقت من الأوقات، أم لم نعلم فالنتيجة واحدة وهي: رفْع الحكم –والله أعلم.–

الثالثة :

دل قوله تعالى{ :بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ }على أنّ للعمل المتقبّل شرطيْن: أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُتقبّل؛ ولهذا قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–مَن عمِل عملاً ليس عليه أمرُنا، فهو ردّ .((رواه مسلم من حديث عائشة، عنه– عليه السلام .–

فعمل الرهبان ومَن شابههم، وإن فُرِض أنهم مخلصون فيه لله، فإنه لا يُتقبّل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول محمد –صلى الله عليه وسلم– المبعوث إليهم وإلى الناس كافة. وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى{ :وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً}، وقال تعالى : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً}،]وقال تعالى{ :وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ .}

روي عن أمير المؤمنين عمر –رضي الله عنه–: أنه تأوّلها في الرهبان .

وأمّا إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يُخلص عاملُه القصْد لله تعالى، فهو أيضاً مردود على فاعله؛ وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال تعالى{ :إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}، وقال تعالى{ :فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}؛ ولهذا قال تعالى{ :فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}، وقال في هذه الآية الكريمة{ :بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ.}

الرابعة :

قوله تعالى{ :قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، احتج به جماعة من أهل العلم على تحريم التقليد، حيث أفهم التعليق: أنه لا بدّ مِن البرهان للصّادق ليُثبت دعواه، لأن كلّ قول لا دليل عليه غير ثابت عند الخصم، فلا يعتدّ به؛ ولذا قيل: مَن ادّعى شيئاً بلا شاهد، لا بدّ أن تبطل دعواه. وتعقب ذلك الآلوسي بما لا يشفي، وبحْث المسألة في كتب أصول الفقه .

الأسئلة :

١. قرئ في المتواتر (أم يريدون أن يسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) على أن الضمير لليهود لا للمسلمين (خطأ) .

٢. في الآيات توجيه للمؤمنين بأن لا يتشبهوا باليهود في سؤال رسولهم تعنتاً وإنما عليهم أن يسلموا لما جاء به ويصدقوه (صح) .

٣. الحسد : تمني زوال النعمة عن الغير ، سواء تمنى أن تكون له أم لا ، وسواء سعى في إزالتها أم لا (صح) .

٤. الصفح : ترك التأنيب ، وهو أقل من العفو لأنه قد يترك التأنيب ولا يعفو وأما العفو فلا بد فيه من الصفح (خطأ) .

٥. الصفح : ترك التأنيب ، وهو أبلغ من العفو إذ قد يعفو الإنسان ولا يصفح (صح) .

٦. هاتوا : الهاء بدل من همزة (آتوا) الذي هو أصل الفعل (خطأ) .

٧. هاتوا : فعل أمر ، والهاء أصلية ، والمعنى : أحضروا (صح) .

٨. البرهان : الدليل على صدق الدعوى (صح) .

٩. كان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون الرسول ﷺ والمسلمين عند قدومهم المدينة أشد الأذى فأمر الله بالصفح عنهم والصبر على أذاهم ، حتى نزل الأمر بقتالهم (صح) .

١٠. في الآيات دليل على أن تكذيب اليهود للنبي ﷺ كان بسبب الحسد وأنهم كانوا يعلمون صدقه تمام العلم (صح) .

١١. الأمر بالعفو والصفح في الآية مقيد بحتى يأتي أمر الله ، وقد أتى أمر بسورة براءة بالأمر بقتالهم (صح) .

١٢. ذهب جماعة من العلماء إلى أن الأمر بالعفو والصفح منسوخ بالأمر بالقتال (صح) .

١٣. عن مجاهد : إن أوائل اليهود كانوا على شيء ولكنهم بدلوا وغيروا (صح)

١٤. كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، هم العرب الذين كذبوا محمداً ﷺ (صح) .

١٥. (أم) في قوله تعالى : [أم تريدون أن تسألوا رسولكم] هي أم التقريرية لبيان أن هذا قد وقع منهم (خطأ) .

١٦. (أم) في قوله تعالى : [أم تريدون أن تسألوا رسولكم] للاستفهام الإنكاري ، وفيها ذم من سأل النبي ﷺ عن شيء على وجه التعنت (صح) .

١٧. الآيات فيها الأمر بعدم الاشتغال والتفكير بعداوة الكفار وكيدهم ، والأمر بالاشتغال بما ينفع من الصلاة والزكاة والأعمال الصالحة التي تبقى للعامل يوم القيامة (صح) .

١٨. تعقيب الآية باسمي (السميع والبصير) فيه وعد ووعيد ، وزجر وتهديد ، كما هو واضح (صح) .

١٩. في الآيات الرد على اليهود والنصارى في اغترارهم وظنهم أنهم أصحاب الجنة فقط ، وأن هذا مجرد أمنيات لا واقع لها ولا حجة ولا دليل (صح) .

٢٠. قوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) فيه دليل على ما بين الفريقين من تآلف وتوافق على الباطل وأن كل واحدة تظن أن الثانية منها (خطأ) .

٢١. قوله تعالى (وهو محسن) أي : متبع للرسول ﷺ (صح) .

٢٢. الخوف يكون مما يستقبل والحزن يكون على مضى ، وقد ضمن الله لأهل الإيمان في الجنة النجاة من الأمرين (صح) .

٢٣ . دخول ضمير الفصل (هم) في قوله تعالى : [ولا هم يحزنون] فيه تأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ (صح) .

٢٤. شبه الله اليهود والنصارى بالذين لا يعلمون من المشركين وعبدة الأصنام وفي ذلك ذم عظيم لهم لأن قول الباطل من العالم أقبح منه من الجاهل (صح) .

٢٥. يؤخذ من الآيات النهي عن كثرة النبي ﷺ عن الأشياء التي لم تقع (صح)

٢٦. ثبت أن النبي ﷺ ذم السؤال عن الأمر التي لم تقع وعابها ، ونهى عن كثرة السؤال ، وأخبر أن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء فحرم من أجل مسألته (صح) .

٢٧. كان الصحابة رضي الله عنهم يتهيبون سؤال النبي ﷺ وكانوا يحبون أن يأتي الرجل من البادية يسأله عن الشيء (صح) .

٢٨. ورد في القرآن ذكر سؤال الصحابة للنبي ﷺ عن أمور كثيرة كالأهلة والخمر والميسر والمحيض وغير ذلك ، وهذا يدل على أن سؤال ليس مذموماً ، وإنما السؤال المذموم هو ما فيه تعنت كسؤال اليهود والنصارى (خطأ) .

٢٩. الآيات فيها دليل على أن العمل لا يقبل عند الله إلا بشرطين : الإخلاص واتباع السنة (صح) .

٣٠. استدل بعض العلماء بقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم) على حرمة التقليد ، وليس في الآية دليل على شيء من هذا كما بين الألوسي رحمه الله (خطأ) .

المحاضرة التاسعة والأربعون

***

تفسير الآيتيْن (١١٤) و(١١٥) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.}

القراءات:

لا يوجد في الآيات أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

قال البقاعي: لما اشتركت جميع هذه الفِرق في الظُّلم، وزاد الجَهلة منْع حِزب الله من عِمارة المسجد الحرام بما يُرضيه من القول والفِعل، فازدادوا بذلك ظُلماً آخر، وكان مَن منع مسجداً واحداً لكوْنه مسجداً مانعاً لجميع المساجد، قال{ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ }... الآية.

ولما أفهمت الآية، أنه حصل لأولياء الله منْع من عِمارة بيت الله بذِكْره، وكان الله قد مَنَّ على هذه الأمّة بأن جعل الأرض كلّها لها مسجداً، سَلَّى المؤمنين بأنهم أينما صلَّوْا بقَصْد عبادته لقِيَهم ثَوابه.

لغويّات.

{مَسَاجِدَ :}جمْع مسْجد، وهو "مَفْعِل": لِموضِع السجود، وهو أخفض مَحطّ القائم.

{سَعَى :}السّعي، هو الإسراع في الأمْر حِساً ومعنىً.

{خَرَابِهَا :}الخَراب :ذهاب العِمارة، والعِمارة: إحياء المكان وإشغاله بما وُضع له.

{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ }أي: الناحِيتان المِعلومتان المجاورتان لنقطة تطلُع منها الشمس وتغرُب .وكَنّى بمالِكيّتهما عن مالِكيّة كلّ الأرض. وقال بعضهم: إذا كانت الأرض كُرويّة يكون كلّ مَشرق بالنسبة مَغرباً بالنسبة، والأرض كلّها كذلك، فلا حاجة إلى التزام الكِناية.

{فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا }أي: تَستقبلوا، فإنّ "ولَّى" هنا فِعل لازم، بمعنى: تولّى واستقبل .وقُرئ : {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا }و{هُوَ مُوَلَّاهَا}، وهذا كما يُقال: وجَّه وتَوجَّه، وقدَّم وتَقدَّم.

و" ثَمَّ "أسم إشارة للمكان البعيد خاصّة، مبنيّ على الفَتح، ولا يُتصرَّف فيه بغير "مِنْ"، وقد وَهِم مَن أعربه" مَفعولاً به" في قوله تعالى{ :وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً.}

والوجه :الجِهة، كالوَزْن والزِّنة، واختصاص الإضافة باعتبار كونها مأموراً بها، وفيها رِضاه سبحانه، وإلى هذا ذهب الحسن، ومقاتل، ومجاهد، وقَتادة. وقيل: الوجْه بمعنى: الذات، مثْله في قوله تعالى{ :كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}، إلاّ أنه جُعِل هنا كِناية عن عِلمه واطّلاعه بما يُفعل هناك. وقال أبو منصور :بمعنى الجَاه، ويؤول إلى الجَلال والعَظمة.

فقوله{ :فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ }أي: فثَمَّ جِهته التي يُصلَّى إليها... يُوضّح ذلك: أنّ المِصلِّي مَقصوده التَّوجّه إلى ربّه تعالى، فكان من المِناسب أن يُبيَّن له أنه إلى أيّ الجِهات صلّى فإنه مُتوجِّه إلى ربّه سبحانه.

الآثار.

روى ابن إسحق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: أنّ قريشاً منعوا النبي –صلى الله عليه وسلم– الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله{ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ.}

وعن ابن زيد، في قوله{ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}، قال)) :هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يوم الحُديبية، وبيْن أن يَدخل مكة، حتى نحر هدْيه بذي طُوى وهادَنهم، وقال لهم: ما كان أحد

يَصدُّ عن هذا البيت. وقد كان الرجل يَلقى قاتِل أبيه وأخيه فلا يَصدُّه. فقالوا: لا يَدخُل علينا مَن قَتل آباءَنا يوم بدْر وفينا باق .((وفي قوله{ :وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}، قال: إذْ قَطعوا من يَعْمرها بذِكره، ويأتيها للحج والعُمرة.

وأخرج ابن أبي شَيبة، عن أبي صالح، قال: ليس للمشركين أن يَدخلوا المسجد إلاّ وهُم خائفون
.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن قتادة، في قوله{ :لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ}، قال: يُعطون الجِزية عن يَدٍ وهُم صاغِرون.

وأخرج أحمد، والبخاري في "تاريخه"، عن بُسر بن أرطاة، قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يَدعو)) :اللهم أحسِنْ عاقِبتَنا في الأمور كلِّها، وأجِرْنا من خِزي الدنيا ومن عَذاب الآخرة.((

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}، قال: "هم النصارى."

وعن مجاهد" :هم النصارى، كانوا يَطرحون في بيت المقِدس الأذى، ويَمنعون الناس أن يُصلّوا فيه."

وعن قَتادة، في قوله{ :وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}، قال: "هو بُخْتنصَّر وأصحابه، خَرَّب بيت المقِدس، وأعانه على ذلك النصارى."

وقال السدي :هم الروم، كانوا ظاهروا بُخْتنصَّر على خَراب بيت المقِدس حتى خَرَّبه، وأمر به أن تُطرح فيه الجِيف. وإنّما أعانه الروم على خَرابه مِن أجْل أنّ بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا .وروي نحوه عن الحسن البصري.

وعن قتادة قال: أولئك أعداء الله النصارى، حمَلهم بُغض اليهود على أن أعانوا بُخْتنصَّر البابلي المجِوسي على تَخريب بيت المقِدس.

وعن كعب الأحبار، قال: إنّ النصارى لما ظَهروا على بيت المقِدس خرَّبوه. فلما بعث الله محمداً –صلى الله عليه وسلم –أنزل عليه{ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ }...الآية، فليس في الأرض نَصراني يَدخل بيت المقِدس إلاّ خائفاً.

وقال قتادة :لا يدخلون المساجد إلاّ مسارقة.

وقال السدي :فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلاّ وهو خائِف أن تُضرب عُنقه، وقد أخيف بأداء الجزية، فهو يؤدِّيها. وفي قوله{ :لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ}، قال: أمّا خِزيُهم في الدنيا فإنه إذا قام المهديّ وفُتحت القُسطنطينية، قَتلهم؛ فذلك الخِزي.

وكذا عن عِكرمة، ووائل بن داود: الخِزي في الدنيا بخُروج المهدي.

وقال قتادة :أداء الجِزية عَن يدٍ وهُم صاغِرون.

قوله تعالى{ :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ }...الآية.

روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب "الناسخ والمنسوخ"، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه، والبيهقي في "سننه"، عن ابن عباس، قال: أوّل ما نُسِخ من القرآن –فيما ذُكر لنا والله أعلم– شَأن القِبلة: قال الله تعالى{ :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، فاستقبل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فصلّى نحو بيت المَقدس، وتَرك البيت العَتيق. ثم صَرفه الله إلى البيت العَتيق، فقال{ :وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.}

وروي عن أبي العالية، والحسن، وعطاء الخراساني، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وزيد بن أسلم، نحو ذلك.

وأخرج ابن جرير، والبيهقي، والنحّاس في "الناسخ والمنسوخ"، عن ابن عباس، قال: كان أوّل ما نُسخ من القرآن: القِبلة، وذلك)) أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لما هاجر إلى المدينة– وكان أهلها اليهود– أمَره الله أن يَستقبل بيت المَقدس، ففَرحت اليهود. فاستقبلها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بضعة عشر شهراً. وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يُحبّ قِبلة إبراهيم، فكان يَدعو ويَنظر إلى السماء، فأنزل الله{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ }إلى قوله{ :فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .}فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا : {مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا}، فأنزل الله{ :قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}، وقال : {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.((}

وأخرج ابن المنذر، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة، في قوله{ :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، قال)) :كان الناس يُصلّون قِبَل بيت المَقدس، فلمّا قَدِم النبي –

صلى الله عليه وسلم- المدينة على رأس ثمانية عشر شهراً من مُهاجَره، وكان إذا صلى رَفع رأسه إلى السماء يَنظر ما يُؤمَر به، فنسختها قِبَل الكَعبة.((

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والنحَّاس في "ناسخه"، والطبراني، والبيهقي في" سننه"، وابن أبي حاتم، وابن مَردويه، عن ابن عمر: أنه كان يُصلي حيث تَوجهت به راحلته. ويَذكر)) أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كان يَفعل ذلك((، ويتأوّل هذه الآية{ :فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.}

وفي لفظ)) :كان النبي –صلى الله عليه وسلم- يُصلّي على راحلته تَطوّعاً أينما توجهت به((، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية{ :فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .}وقال ابن عمر: في هذا نزلت هذه الآية.

وأصله في" الصحيحين" من حديث ابن عمر، وعامر بن ربيعة من غير ذكْر الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والحاكم وصحّحه، عن ابن عمر، قال: أُنزلت : {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ :}أن تُصلّي حَيثما تَوجّهتْ بك راحِلتك في التَّطوع.

وأخرج البخاري وغيره، عن ابن عمر: أنّه كان إذا سُئل عن صلاة الخَوف وصَفَها، ثم قال: فإن كان خَوف أشدُّ من ذلك، صلَّوا رِجالاً قِياماً على أقدامهم، ورُكباناً مُستقبلي القِبلة وغَير مُستقبليها. قال نافع: ولا أرى ابن عمر ذَكَر ذلك إلاّ عن النبي –صلى الله عليه وسلم.-

وأخرج البخاري، والبيهقي، عن جابر بن عبد الله، قال)) :رأيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في غَزوة أنمار يُصلّي على راحِلته مُتوجّهاً قِبَل المشرق تَطوّعاً.((

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، والبيهقي، عن جابر بن عبد الله)) :أنّ النبيّ –صلى الله عليه وسلم- كان يصلّي على راحلته قِبَل المِشرق. فإذا أراد أن يُصلّي المكتوبة، نَزل واستقبل القِبلة وصلّى.((

وأخرج ابن أبي شَيبة، وأبو داود، والبَيهقي، عن أنس)) :أنّ النبيّ –صلى الله عليه وسلم- كان إذا سافر وأراد أن يَتطوّع بالصلاة، استقبل بناقته القِبلة وكبَّر، ثم صلّى حَيث تَوجّهت الناقة .((

وأخرج أبو داود، والطيالسي، وعبد بن حُميد، والترمذي –قال السيوطي: وضعَّفه- وابن ماجة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والعقيلي وضعّفه، والدارقطني، وأبو نعيم في" الحِلية"،

والبيهقي في "سُننه"، عن عامر بن ربيعة، قال)) :كنَّا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في ليلة سَوداء مُظلمة، فنزلنا مَنزلاً، فجعل الرّجل يأخذ الأحجار، فيَعمل مَسجداً يُصلِّي فيه. فلمّا أن أصبحنا، إذا نَحن قد صلّينا على غير القِبلة، فقلنا: يا رسول الله! لقد صلَّينا ليلتنا هذه لغَيْر القِبلة، فأنزل الله تعالى{ :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .}فقال: مَضتْ صلاتُكم.((

وفي إسناده :أبو الربيع السمَّان، واسمه: أشعث بن سعيد البصري، قال ابن كثير: وهو ضَعيف الحديث.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ليس إسناده بذاك، ولا نَعْرفه إلاّ من حديث الأشعث السمَّان، وأشعث يُضعَّف في الحديث.

قال ابن كثير: وشيخه عاصم أيضاً ضَعيف. قال البخاري: مُنكَر الحديث. وقال ابن مَعين: ضَعيف لا يُحتجّ به. وقال ابن حِبان: مَتروك –والله أعلم.–

وأخرج الدارقطني، وابن مردويه، والبيهقي، عن جابر، قال: بعث رسول الله –صلى الله عليه و سلم– سَريّة كُنت فيها، فأصابتْنا ظُلمة فلَم نَعْرف القِبلة. فقالت طائفة منّا: قد عَرفنا القِبلة، هي ههنا قِبَل الشمال. فصلَّوْا، وخَطُّوا خُطوطاً. فلمّا أصبحوا وطَلَعت الشمس، أصبحت تلك الخُطوط لغَير القِبلة. فلما قَفلْنا من سَفرنا، سألْنا النبي –صلى الله عليه وسلم– فسكَت، وأنزل الله تعالى{ :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.}

وفي رواية)) :فلمْ يَأمرْنا بالإعادة، وقال: قد أجزأتْ صَلاتكم.((

قال الدارقطني: كذا قال: عن محمد بن سالم، وقال غيره: عن محمد بن عبيد الله العزرمي، – أي: في هذا الإسناد– عن عطاء، وهما ضعيفان.

وأخرج ابن مردويه من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعث سريّة، فأخذتهم ضبابة، فلم يَهتدوا إلى القِبلة، فصلَّوا لغَير القِبلة. ثم استبان لهم بعد ما طلعت الشمس أنهم صلّوْا لغِير القِبلة .فلما جاؤوا إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حدَّثوه، فأنزل الله –عز وجل– هذه الآية{ :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.}

قال السيوطي: سنده ضَعيف.

قال ابن كثير: وهذه الأسانيد فيها ضَعف، ولعلّه يَشدّ بعْضها بعْضاً.

وعن عطاء :أنّ قَوماً عَمِيت عليهم القِبلة، فصلّى كل إنسان منهم إلى ناحية، ثم أتَوْا رسول الله –صلى الله عليه وسلم –فذكروا ذلك له، فأنزل الله{ :فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.}

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :إنّ أخاً لكم قد مات، فصلُّوا عليه .((قالوا: نصلّي على رجل ليس بمُسلم؟ قال: فنزلت{ :وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ .}قال قتادة :فقالوا: فإنه كان لا يُصلّي إلى القِبلة، فأنزل الله{ :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، –وهذا الأثر في وفاة النجاشي.–

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد، قال: لما نزلت{ :ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، قالوا: إلى أين؟ فنزلت{ :فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.}

هذه الآثار كلّها في سبب نزول الآية، والصحيح هو أوّل الآثار المرويّ عن ابن عباس، فهو صريح في نزولها، وإسناده صحيح. أمّا غيره فليس صريحاً في سبب النزول، أو إسناده فيه ضعف.

وعن ابن عباس{ :فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، قال: قِبلة الله، أينما توجّهت شَرقاً أو غَرباً .

وقال مجاهد{ :فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ :}حيثما كُنتم فلكم قِبلة تَستقبلونها: الكَعبة.

وعنه قال{ :فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، قال: قِبلة الله، فأينما كُنتم في شَرق أو غَرب فاستقبِلوها.

وعن قتادة، في هذه الآية، قال: هي مَنسوخة، نَسَخها قوله تعالى{ :فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }أي: تلقاءه.

وأخرج ابن أبي شَيبة، والتِّرمذي، وابن ماجة، عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :ما بيْن المَشرق والمغرب قِبلة.((

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن مردويه وغيره، من طريق أبي مَعشر، بلفظ)) :ما بيْن المَشرق والمغرب قِبلة لأهل المدينة، وأهل الشّام، وأهل العراق.((

وقال الترمذي: وقد روي من غير وجْه عن أبي هريرة. وتَكلَّم بعض أهل العِلم في أبي مَعشر من قِبَل حِفظه .

وروى ابن مردويه، عن ابن عمر، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال)) :ما بيْن المِشرق والمِغرب قِبلة.((

ورواه الدارقطني، والبيهقي، وقال: المِشهور عن ابن عمر، عن عمر قوله.

وأخرج ابن أبي شيبة، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عمر مثله.

قال الترمذي: وقد روي عن غير واحد من الصحابة)) :ما بيْن المشرق والمغرب قِبلة((، منهم عمر بن الخطاب، وعلي، وابن عباس.

وعن عمر قال" :ما بيْن المشرق والمغرب قِبلة، إذا توجّهت قِبَل البيت."

وقال ابن عمر: "إذا جعلت المغرب عن يمينك، والمشرق عن يسارك، فما بينهما قِبلة، إذا استقبلْت القِبلة."

أقوال المفسِّرين.

قال ابن كثير: اختلف المفسّرون في المراد مِن "الذين منعوا مساجد الله وسعَوْا في خَرابها" على قولين :فذكر بعض الآثار المتقدّمة، ثم قال:

اختار ابن جرير القول الأوّل :واحتجّ بأن قُريشاً لم تَسْعَ في خَراب الكعبة، وأمّا الروم فسعَوْا في تَخريب بيت المقدس.

قال: والذي يظهر -والله أعلم :-القول الثاني، كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس، لأن النصارى إذ مَنعت اليهود الصلاة في البيت المقدَّس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذِكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك، لأنهم لُعِنوا من قَبل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عَصوا وكانوا يَعْتدون.

وأيضاً، فإنه تعالى لما وجّه الذّم في حقّ اليهود والنصارى، شَرع في ذَمّ المشركين الذين أخرجوا الرسول -صلى الله عليه وسلم -وأصحابه من مكة، ومَنعوهم من الصلاة في المسجد الحَرام.

وأمّا اعتماده على أنّ قُريشاً لمْ تسعَ في خَراب الكعبة، فأيذ خَراب أعظم ممّا فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامِهم وأندادهم

وشركهم، كما قال تعالى{ :وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}، وقال تعالى{ :مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، وقال تعالى{ :هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً }

فقال تعالى{ :إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ .}فإذا كان من هو كذلك مَطروداً منها مَصدوداً عنها، فأيّ خَراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عِمارتها زَخرفتها، وإقامة صورتها فقط، إنما عِمارتها بذِكر الله فيها، وإقامة شَرعه فيها، ورفعها عن الدَّنس والشِّرك.

وقوله تعالى{ :أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ :}هذا خبَر معناه الطَّلب، أي: لا تُمكِّنوا هؤلاء -إذا قَدرتم عَليهم- مِن دخولها إلاّ تحت الهُدنة والجِزية. ولهذا لما فَتح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مَكة أمّر من العام القَابل في سنة تِسع أن يُنادَى برحاب مِنىً)) :ألاَ لاَ يَحُجَّنّ بعد العام مُشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عُريان. ومن كان له أجَل فأجلُه إلى مُدّته .((

وهذا كان تَصديقاً وعَملاً بقوله تعالى{ :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا }...الآية. وقال بعضهم: ما كان يَنبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلاّ خائفين على حال التَّهيّب، وارتعاد الفَرائص من المؤمنين أن يَبطشوا بهم، فضلاً عن أن يستولوا عليها ويَمنعوا المؤمنين منها. والمعنى ما كان الحق والواجب إلاّ ذلك لولا ظُلم الكَفرة وغيرهم.

وقيل: إنّ هذا بِشارة من الله للمسلمين أنه سيُظهرهم على المسجد الحرام، وعلى سائر المساجد، وأنه يُذلّ المشركين لهم حتى لا يَدخل المسجد الحرام أحَد منهم إلاّ خائفاً، يخاف أن يُؤخذ فيُعاقب أو يُقتل إن لم يُسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد، كما تقدّم من مَنْع المشركين من دخول الحَرم، و))أوصى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن لا يَبقى بجَزيرة العرب

دينان، وأن يُجلى اليهود والنصارى منها((، ولله الحمد والمِنَّة. وما ذاك إلاّ لتشريف أكناف المسجد الحرام، وتَطهير البُقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بَشيراً ونَذيراً، - صلوات الله وسلامه عليه .-وهذا هو الخِزي لهم في الدنيا، لأن الجَزاء من جِنس العَمل. فكما صَدّوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدّوا عنه. وكما أجلَوْهم من مكة، أُجلُوا عنها.

{وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }على ما انتهكوا من حُرمة البيت، وامتهنوه من نَصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عِنده، والطواف به عُرياً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يَكرهها الله ورسوله .

وأمّا من فسّر بـ"بيت المقِدس"، قال ابن كثير: وهذا لا يُنفى أن يكون داخلاً في معنى عُموم الآية، فإنّ النصارى لما ظلموا بيت المقِدس بامتهان الصخرة التي كانت تُصلِّي إليها اليهود، عوقبوا شرعاً وقدَراً بالذِّلة فيه، إلاّ في أحيان من الدّهر امتُحن بهم بيت المقِدس. وكذلك اليهود لما عَصوا الله فيه أيضاً أعظم من عصيان النصارى، كانت عُقوبتهم أعظم -والله أعلم

قلت: سبب النزول جاء صريحاً عن ابن عباس، وهو المناسب لحال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأصحابه، والموافق للآية التالية، وهي ألصق بالمسلمين. وأمّا كون الآية جاءت في سياق آيات الذّم لأهل الكتاب، فلا يُرجّح ذلك نزولها في موضوع بيت المقِدس، إلاّ على سبيل اعتبار دخول ترتيب النظم في مسمّى سبب النزول، كما هو معروف في علوم القرآن، وباعتبار ذلك يكون ذكْر قصة بُختنصَّر في هذه الآية وجيهاً -والله أعلم.-

وبعد أن ذكَر ابن كثير ما جاء في الروايات في تفسير الخِزي، قال:

والصحيح: أنّ الخِزي في الدنيا أعمّ من ذلك كلِّه. ثم ذكر الحَديث الوارد في الاستعاذة من خِزي الدنيا وعذاب الآخرة، وهو ما رواه أحمد، عن بُسر بن أرطاة، قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يدعو)) :اللّهمّ أحْسنْ عاقبتَنا في الأمور كلِّها، وأجِرْنا من خِزيِ الدّنيا ومن عذاب الآخرة.((

قال: وهذا حديث حسن.

قوله تعالى{ :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.}...

قال ابن كثير: وهذا -والله أعلم- فيه تَسلية للرسول- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، الذين أُخرِجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومُصلاّهم. و))قد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُصلّي بمكة إلى بيت المِقدس، والكعبة بيْن يديْه، فلما قَدِم المدينة وُجِّه إلى بيت المِقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صَرفه الله إلى الكعبة بَعْد، ولهذا يقول تعالى{ :وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.((}

وقال ابن جرير: وقال آخَرون: بل أنزل الله هذه الآية قَبل أن يفرض التّوجّه إلى الكعبة، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، أنّ لهم التّوجّه بوجوههم للصلاة حيث شاؤوا مِن نواحي المِشرق والمِغرب، لأنهم لا يوجّهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلاّ كان -جلّ ثناؤه -في ذلك الوجْه وتلك الناحية.

قال ابن جرير: وقال آخَرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إذناً من الله أن يُصلِّي التَّطوع حيث توجّه من شرق أو غرب، في مَسيره في سفره، وفي حال المسايفة وشدة الخوف.

قال ابن جرير: وقال آخَرون: بل نزلت هذه الآية في قَوم عَمِيَت عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها، فصلّوْا على أنحاء مختلفة، فقال الله: لي المشارق والمغارب، فأين ولّيتُم وجوهَكم فهنالك وجهي، وهو قِبلتكم؛ فيُعلِمكم بذلك أنّ صلاتكم ماضية.

قال ابن جرير: وقال آخَرون: بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي...

قال ابن كثير: وهذا غريب -والله أعلم.-

قال ابن جرير: ويحتمل: فأينما تولّوا وجوهَكم في دعائكم لي، فهنالك وجهي، أستجيب لكم دعاءكم.

قال ابن جرير: ويعني بقوله{ :إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ :}يَسَع خَلْقَه كلّهم بالكِفاية والجُود والإفضال .

وأمّا قوله{ :عَلِيمٌ}، فإنه يعني: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا تعزب عن علْمه، بل هو بجميعها عليم.

والمعنى :أنكم إذا مُنعتم أن تُصلُّوا في المسجد الحرام أو في بيت المَقدس، فقد جُعلتْ لكم الأرض مَسجداً، فصلُّوا في أيّ مَوضع شِئتم مِن بِقاعها. وافْعَلِ التّوليَة فيها، فإن التّوْلية مُمكنة في كلّ مكان{ .إِنَّ اللَّهَ وَاسِع }الرحمة، يُريد التَّوسعة على عِباده والتَّيسير عَليهم{ .عَلِيمٌ }بما في أحكامه من الحِكم والفَوائد.

المعنى الإجمالي.

يذكر –سبحانه وتعالى–: أنه لا أحد بَلغ في الظّلم مَنزلة الذي يجتهد ويَحرص على المنِع من إعمار مساجد الله تعالى بما أمر به فيها، من الذِّكر، والصلاة، والدعاء، ممّا يُحيلُها خَراباً لا فائدة منها، كما فَعلت قُريش حين مَنعت النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه من بيت الله الحرام، وكما فَعل مَنْ قَبلهم من العُتاة والمجرمين، أمثال: بخْتنصَّر ومَن عاونه في تَخريب بيت المِقدس. وقد تَوعد الله تعالى مَن يَفعل ذلك بالذِّلة والمهانة في الدنيا، مِن خَوف ورَهبة إذا دخلوا هذه البيوت بعد تَمكين الله للمؤمنين، مع ضَرب الجِزية عليهم صاغرين أذلآّء، مع ما يَنتظرهم من العَذاب العظيم يوم القيامة على كُفْرهم وشِركهم بالله.
وطمْأن الله سبحانه عبادَه المؤمنين، بأنه له الأرض بما فيها مشارقها ومغاربها، لا يَعزب عنه شيء، فصِلَتهم به لا يحول بينهم وبينها مكان؛ ففي أيّ مكان صلّوْا إليه ورغبوا إليه ووجّهوا وجوههم إليه، فهو معهم، قريب منهم، كلّ جهة يتوجّهون إليها قِبلة إليه. فسواء صلّوْا إلى الكعبة أو إلى غيرها، فهو واسع يَسعُهم بخيره وفضله، عليم بكل ما يفعلونه ويتقرّبون به إليه، وما ينفعهم من الفوائد والحِكم التي في أحكامه –سبحانه وتعالى–.

مسائل الآيات.

المسألة الأولى:

قوله{ :وَمَنْ أَظْلَمُ{ :}مَنْ :}مُبتدأ، وخَبره{ :أَظْلَمُ}، وهو أفعل تَفضيل. ولا يُراد بالاستفهام حَقيقته، وإنما هو بمعنى النَّفي. فمعناه: لا أحدَ أظلم من ذلك. واستشكل بأن هذا التركيب قد تكرّر في القرآن، مثْل{ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}، {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً}،{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ}، إلى غير ذلك...

فإذا كان المعنى على هذا، لزِم التَّناقض، وأُجيب بالتَّخصيص، إمّا بما يُفهم مِن نَفس الصِّلات، أو بالنسبة إلى من جاء بعد من ذلك النوع.

وقال بعضهم: لا يدلّ على نفي التسوية في الأظلميّة، وقُصارى ما يُفهم من الآيات: أظلميّة أولئك المذكورين فيها ممّن عَداهم، كما أنك إذا قُلت" :لا أحدَ أفقه من زيد وعمرو وخالد"، لا يَدل على أكثر من نَفي أن يكون أحَد أفقهَ منهم، وإمّا أنه يَدلُّ على أنّ أحدَهم أفقه من الآخر فلا.

وقال غير واحد: إنّ قولك: "مَن أظلم ممّن فعَل كذا :"إنكار لأن يكون أحدُ أظلم منه، أو مُساوياً له، وإن لم يكن سبْك التركيب متعرّضاً لإنكار المساواة ونَفْيها.

وقال الآلوسي: إنْ جعلْت ذلك الكلام خَرَج مخرج المبالغة في التهديد والزّجْر، مع قَطع النظر عن نَفْي المساواة أو الزيادة في نَفس الأمر، زال الإشكال.

المسألة الثانية:

اختلف العلماء في دخول الكفّار المسجد، فجوّزه أبو حنيفة مُطلقاً للآية، فإنّها تُفيد دخولهم بخَشية وخُشوع، ولأن وفد ثَقيف قَدِموا عليه –عليه الصلاة والسلام– فأنزلهم المسجد، ولقوله –صلى الله تعالى عليه وسلم)) :–مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمِن، ومَن دخل الكَعبة فهو آمن ((والنهي محَمول على التَّنزيه، أو الدخول للحرم بقَصْد الحَج .ومَنَعه مالك مُطلقاً، لقوله

تعالى{ :إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}، والمساجد يجب تَطهيرها عن النَّجاسات، وجوَّزه لحاجة.
وفرَّق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره، وقال: الحديث مَنسوخ بالآية.
وتفصيل ذلك في محلّه.

المسألة الثالثة:

قال ابن جرير أثناء شرحه للآية :لأنّ له تعالى المشارق والمغارب، وأنه لا يَخلو منه مكان، كما قال تعالى{ :وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا.}
فتعقَّبه ابن كثير بقوله: هكذا قال، وفي قوله: وأنه تعالى لا يخلو منه مكان: إن أراد عِلمَه تعالى فصحيح. فإنّ عِلْمه تعالى مُحيط بجميع المعلومات، وأمّا ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خَلْقه- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.-
قلت: لا شكّ أن ابن جرير ما أراد إلاّ ما بيَّنه ابن كَثير. وقد تعقَّب الشيخ أحمد شاكر الحافظ في ذلك، وقال: الذي قاله ابن كثير هو عَقيدة أبي جعفر -رحمه الله-، وقد بيَّن ذلك في تفسير سورة (المجادلة(، فلا مَعنى لتشكيك ابن كثير في كلام إمامٍ ضابطٍ من أئمة أهل الحق... إلى آخر كلامه -رحمه الله، ورحم الله الجَميع .-
وقد عُلم بالفِطرة والشرعِ أنّ الرب فوق خَلْقه، ومُحيط به، ودلّ ذلك على أنّ مَن استقبل شيئاً من المشرق أو المغرب فإنه متوجّه إلى ربه، والله قِبَل وجهه، أي: إلى أي جِهة صلَّى، لأنه فَوق ذلك كلّه، ومحيط بذلك كلّه- والله سبحانه أعلم-. والمسألة مبسوطة في كتب العَقيدة.

المسألة الرابعة:

بالنسبة للتَّطوع على الرَّاحلة: لم يُفرّق الشافعي في المشهور عنه، بين سَفر المسافة وسَفر العَدويّ -أي: البعيد-، فالجَميع عنده يَجوز التَّطوع فيه على الرَّاحلة. وهو قول أبي حنيفة، خِلافاً لمالك وجماعة .واختار أبو يوسف، وأبو سعيد الإصطخري، التَّطوع على الدَّابة في المِصر. وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-. واختاره أبو جعفر الطبري حتى للماشي أيضاً.

المسألة الخامسة:

بالنسبة لإعادة الصلاة لمن تَبيَّن خَطؤه فيها قولان للعلماء، وقد بيَّن ابن كثير أنه ما تقدّم مِن روايات في الآثار يُدلّل على عَدم القَضاء -والله أعلم.-

المسألة السادسة:

بالنسبة للنجاشي، قيل: إنه كان يُصلِّي إلى بيت المقدس، قَبل أن يَبلغه الناسِخ إلى الكعبة.

وذكَر القرطبي: أنه -عليه السلام- لما مات النجاشي صلَّى عليه، فأخذ بذلك مَن ذهب إلى الصلاة على الغائب .قال: وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه:

أحدها :أنه -عليه السلام- شاهده حين صلَّى عليه؛ طُويت له الأرض.

الثاني :أنه لما لم يَكن عنده مَن يُصلّي عليه، صلّى عليه. واختاره ابن العربي. قال القرطبي: ويَبْعُد أن يكون مَلِكٌ مُسلم ليس عنده أحدٌ من قومه على دِينه. وقد أجاب ابن العربي عن هذا: لعلّهم لم تَكن عِندهم شَرعيّة الصلاة على الميّت؛ وهذا جواب جيد.

الثالث :أنه -عليه السلام- إنّما صلّى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقيّة الملوك -والله أعلم.-

الأسئلة :

١. لما منع الظالمون أولياء الله من عمارة بيت الله بذكره ، سلى الله المؤمنين بأنهم حيث ولوا وجوهم وأينما صلوا (صح) .

٢. المساجد : جمع مسجد ، وهو مفعل من السجود ، والسجود أخفض محط القائم (صح)

٣. السعي هو الإسراع في الأمر حساً أو معنى (صح) .

٤. خرابها : ذهاب عمارتها بهدمها وتكسيرها (خطأ) .

٥. تولوا : فعل متعدٍ ، بمعنى : فأينما سرتم في الأرض وصليتم فالثواب واصل إليكم (خطأ)

٦. ثَمَّ : اسم إشارة للمكان البعيد خاصة ، مبني على الفتح ولا يتصرف (صح)

٧. المقصود بالوجه هنا : الجهة ، أي : الجهة التي أمر الله باستقبالها وفيها رضاه سبحانه (صح) .

٨. سبب نزول الآيات منع المشركين النبي ﷺ ومن معه من دخول مكة يوم الحديبية كما قال ابن زيد (صح) .

٩. ورد عن ابن عباس أن الآية نزلت في النصارى الذين منعوا الناس من الصلاة في بيت المقدس (صح) .

١٠. ورد عن بعض المفسرين أن من سعى في خرابها هو بختنصر الذي خرب بيت المقدس (صح) .

١١. ذهب الكثير من العلماء إلى أن المقصود بالآية النصارى والروم الذين أعانوا على تخريب بيت المقدس فهم لا يدخلون المسجد إلا خائفين (صح) .

١٢. الخزي الذي لهم في الدنيا هو بذلهم وضرب الجزية عليهم (صح) .

١٣. ذهب بعض المفسرين إلى أن الخزي في الدنيا هو عند خروج المهدي وذل هؤلاء (صح)

١٤. هذه الآية هي أول الآيات نسخاً في القرآن (صح) .

١٥. ثبت أن الله حول القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام بعد هجرة النبي ﷺ فارتاب اليهود وتكلموا في ذلك فأنزل الله هذه الآيات (صح) .

١٦. ذهب ابن عمر إلى أن الآية في الذي يصلي النافلة على راحلته أينما سارت به (صح)

١٧. ثبتت الآثار أن النبي ﷺ كان يصلي النافلة على راحلته حيث توجهت به وإذا أراد الفريضة نزل واستقبل القبلة وصلى (صح) .

١٨. ذهب بعض العلم بأن الآية خاصة في الصلاة عند اشتداد الخوف وأن المصلي يصلي حيث كان ولا يشترط له استقبال القبلة (خطأ) .

١٩. وردت جملة من الآثار أن المسلمين صلوا يوماً إلى غير القبلة بسبب ظلمة فلما تبين لهم ذلك نزلت الآية ولم يؤمروا بإعادة الصلاة ، وآثارها ضعيفة وقال ابن كثير : لعله يشد بعضها بعضاً (صح) .

٢٠. ما ورد في الأثر أنه : (ما بين المشرق والمغرب قبلة) غير صحيح حيث أن كثيراً من البلاد ليس القبلة فيها بين المشرق والمغرب (خطأ) .

٢١. ذكر المفسرون في الذين سعوا في خرابها قولين : أنهم المشركون من قريش منعوا النبي ﷺ من دخول المسجد الحرام ، وأنهم النصارى سعوا في خراب بيت المقدس ، ورجح ابن جرير الثاني وابن كثير الأول وهذا هو الأصح (صح) .

٢٢. قوله (ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) خبر يتضمن الأمر والطلب بأن لا يمكن المشركون من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية (صح) .

٢٣. ختم الآية باسمي السمع والعلم مناسب جداً ، ففيه التنبيه على سعة رحمة الله بعباده وتيسيره عليهم ، وأنه عليم بهم وبما في قلوبهم وبما في أحكامه من الحكم والفوائد (صح) .

٢٤. في الآية بيان خطورة منع الناس من إقامة ذكر الله في المساجد وأن هذا خراب لها كما لو هدمت وأن من يفعل ذلك فله الخزي الشامل في هذه الدنيا والعذاب يوم لقاء الله تعالى (صح) .

٢٥. الاستفهام في قوله (ومن أظلم) ليس على ظاهره ، بل المراد أنه لا أحد أظلم ممن فعل هذا .

٢٦. اختلف العلماء في جواز دخول المشرك المسجد فجوزه أبو حنيفة ومنعه مالك وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره (صح) .

٢٧. علم بالفطرة والشرعة أن الرب فوق خلقه ومحيط به ودل ذلك على أن من استقبل شيئا من المشرق أو المغرب فإنه متوجه إلى ربه والله قبل وجهه أي إلى أي جهة صلى لأنه فوق ذلك كله ومحيط بذلك كله والله سبحانه أعلم (صح) .

٢٨. فرق الإمام مالك بالنسبة للتطوع على الراحلة في السفر بين سفر القريب والبعيد ، ولم يفرق الشافعي في ذلك (صح) .

٢٩. اختلف العلماء فيمن تبين خطؤه في القبلة بعد انتهاء الصلاة هل عليه إعادة أم لا ؟ ورجح ابن كثير عدم القضاء (صح) .

٣٠. ذكر القرطبي هنا مسألة صلاة النبي ﷺ على النجاشي وما أخذ منها من مشروعية الصلاة على الميت ، وبين أن ذلك ليس عاماً في كل ميت وإنما هو خاص بأوجه من التخصيص منها أنه لم يكن عنده من يصلي عليه فصلى عليه النبي عليه الصلاة والسلام (صح) .

المحاضرة الخمسون

***

تفسير الآيات من (١١٦) إلى (١٢٣) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ.}

القراءات في الآيات:

{وَقَالُوا :}قَرأها ابن عامر بدون" واو" على الاستئناف، وهي هكذا في مَصاحف أهل الشام .وقَرأها الباقون بالواو على العَطف على الجُملة قَبْلها؛ وهذا من باب الوَصل والقَطع في لُغة العرب، وهو من ضُروب البلاغة، المشار إليها في علوم القرآن. وقد يكون الوصل أبلغ في أداء المعنى في موضع عند بعض العرب، وقد يكون القَطع أبلغ عند غَيرهم. وقد جَمعت القِراءتان الوَجهيْن.

{كُنْ فَيَكُونُ :}قرأها ابن عامر بنَصب النون –على إضمار "أنْ" بعد الفاء– حَمْلاً للَفظ الأمْر وهو{ كُنْ }على الأمْر الحَقيقي. وقَرأ الباقون برفع النون على الاستئناف.

{وَلاَ تُسْأَلُ :}قَرأها نافع ويعقوب: بفتْح التّاء، وجَزْم اللام بالبناء للفَاعل، على أنّ "لا" ناهِية، والنهي هنا المراد منه تَفخيم ما وقع لأهل الكُفر من العذاب، كقولك لِمَن قال لك: "كيف حال فلان؟" :"لا تسأل عنه"، أي: لا تسأل عمّا حَلّ به من عَذاب عَظيم غير محصور. وقيل في تَوجيهها غير ذلك –كما سيأتي في الآثار وأقوال المفسّرين–. وقَرأ الباقون: بضمّ التاء، ورفْع اللام بالبناء للمفعول، على أنّ "لا" نافية، والجُملة مُستأنفة بمعنى :أنك لا تُسألُ عن الكفّار ما لهم لم يؤمنوا لأن ذلك ليس إليك، إنْ عَليك إلاّ البَلاغ.

المناسبة:

لما أفادت الآية السابقة وصْفه تعالى بتمام القُدرة، واتّساع الملك والفَضل، وشمول العلْم، كان من المحال افتقاره إلى شيء مِن وَلد و غَيْره، فذمّ أهل الأديان الباطِلة كُلّهم لافترائهم في نِسبة الوَلد إليه: اليهود، والنصارى، ومشركي العَرب. وما زالت الآيات تَترى تتحدّث عن افتراءات أهل الكُفر، وتَسلية النبي –صلى الله عليه وسلم– في عَدم استجابتهم له. واختتم الكلام عن بني إسرائيل بما افتتح به مِن تَذكيرهم بنِعمته عليهم وتَخويفهم من يوم القيامة.

لغويّات.

قوله{ :بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ :}أي مُبْدِعها، وهو "مُفعِل"، فصُرف إلى "فَعِيل"، كما صُرف المؤلِم إلى الأليم، والمسمِع إلى السَّميع .وقيل: من إضافة الصِّفة المشبهة إلى فاعِلها، أي: بَديع سمواتِه وأرضه.

ومعنى المبدِع: المنشِئ، والمحْدِث ما لا يَسبقه إلى إنشاء مِثلِه وإحداثه أحَدٌ .

قال: ولذلك سُمِّي المبتدِع في الدين مُبتدِعاً، لإحداثه فيه ما لَمْ يَسبقه إليه غَيرُه. وكذلك كلّ مُحدِث قولاً أو فعلاً لم يَتقدّمْه فيه مُ ُتقدِّم فإنّ العرب تُسمِّيه: مُبتدِعاً. ومن ذلك قول أعشى بني ثَعلبة في مَدح هوذة بن علي الحنفي:

يُدعى إلى قولِ سادات الرِّجال إذا	أبدَوْا له الحزمَ أو ما شاءه ابتدعا

أي: يُحْدِث ما شاء .

قوله{ :قَضَى}، القضاء: فصْل الأمر قَولاً كان أو فِعْلاً.

و{الْجَحِيمِ :}النار بعيْنها إذا شَبَّ وَقودها، ويُقال: جَحِمت النار، وجحُمت، تجحُم جحْماً وجُحوماً، إذا اضطربَتْ.

والمِلّة :في الأصل: اسم من أملَلْت الكتاب، بمعنى أملَيْتُه، كما قال الراغب .ومنه: طَريق مَلول، أي: مَسلوك مَعلوم، كما نقله الأزهري. ثم نقلت إلى أصول الشرائع، باعتبار أنها يُمليها النبي –عليه السلام–، ولا يَختلف الأنبياء –عليهم السلام– فيها. وقد تُطلق على الباطِل، كالكُفّر مِلّة واحدة. ولا تُضاف إليه سبحانه، فلا يُقال: مِلّة الله، ولا إلى آحاد الأمّة. والدين يُرادفها ويُخالفها في بعض ما تقدّم.

الآثار.

أخرج البخاري، عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–، عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال)) :قال الله تعالى: كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. فأمّا تكذيبه إيّاي: فيزعم أنّي لا أقدِر أن أُعيده كما كان. وأمّا شتْمه إيّاي: فقوله لي ولد. سبحاني أن أتّخذ صاحبة أو ولَداً.((

وأخرج البخاري، وابن مردويه، والبيهقي في" الأسماء والصفات"، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–يقول الله تعالى: كذّبني ابنُ آدم ولم يَنبغِ له أن يُكذِّبني، وشَتمني ولم ينبغِ له أن يشتمني. أمّا تكذيبه إيّاي: فقوله: لن يعيدني كما بدأني . وليس أوّل الخلْق بأهون عليَّ مِن إعادته. وأما شَتمه إياي :فقوله: اتّخذ الله ولداً. وأنا الله الأحد الصّمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.((

وأخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي موسى الأشعري، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: أنه قال)) :لا أحَدَ أصبَرُ على أذىً سَمِعه مِن الله؛ إنّهم يَجعلون له ولداً، وهو يَرزقهم ويُعافيهم.((

وعن رجل من أهل الشام، قال: بلغني أنّ الله لما خَلق الأرض وخلَق ما فيها من الشجر، لم يكن في الأرض شَجرة يأتيها بنو آدم إلاّ أصابوا منها ثمرة، حتى تكلَّم فَجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة، قولهم{ :اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً}، فلما تكلَّموا بها اقشعرت الأرض، وشَاك الشجَر.

وعن قتادة، في قوله{ :وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ}، قال: إذْ قالوا عليه البُهتان، سبَّح نَفسه.

وعن ابن عباس، في قوله{ :سُبْحَانَ اللهُ}، قال: تَنزيهُ الله نَفسه عن السوء.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في" الأسماء والصفات"، عن موسى بن طلحة، عن النبي– صلى الله عليه وسلم –أنه سُئل عن التَّسبيح أنْ يقول الإنسان" :سبحان الله"، قال)) :بَراءةُ الله من السوء((، وفي لفظ)) :إنزاهه عن السوء.((

قال السيوطي: مرسل.

وأخرجه ابن جرير، والديلمي، والخطيب في" الكِفاية"، من طُرق أخرى موصولاً عن موسى بن طلحة بن عبيد الله، عن أبيه، عن جدّه طلحة بن عبيد الله، قال: سألت رسول الله –صلى الله عليه وسلم –تفسير" سبحان الله"، قال)) :هو تنزيه الله مِن كلّ سوء.((

وأخرج ابن مردويه، من طريق آخر، عن طلحة، نحو ذلك.

وعن ميمون بن مهران: أنه سُئل عن" سبحان الله"، فقال" :اسم يُعظَّم الله به، ويُحاشى عن السوء."

وعن ابن عباس: أن ابن الكوّاء سأل علياً عن قوله" :سبحان الله"، فقال عليٌّ: "كلمة رَضيَها الله لنفسه."

وعن الحسن، قال: "سبحان الله": اسم لا يَستطيع الناس أن يَنتحلوه.

وعن يَزيد بن الأصم، قال: جاء رجل إلى ابن عباس- رضي الله عنه -فقال: "لا إله إلا الله" نعْرفها أنه لا إله غيره، و"الحمد لله "نعْرفها أنّ النِعم كلّها منه وهو المحمود عليها، و"الله أكبر" نعْرفها أنه لا شيء أكبر منه. فما "سبحان الله"؟ فقال ابن عباس: "وما تُنكِر منها؟ هي كلمة رَضيها الله لنفسه، وأمَر بها مَلائكته، وفَزَّعَ إليها الأخيار من خَلْقه."

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في" ناسخه"، وابن حبان، والطبراني في" الأوسط"، وأبو نصر السجزي في "الإبانة"، وأبو نعيم في "الحلية"، والضياء في "المختارة"، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم -قال)) :كلّ حرف في القرآن يُذكَر فيه القُنوت فهو: الطاعة.((

قال ابن كثير: هذا الإسناد ضعيف لا يُعْتَمد عَليه. ورفْع هذا الحديث مُنكَر، وقد يكون من كلام الصحابي، أو مَن دُونه -والله أعلم-. وكثيراً ما يأتي بهذا الإسناد -يعني: رواية دراج أبي السمح عن أبي الهيثم- تفاسير فيها نَكارة، فلا يُغْترّ بها؛ فإن السند ضعيف.

وعن ابن عباس، في قوله{ :قَانِتُونَ}، قال: مُطيعون.

وأخرج الطستي في "مسائله"، عن ابن عباس: أنّ نافع ابن الأزرق سأله عن قوله -عز وجل- { :كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}، قال: مُقِرّون. قال: وهل تعرف العرب ذلك. قال: نعم. أما سمعت قول عديّ بن زيد:

قانتاً لله يَرجو عَفْوَه	يومَ لا يُكفَر عبْدٌ ما ادَّخَرْ

وعن ابن عباس قال{ :قَانِتِين :}مُصلّين.

وقال عكرمة، وأبو مالك: كلّ له مُقِرُّون بالعُبودية.

وعن قتادة{ :كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ }أي: مُطيع مُقرّ بأن الله ربّه وخَالِقه.

وقال سعيد بن جبير{ :كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}، يقول: الإخلاص.

وقال الربيع بن أنس: يقول :كل له قائم يوم القيامة.

وقال السدي{ :كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}، يقول: له مُطيعون يوم القيامة.

وعن مجاهد{ :كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}، قال: مُطيعون؛ كُنْ إنساناً، فكان. وقال: كُنْ حماراً، فكان.

وعن مجاهد{ :كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ :}مُطيعون. قال: طاعة الكافر في سجود ظلّه وهو كاره.

وعن أبي العالية،{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، يقول: ابتدع خَلْقهما ولم يَشركه في خَلقِهما أحد.

وعن السدي، في الآية، قال: ابتدعهما فخلَقهما، ولم يُخلق قَبلهما شيء فتمثّل به.

وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن سابط: أنّ داعياً دعا في عَهد النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال" :اللهم إني أسألك باسمك الذي لا إله إلاّ أنت، الرحمن الرحيم، بَديع السموات والأرض، وإذا أردتَ أمراً فإنما تَقول له كُن فيكون". فقال النبي -صلى الله عليه وسلم :-))لقد كِدتَ أن تَدعو باسمه العظيم.((

وأخرج ابن اسحق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال :قال رافع بن حُريملة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقُلْ لله فيكلّمنا حتى نَسمع كلامه! فأنزل الله في ذلك من قوله{ :وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ.}...

وقال مجاهد{ :وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ}، قال: النصارى تقوله، والذين مِن قَبلهم: يَهود.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، في تفسير هذه الآية: هذا قول كفّار العرب،{ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ}، قالوا: هم اليهود والنصارى .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، عن النبي- صلى الله عليه وسلم-، قال)) :أُنزلَت عليَّ: إنّا أرسلناك مُبشّراً. قال :بشيراً بالجنة، ونذيراً مِن النار .((

وروى البخاري، وأحمد، وابن مردويه، عن عطاء بن يسار، قال: "لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبِرْني عن صفة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في التوراة بصفته في القرآن. فقال: أجلْ، والله إنه لموصوف في التوراة بصِفته في القرآن{" :يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً}، وحِرزاً للأُمّيّين، وأنت عَبدي ورسولي. سَمَّيْتُك المتوكِّل، لا فَظّ ولا غَليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يَدفع بالسَّيئة السَّيئة، ولكن يَعفو ويَغفر. ولن يَقبِضه حتى يُقيم به المِلّة العَوجاء، بأن يقولوا: "لا إله إلا الله"، فيَفتح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُماً، وقُلوباً غُلفاً."

وزاد ابن مردويه: قال عطاء: ثم لَقيت كعب الأحبار، فسألته، فما اختلفا في حَرف، إلاّ أنّ كعباً قال بلُغته: أعيناً عُموماً، وآذاناً صُموماً، وقلوباً غُلوفاً."

وأخرج وكيع، وسفيان بن عيينة، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–ليتَ شِعري ما فَعَل أبواي؟ ليت شِعري ما فَعَل أبواي؟ ليت شِعري ما فَعَل أبواي؟ ((فنزلت{ :وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}، فما ذكرهما حتى توفّاه الله– عز وجل.–

قال السيوطي: هذا مُرسل ضَعيف الإسناد.

قلت: في إسناده موسى بن عبيدة الربذي: ضَعيف مع صلاحه، وقال ابن كثير: وقد تَكلّموا فيه.

وأخرج ابن جرير، عن داود بن أبي عاصم: أنّ النبي– صلى الله عليه وسلم– قال ذات يوم :))أيْن أبواي؟((، فنزلت{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ.}

قال ابن كثير: وهذا مُرسل كالذي قَبْله.

وقال السيوطي: مُعضَل الإسناد، ضعيف، لا يقوم به ولا بالذي قَبْله حُجة.

قلت: نشط السيوطي على غير عادته في هَدم هذيْن الأثريْن، مع ما فيهما من ضَعف يَسير، مع سكوته عن طوامّ أخرى ذَكَرها في تَفسيره، لنُكتة هامّة، وهي: أنه يُنافِح عن الروايات الموضوعة المكذوبة في إحياء الله أبويِ النبي –صلى الله عليه وسلم– وإسلامِهما بعد مَوتهما، وألّف في ذلك رسالة. وسيأتي كلام عن ذلك قريباً.

وعن الأعرج، أنه قال{ :وَلا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ }أي: أنت يا محمد.

و عن أبي مالك، قال: الجحيم ما عَظُم من النار.

وأخرج الثعلبي، عن ابن عباس: أنّ يهود المدينة، ونصارى نجران، كانوا يَرجُون أن يُصلِّي النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى قِبلتهم، فلمّا صَرف الله القِبلة إلى الكَعبة شقَّ ذلك عَليهم، وأيِسوا منه أن يُوافقهم على دينهم، فأنزل الله{ :وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى}، الآية.

وقال قتادة في قوله{ :قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى}، قال :خُصومة علّمها الله محمداً –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه، يُخاصمون بها أهل الضلالة. قال قتادة: وبلغنا أنّ رسول الله –

صلى الله عليه وسلم- كان يقول)) :لا تزال طائفة مِن أمّتي يَقاتِلون على الحق ظاهرين، لا يَضرّهم مَن خَالفهم حتى يأتي أمْر الله.((

قال ابن كثير: هذا الحديث مخرّج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو.

وعن قتادة في قوله{ :الّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكتاب}، قال: هم اليهود والنصارى.

وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وعن قتادة: هم أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم.-

وأخرج الخَطيب في كتاب "الرواة عن مالك- "قال السيوطي: بسند فيه مجاهيل-، عن ابن عمر، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، في قوله{ :يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ}، قال)) :يتّبعونه حق اتّباعه.((

وقال القرطبي: في إسناده غير واحد من المجهولين- فيما ذكره الخطيب-، إلاّ أنّ معناه صحيح.

وعن ابن عباس، في هذه الآية، قال" :يُحِلّون حَلالَه، ويُحرّمون حَرامه، ولا يُحرِّفونه عن مَواضِعه."

وعن ابن عباس في قوله{ :يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ}، قال" :يَتّبعونه حق اتّباعه"، ثم قرأ{ :والْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا}، يقول :اتّبعها.

قال: وروي عن عكرمة، وعطاء، ومجاهد، وأبي رزين، وإبراهيم النخعي، نحو ذلك.

وعن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه{ :-يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ}، قال" :إذا مرَّ بذِكْر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مرّ بذِكر النار تَعوّذ بالله من النار ."

قال القرطبي: وقد رُوي هذا المعنى عن النبي -صلى الله عليه وسلم)) :-أنّه كان إذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية عَذاب تَعوّذ .((قلت: هو في الصحيح.

وعن ابن مسعود: "والذي نفسي بيده، إنّ حق تلاوته أن يُحِلّ حَلالَه، ويُحرِّم حَرامَه، ويَقرأه كما أنزله الله، ولا يُحرِّف الكَلِم عن مَواضعه، ولا يتأوّل منه شيئاً غير تأويله."

وعن ابن مسعود، في قوله{ :يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ}، قال" :يَتّبعونه حقّ اتّباعه."

وعن قتادة، في قوله{ :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}، قال : "منهم أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- الذين آمنوا بآيات الله وصدّقوا بها". قال:

وذُكِر لنا: أنّ ابن مسعود كان يقول: "والله إنّ حق تِلاوته: أن يُحلّ حَلالَه ويُحرّم حرَامه، ويَقرأه كما أنزله الله، ولا يُحرّف عن مواضعه". قال: وحدثنا عمر بن الخطاب، قال" :لقد مضى بنو إسرائيل وما يُعْنَى بما تَسمعون غيرُكم."

وعن مجاهد،{ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ}، قال" :يتَّبعونه حق اتّباعه."

وعن زيد بن أسلم، في قوله{ :يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ}، قال" :يتكلّمونه كما أنزل الله ولا يَكتمونه."

وعن الحسن البصري: "يَعمَلون بمُحكَمه، ويُؤمنون بمتشابهه، ويَكِلون ما أشكل عليهم إلى عالِمه."

وقال أبو موسى الأشعري: "من يتَّبع القرآن يَهبط به على رياض الجنة."

أقوال المفسِّرين.

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها، على الرّدّ على النصارى -عليهم لعائن الله-، وكذا مَن أشبههم من اليهود، ومِن مشركي العرب ممّن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعَهم في دعواهم وقولهم: إنّ لله ولداً. فقال تعالى} :سُبْحَانَهُ {أي: تعالى وتقدَّس وتنزّه عن ذلك عُلواً كبيراً،} بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ {أي: ليس الأمر كما افترَوْا، وإنما له مُلْك السموات والأرض ومَن فيهنذ، وهو المتصرِّف فيهم، وهو خالقهم، ورازقهم، ومقدِّرهم، ومُسخِّرهم، ومُسيِّرهم، وُمصرِّفهم كما يَشاء، والجميع عَبيد له، ومُلك له؛ فكيف يكون له ولد منهم؟ والولد إنما يكون متولِّداً من شَيئيْن مُتناسبيْن، وهو تبارك وتعالى ليس له نَظير، ولا مُشارك في عَظمته وكِبريائه، ولا صاحبة له، فكيف يَكون له ولد؟! كما قال تعالى} :بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{، وقال تعالى} :وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فَرْداً{، وقال تعالى} :قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.{

فقرّر تعالى في هذه الآيات الكريمة: أنه السَّيِّد العَظيم، الذي لا نَظير له، ولا شَبيه له، وأنَّ جَميع الأشياء غيره مَخلوقة له مَربوبة، فكيف يكون له منها ولد؟!

وقد ذكر ابن كثير الآثار في معنى" القُنوت"، وفيها أثر مجاهد المتقدِّم في الآثار، ثم قال: وهذا القول من مجاهد –وهو اختيار ابن جرير– يَجمع الأقوال كلّها؛ وهو: أنذ القُنوت هو: الطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعيّ وقدريّ، كما قال تعالى} :وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ.{

وقوله تعالى} :بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ {أي: خالِقها على غَير مثال سَبق.

قال ابن جرير: "فمعنى الكلام: سبحان الله! أنَّى يَكون لله ولد، وهو مَالك ما في السموات والأرض؟ تَشهد له جَميعها بدلالتها عليه بالوحدانية، وتُقِرّ له بالطاعة، وهو بارِئها وخالقها ومُوجدها، من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه. وهذا إعلام من الله عباده، أنّ ممّن يَشهد له بذلك: المسِيح الذي أضافوا إلى الله بُنوّتَه، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذي ابتدع المسِيح من غير والد، بقُدرته."

قال ابن كثير: "وهذا من ابن جَرير– رحمه الله– كلام جيّد، وعبارة صحيحة."

وقوله تعالى} :وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ :{يُبيِّن بذلك تعالى كمالَ قُدرته وعَظيمَ سلطانه، وأنه إذا قدَّر أمراً وأراد كونه، فإنما يقول له: كُنْ –أي: مرة واحدة–، فيكون .أي: فيُوجد على وِفْق ما أراد، كما قال تعالى} :إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{، وقال تعالى} :إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{، وقال تعالى} :وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ{، وقال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما	يقول لهُ كُن قولةً فيكونُ

ونبّه بذلك أيضاً على أنّ خَلْق عيسى بكلمة} كُنْ{، فكان كما أمَره الله تعالى. قال الله تعالى} :إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.{

وفي قوله تعالى} :وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ {...الآية، ذكر ابن كثير رواية ابن عباس،

وأثر مجاهد، وقال: وهو اختيار ابن جرير، قال: لأنّ السياق فيهم؛ وفي ذلك نَظر – هكذا قال ابن جرير–. وحكى القرطبي} لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ {أي: يخاطبنا بنبوّتك يا محمد. قال ابن كثير: وظاهر السياق أعمّ –والله أعلم.–

ثم ذَكر الآثار في كونهم كُفّار العَرب، وقال :ويُؤيّد هذا القول، وأنّ القائلين ذلك هم مُشركو العرب: قوله تعالى} :وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ{، وقوله تعالى} :وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً{، وقوله تعالى} :وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً{، وقوله} :بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً{، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كُفر مشركي العرب، وعُتوّهم، وعِنادهم، وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكُفر والمعاندة، كما قال مَن قَبلهم من الأمم الخَالية من أهل الكتابيْن وغيرهم، كما قال تعالى} :يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً{، وقال تعالى} :وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً.{

وقال بعضهم: وقال الجَهلة من المشركين –وقيل: من أهل الكتاب، ونفى عنهم العِلم لأنهم لم يعملوا به} :–لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ :{هلاّ كلّمنا كما يُكلّم الملائكة وكلّم موسى؟ استكباراً منهم،} أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ{، جُحوداً لأن يكون ما آتاهم من آيات الله آيات، واستهانة بها .

وقوله} :تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ {أي: أشبهت قلوبُ مشركي العرب قلوبَ مَن تَقدَّمهم في الكُفر والعِناد والعُتوّ، كما قال تعالى} :كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ .{

وقوله} :قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ {أي: قد أوضحنا الدِّلالات على صِدق الرُّسل بما

لا يَحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لِمَن أيقن وصدَّق واتّبع الرُّسل، وفهِم ما جاؤوا به عن الله -تبارك وتعالى-. وأمّا مَن خَتم الله على قَلبه وسَمعه، وجعَل على بَصره غِشاوة، فأولئك قال الله تعالى فيهم} :إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ .{

قلت: ما رجّحه ابن جرير أقوى في أنّ المراد أهلُ الكِتاب من يَهود ونَصارى؛ فسبب النزول عن ابن عباس واضح في ذلك، وكذا نزول الآيات السابقة، في الجِدال بينهما بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكذا قوله تعالى بعْد} :وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى {...الآية؛ كلّ ذلك يُؤيّد أنهم المرادون هنا -والله أعلم.-

وقوله} :وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ {قِراءة أكثرهم} :ولاَ تُسْأَلُ {بضمّ التاء على الخبر. وفي قِراءة أبيّ بن كَعب" :وما تُسْأَل"، وفي قِراءة ابن مسعود: "ولَنْ تُسْأَلَ عن أصحاب الجحيم"، نقلهما ابن جرير، أي: لا نسألك عن كفْر مَن كفَر بك،} فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ{، وكقوله تعالى} :فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ {...الآية، وكقوله تعالى} :نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ{، وأشباه ذلك من الآيات...

وقرأ آخرون} :وَلا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ- {بفتْح التاء على النهي-، أي: لا تسأَلْ عن حالِهم، وقد حكاه القرطبي، عن ابن عباس ومحمد بن كعب.

قال القرطبي: وهذا كما يقال: ولا تسأل عن فلان، أي: قد بَلغ فوق ما تَحسب. وقد ذكرنا في "التذكرة" أنّ الله أحيا له أبويْه حتى آمنَا به وأجبْنا عن قوله)) :إن أبي وأباك في النار.((

قلت: هذا عجيب من القرطبي -رحمه الله-! إن سُلِّم له ذلك في قوله} :وَلاَ تَسْأَلْ{، فماذا يَفعل بقوله} :عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ{؟ والغُلوّ لا يأتي بخَير، وإنما يَحمل على لَيِّ أعناق النُّصوص الشرعية، وردّ الصحيح منها، والتَّشبث بالواهيات.

ولا يمكن أن يوجّه قوله إلاّ على ردّ القول بأنّ الآية نزلت في سؤاله عن أبويْه، ويكون معنى قوله: قد بلغ فوق ما تحسب، أي: مِن العذاب والنكال. ويكون كلامه عن "تَذكرته" مُستأنفاً لا علاقة له بالآية.

قال ابن كثير: والحديث المرويّ في حياة أبويْه- عليه السلام -ليس في شيء من الكتب السِتّة ولا غيرها من المعتمَدة، وإسناده ضعيف -والله أعلم .-

قال: وقد ردّ ابن جرير هذا القول المرويّ عن محمد بن كعب وغيره في ذلك، لاستحالة الشكّ من الرسول- صلى الله عليه وسلم -في أمْر أبويْه، واختار القراءة الأولى. وهذا الذي سَلكه ههنا فيه نَظر، لاحتمال أنّ هذا كان في حال استغفاره لأبويْه قَبل أن يَعْلم أمْرَهما، فلمّا عَلِم ذلك تبرّأ منهما، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار، كما ثبت هذا في الصحيح. ولهذا أشباه كَثيرة ونظائر، ولا يَلزم ما ذكر ابن جرير -والله أعلم .-انتهى كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله.-

قلت: القراءة بذلك ثابتة متواتِرة، ولكن لا علاقة لها بأبوَيِ النبي -صلى الله عليه وسلم- لضعف الروايات في ذلك، وإن كانت أقوى بكثير من رواية إحيائهما له. وسياق الآيات يؤكّد نفْي هذه العلاقة- والله أعلم.-

وقوله تعالى} :وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.{

قال ابن جرير: وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدَعْ طلَب ما يُرضيهم ويوافقهم، وأقبِلْ على طلَب رضى الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق.

قلت: يا ليت المسلمون اليوم يعملون بهذه الآية العظيمة !فوالله لو عملوا بها لَسعدوا في الدنيا والآخرة، ولعَزُّوا بعد ذُل، ولنُصِروا بعد هَزيمة!

وقوله تعالى} :قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى {أي: قلْ يا محمد :إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني: هو الدِّين المستقيم الصحيح، الكامل الشامل.

}وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ :{ فيه تَهديد ووَعيد شَديد للأمّة عن اتّباع طَرائق اليهود والنصارى، بعد ما عَلِموا من القرآن والسُّنّة- عياذاً بالله من ذلك-؛ فإن الخِطاب مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، والأمّة مُرادة.

وقوله} :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ {هم: مُؤمنو أهل الكتاب،} يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ {لا يُحرِّفونه ولا يُغيّرون ما فيه مِن نَعْت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-،} أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ{، بكتابهم دون المحرّفة} .وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ {مِن المحرِّفة} فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ {

حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

وقوله} :أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ :{خبر عن} الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ {أي: مَن أقام كِتابه من أهل الكُتب المنزَّلة على الأنبياء المتقدِّمين حَقّ إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد. كما قال تعالى} :وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ {...الآية. وقال} :قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ {أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، وآمنتم بها حق الإيمان، وصدّقتم ما فيها من الإخبار بمَبْعث محمد –صلى الله عليه وسلم–، ونَعْته وصِفته، والأمْر باتّباعه، ونَصْره ومُؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق، واتّباع الخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى } :الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ {...الآية. وقال تعالى} :قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً {أي: إن كان ما وعَدنا به مِن شأن محمد –صلى الله عليه وسلم –لواقع. وقال تعالى} :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .{ وقال تعالى} :وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{، ولهذا قال تعالى} :وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{، كما قال تعالى} :وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .{وفي الصحيح)) :والذي نفسي بِيَده! لا يَسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة، يهوديّ ولا نصرانيّ، ثم لا يُؤمن بي، إلاّ دَخل النار.((

ومن الناس من حَمل الموصول على أصحاب رسول الله –صلى الله تعالى عليه وسلم–، وإليه ذهب عكرمة وقتادة؛ فالمراد من الكتاب حينئذ: القرآن. ومنهم من حَمله على الأنبياء والمرسلين –عليهم السلام–، وإليه ذهب ابن كيسان؛ فالمراد من الكتاب حينئذ: الجنس، ليشمل الكتب المتفرّقة.

قوله} :يَا بَنِي إِسْرائيلَ {...الآية.

قد تقدّم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكرّرت ههنا للتأكيد والحثّ على اتّباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صِفتَه في كُتبهم، ونَعْته واسمه، وأمْره، وأمّته. فحذَّرهم من كِتمان هذا، وكِتمان ما أنعم به عليهم. وأمّرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النِّعم الدنيوية والدِّينية، ولا يحسدوا بني عَمّهم من العَرب، على ما رَزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم مِنهم، ولا يحملنّهم ذلك الحسد على مُخالفته وتَكذيبه، والحَيْد عن مُوافقته -صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.-

المعنى الإجمالي.

يذكر تعالى أمراً عظيماً اتّفق عليه أهل الكُفر، وعلى وجْه الخُصوص اليهود والنصارى، حيث زعموا لله الولد؛ فقالت اليهود: عُزير ابن الله. وقالت النصارى: المِسيح ابن الله. وقال مشركو العرب: المِلائكة بنات الله. فنزَّه الله نَفسه عن هذه الفِرية، وبيَّن أنّ كلّ ما في هذه السموات والأرض من مَخلوقات خاضِعةٌ له مُطيعة مُعبَّدة؛ فهو الذي أنشأها كلّها وخَلَقها مِن عَدم عن غير مثال سابق، وخلْقه لأيّ منها لا يَزيد عن أمْره لها بأن تَكون فتَكون.
ثم ذكَر سبحانه كذلك موقفاً من تَكبُّر أهل العِناد والكُفر عامة، ومن اليهود خاصة، الذين فقدوا حقيقة العِلْم، حيث طَلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يُكلِّمهم الله تعالى كما فَعَل رافع بن حُريملة، أو يأتيهم بآية وقتما يَحلو لهم، ففعلوا كما فعَل أسلافُهم؛ فقلوبهم مُتشابهة في الكُفر والعِناد. وقد بيَّن الله تعالى الآيات وأقام الدلائل والبراهين لِمَن أراد اليقين والمعرفة .ثم واسى تعالى نبيّه -صلى الله عليه وسلم- في عَدم إيمانهم به، بأنه ما أُرسِل إلاّ بشيراً يُبشِّر بما عند الله من خَير للمؤمنين، ونذيراً ليُنذر مَن كَفر وعَصى من عذاب الله المهين، ولن يسأله الله تعالى عن هؤلاء الكافرين، فليس عليه هُداهم. كما أنه قد أعدّ لهم من العذاب ما يفوق الوَصف ويَعلو فَوق كلّ تَصوّر. وأيأسه الله تعالى أن يَرضى عنه هؤلاء الكُفار من اليهود والنصارى، حتى يتَّبع مِلّتهم، وأمَرَه أن يقول لهم: إن الهِدى هو الذي جاء به من عند الله، وانّ الهداية من الله ليست بِيَد أحد سواه .وحذّره من مُجاراتهم في أهوائهم،

ومجامَلتهم طَمعاً في إيمانهم بعد هذا العِلْم الحق، الذي أتاه من ربه؛ فإنّ مَن فَعل ذلك نَزع الله عنه الوَلاية والنُّصرة والتأييد .والحديث للنبي –صلى الله عليه وسلم– والأمّة مُرادة.

ثم بيَّن سبحانه أنّ أهل الكتاب الحقّ –من الأمم السابقة أصالة، ومِن أمّتنا تبعاً–، هم الذين يتَّبعون كتابهم، ويعْملون بما فيه، ويُقيمون حروفه وحُدوده، ولا يَكتمون منه شيئاً؛ فأولئك هُم المؤمنون حقاً به، لا هؤلاء المحرّفة الذين كَفروا به، فكانوا أصحاب الخَسارة في الآخرة.

ثم خَتم سبحانه فضائح اليهود ومخازِيهم– مع ما ذُكِر عن إخوانهم من بني إسرائيل النصارى– بالنُّصح لهم كما بدأ بذلك أوّلاً؛ فأمَرهم بأن يَذكروا نِعمته عليهم، وما فضّلهم به على عالَم زمانهم، وأمَرهم بأن يتّقوا عَذابه يوم القيامة، حيث لا شَفيع لهم ولا نصير، ولا يُقبل منهم فِداء، ولا يَجزي عنهم أحد.

مسائل الآيات :

المسألة الأولى:

يُقال للشيء المحدَث :بِدْعة، كما جاء في صحيح مسلم ...)) :فإنّ كلّ مُحْدَثة بِدعة.((

والبِدْعة على قسميْن: تارة تكون بدْعة شرعيّة، كقوله ...)) :فإنّ كلّ مُحدَثة بِدعة، وكلّ بِدْعة ضلالة((، وتارة تكون بِدعة لُغويّة، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– عن جَمْعِه إيّاهم على صلاة التراويح واستمرارهم: "نِعمتِ البِدعة هذه!". وتفصيل ذلك في مَحلّه.

المسألة الثانية:

استدلّ كثير من الفقهاء بقوله} :حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ– {حيث أفرد المِلّة– على أنّ الكُفر كُلّه مِلّة واحدة، كقوله} :لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{؛ فعلى هذا لا يَتوارث المسلمون والكفّار، وكلّ منهم يَرث قَرينه، سواء كان من أهل دِينه أم لا، لأنهم كلّهم مِلّة واحدة. وهذا مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد –في رواية عنه–، وقال في الرواية الأخرى كقول مالك: إنه لا يَتوارث أهل مِلّتيْن شتّى، كما جاء في الحديث –والله أعلم–. وتفصيل ذلك في كُتب الفقه.

المسألة الثالثة:

مسألة مُتشابه النَّظم من دقائق البلاغة، وهي من علوم القرآن، وقد جاء مجالها هنا في عدّة آيات، ومنها الآيات الأخيرة. ولِمعرفة الفوارق بين ما خُتمت به هذه الآيات، وبين ما بدأ الله به الحديث عن بني إسرائيل، والفوارق بين الآيات الأخرى وبين ما شابهها، يُراجع له الكُتب المِغْنيّة بذلك، وقد ذكرنا جُملة منها في مادة عُلوم القرآن.

الأسئلة :

١. قرأ ابن عامر (وقالوا اتخذ الله ولداً) بدون واو ، وهي قراءة شاذة لأنها مخالفة للرسم العثماني (خطأ) .

٢. قرأ ابن عامر (وقالوا اتخذ الله ولداً) بدون واو على الاستئناف ، وهي هكذا في مصاحف أهل الشام ، والباقون بالواو على العطف ، وهو من باب العطف والقطع ، وهو من بلاغة العرب (صح) .

٣. (كن فيكون) قرأها ابن عامر بفتح النون على إضمار أن بعد الفاء (صح) .

٤. (ولا تسأل) قرأها نافع ويعقوب بفتح التاء وجزم اللام بالبناء للفاعل على أن لا ناهية ، وقرأ الباقون بضم التاء ورفع اللام على أن لا نافية والجملة استئنافية (صح) .

٥. (بديع السماوات والأرض) أي : مبدعها ، والمبدع هو المنشئ ما لم يسبقه إليه أحد (صح) .

٦. (بديع السماوات والأرض) أي : مبدعها ، بمعنى جعل فيها أنواع الجمال ، من الإبداع وهو الجمال في الشيء (خطأ) .

٧. الجحيم : النار إذا شب وقودها واضطربت (صح) .

٨. الملة : الطريق المسلوك المعلوم ، وسميت بذلك أنها يمليها النبي على قومه ، وتطلق على الإيمان والكفر (صح) .

٩. ثبت في الأحاديث الصحيحة أن القول بأن لله ولداً من أعظم الشتيمة لله رب العالمين (صح) .

١٠. التسبيح : هو تنزيه الله عن السوء والنقص والعيب (صح) .

١١. (كل له قانتون) أي : مقرون بالعبودية قائمون بالطاعة (صح) .

١٢. روى الطبري وغيره أن رجلاً يسمى رافع بن حريملة قال لرسول الله ﷺ : إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله في ذلك (وقال الذين لا يعلمون ...) (صح) .

١٣. (الذين من قبلهم) : هم اليهود والنصارى (صح) .

١٤. ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال يوماً : أين أبواي ؟ فأنزل الله تعالى : ولا تسأل عن أصحاب الجحيم (خطأ) .

١٥. ضعف السيوطي الحديث الوارد في سبب نزول قوله تعالى (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) وأنه نزل في أبوي النبي ﷺ ، وذلك لأنه يصحح الرواية الموضوعة في إحيائهما وإسلامهما (صح) .

١٦. قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) فيها قولان : أنهم اليهود والنصارى ، والثاني أنهم أصحاب محمد ﷺ (صح) .

١٧. قوله (يتلونه حق تلاوته) أي : يتبعونه حق اتباعه ، فيؤمنون بما فيه ويعملون بما تضمنه (صح) .

١٨. استدل العلماء بقوله تعالى (يتلونه حق تلاوته) على وجوب تعلم أحكام تلاوة القرآن ، وهو استدلال صحيح كما هو واضح (خطأ) .

١٩. في الآيات الرد على كل من زعم أن لله الولد من خلال بيان أنه سبحانه هو السيد العظيم الذي خلق كل شيء عن غير مثال سابق وأن كل شيء خاضع له وتحت أمره وتدبيره فكيف يكون له منها ولد (صح) .

٢٠. في الآيات التنبيه على المشابهة بين خلق السماوات وخلق المسيح ، فكلٌّ قد أبدعه الله عن غير مثال سابق (صح)

٢١. قوله (إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون) ليس المراد به ظاهر قول (كن) وإنما فيه بيان سرعة إيجاد ما أراد خلقه وليس بأنه يقول له كلمة (كن) (خطأ) .

٢٢. المقصود بالذين لا يعلمون هنا : إما أنهم اليهود والنصارى ، أو المشركون من العرب علة قولين عند العلماء والأول أرجح (صح) .

٢٣. قوله (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) أي : لا تسأل عن حالهم ، فإن حالهم أعظم مما يخطر في بالك (صح) .

٢٤. الحديث المروي في إحياء أبوي النبي ﷺ له وإسلامهما حديث باطل موضوع وقد ثبت في الصحيح خلافه (صح) .

٢٥. ضعف الطبري قراءة (ولا تسأل) بفتح التاء لاستحالة وجود شك من النبي ﷺ في حال أبويه ، وهو كمال قال رحمه الله (خطأ) .

٢٦. في الآية بيان أن طلب رضا الله هو الواجب على كل أحد من غير نظر إلى رضا الخلق (صح) .

٢٧. في الآيات تهديد ووعيد شديد لمن اتبع طرق اليهود والنصارى بعد علمهم بالحق الذي جاء به محمد ﷺ (صح) .

٢٨. ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بقوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) أهل الكتاب ، وهو قول ضعيف والصحيح أنهم أصحاب محمد ﷺ (خطأ) .

٢٩. دل قوله تعالى (حتى تتبع ملتهم) على أن الكفر كله ملة واحدة فعلى هذا فالكافر يرث الكافر ولو كان من غير دينه وهو مذهب جمهور العلماء (صح) .

٣٠. البدعة تطلق على كل شيء محدث جديد ، وقد تكون لغوية وقد تكون شرعية ، والأولى قد تكون حسنة وقد تكون سيئة ، وأما الثانية فلا تكون إلا سيئة مذمومة (صح) .

المحاضرة الحادية والخمسون

***

تفسير الآية رقم (١٢٤) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.}

القراءات:

ليس في الآية وجوه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

الآية مَعطوفة على ما قَبْلها عطْف القِصّة على القِصّة، والجامع: الاتّحاد في المِقصد، فإنّ المِقصد من تَذكير أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، وتَخويفهم: تَحريضهم على قَبول دِينه -صلى الله عليه وسلم- واتّباع الحق، وترك التّعصّب وحبّ الرياسة. كذلك المِقصد من قصة إبراهيم -عليه السلام-، وشرْح أحواله: الدعوة إلى مِلّة الإسلام، وترْك التّعصّب في الدِّين؛ وذلك لأنه إذا عُلِم أنه نال الإمامة بالانقياد لحُكمه تعالى، وأنه لم يَستجب دعاءه في الظالمين، وأنّ الكعبة كانت مَطافاً ومَعبداً في وقته مأموراً هو بتطهيره، وأنه كان يَحُجّ البيت داعياً مُبتهلاً كما هو في دين النبي -صلى الله تعالى عليه وسلم-، وأنّ نبيّنا -عليه الصلاة والسلام- مِن دعْوته، وأنه دعا في حقّ نَفسه وذُرّيّته بمِلّة الإسلام، كان الواجب على مَن يَعترف بفَضله وأنه من أولاده ويَزعم اتّباع مِلّته، ويُباهي بأنه مِن ساكِني حَرمه وحامي بيته، أن يكون حاله مثل ذلك.

لغويّات.

{إِبْرَاهِيمَ :}عَلَم أعجَمي، قيل معناه قَبل النَّقل: أبٌ رَحيم.

والكلمات :جَمْع كَلِمة، وأصل معناها: اللفظ المفرد، وتُستَعمل في الجُمل المفِيدة، وتُطلَق على معاني ذلك لِما بين اللفظ والمعنى من شِدّة الاتصال.

والإمام :اسم للقدوة الذي يُؤتمّ به، ومنه قيل لخَيط البناء: إمام، وهو مفرد على "فِعال"، وجعَله بعضهم اسم آلة، لأن "فِعالاً" من صيغها كالإزار. واعترض بأنّ الإمام ما يُؤتَمّ به، والإزار ما يُؤتزر به، فهما مَفعولان، ومفعول الفعل ليس بآلة، لأنها الواسطة بين الفاعل والمفعول في وصول أثَره إليه. ولو كان المفعول آلة لكان الفاعِل كذلك، وقيل: جَمْع "آمِم" اسم فاعل من أمَّ يَؤُمّ، كجائع وجياع، وقائم وقيام.

والذُّرية: نَسْل الرجل، وأصلها: الأولاد الصغار، ثم عمَّت الكِبار والصغار، الواحدَ وغيره، وقيل: إنها تَشمل الآباء، لقوله تعالى: }أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{ يعني: نوحاً وأبناءه. قال الآلوسي: والصحيح خِلافه. وفيها ثلاث لغات: ضَمّ الذال، وفَتْحها، وكَسْرها، وفي أصلها وتصريفها كلام كثير.

الآثار.

عن ابن عباس{ :وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ}، قال: ابتلاه الله بالطَّهارة: خَمْس في الرأس، وخَمْس في الجَسد؛ في الرأس: قَصّ الشارب، والمِضمضة، والاستنشاق، والسِّواك، وفَرْق الرأس. وفي الجَسد: تقْليم الأظفار، وحَلق العانة، والخِتان، ونَتف الإبط، وغَسل أثر الغائِط والبول بالماء.

ورُوي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وأبي صالح، وأبي الجَلد، نحو ذلك.

وعن ابن عباس، قال: الكلمات التي ابتلى اللهُ إبراهيم فأتمّهنّ: فِراق قَومه –في الله– حين أمِر بمُفارقتهم، ومُحاجَّته نمروذ في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خَطر الأمر الذي فيه خِلافهم، وصَبْره على قَذفه إياه في النار ليُحرقوه في الله، على هول ذلك من أمرهم، والهِجْرة بعد ذلك من وَطنه وبلاده في الله حين أمره بالخُروج عنهم، وما أمَره به من الضِّيافة والصَّبر عليها، وما ابتُلي به من ذَبح ابنه حين أمَرَه بذَبحه. فلما مَضى على ذلك من الله كلّه وأخلصه للبلاء، قال الله له{ :أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }على ما كان من خِلاف الناس وفِراقهم .

عن ابن عباس: أنه كان يقول في تفسير هذه الآية{ :وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}، قال: عشر :سِتّ في الإنسان، وأربع في المشاعِر. فأمّا التي في الإنسان :حَلق العَانة، ونَتف الإبط، والخِتان –وكان ابن هبيرة يقول :هؤلاء الثلاثة واحدة– وتَقْليم الأظفار، وقَص الشارب، والسِّواك، وغُسل يوم الجُمعة. والأربعة التي في المَشاعر :الطَّواف، والسَّعي بين الصفا والمروة، ورمْي الجِمار، والإفاضة.

وعن ابن عباس، أنه قال: ما ابتُلي بهذا الدين أحَد فقام به كلّه إلاّ إبراهيم، قال الله تعالى : {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .}قيل له: وما الكلمات التي ابتلى اللهُ إبراهيم بهن فأتمّهنّ؟ قال: الإسلام ثلاثون سَهماً، منها عشر آيات في (براءة){ :التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ }... إلى آخر الآية، وعشر آيات في أول سورة) قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (و)سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ(، وعشر آيات في) الأحزاب{ :(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ }...إلى آخر الآية؛ فأتمّهن كلّهنّ، فكتب له بَراءة، قال الله{ :وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى.}

وعن ابن عباس{ :وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}، قال: منهنّ مناسك الحج.

وفي رواية قال: ابتلاه الله بالمناسك.

وعن ابن عباس{ :وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}، فمنهن{ :إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}، ومنهن{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ}، ومنهن: الآيات في شأن المناسك، والمقام الذي جُعِل لإبراهيم، والرِّزق الذي رُزق ساكنو البيت، وبعْث محمد في ذرِّيّتهما .

وعن الحسن البصري{ :وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ}، قال :ابتلاه بالكَوكَب فرضي عنه، وابتلاه بالقَمر فرضي عنه، وابتلاه بالشمس فرضي عنه، وابتلاه بالهِجرة فرضي عنه، وابتلاه بالخِتان فرضي عنه، وابتلاه بابنه فرضي عنه .

وفي لفظ: إي والله! لابْتلاه بأمْر فصَبر عليه: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك، وعَرف أنّ ربه دائم لا يزول، فوجّه وجهه للّذي فَطر السموات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين. ثم ابتلاه الله بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحِق بالشام مهاجراً إلى الله. ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصَبر على ذلك. وابتلاه الله بذَبْح ابنه، والخِتان، فصبر على ذلك .

وعن مجاهد، في قوله تعالى{ :وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}، قال الله لإبراهيم: إني مُبْتليك بأمْر فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً؟ قال: نعم{ .قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي{ .}قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ .}قال: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال: نعم. قال{ :وَأَمْناً .}قال: نعم .وتجعلنا مُسلمَيْن لك، ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك. قال: نعم .قال: وتَرزق أهله من الثَّمرات من آمن بالله. قال: نعم.

وعن مجاهد{ :وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}، قال: ابتُلي بالآيات التي بعْدها : {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.}

وعن الربيع بن أنس{ :وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ}، قال :الكلمات{ :إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}، وقوله{ :وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً}، وقوله{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً}، وقوله{ :وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ }...الآية، وقوله{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ }...الآية، قال: فذلك كُلّه من الكلمات التي ابتُلِي بهنّ إبراهيم.

وقال السدي: الكلمات التي ابتلَى بهن إبراهيمَ ربُّه{ :رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}، و{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ.}

أقول: هذا الأثر الأخير كأنه على قِراءة من قَرأ برفْع{ إِبْرَاهِيمُ}، ونصْب{ رَبَّه.}

وعن ابن عباس في قوله{ :فَأَتَمَّهُنَّ }قال: فأدّاهنّ.

وعن عطاء قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم)) :–من فِطرة إبراهيم: السِّواك.((

وعن مجاهد قال: من فِطرة إبراهيم :غَسل الذَّكَر والبراجم.

وعن مجاهد قال: سِتّ مِن فطرة إبراهيم: قَصّ الشارب، والسِّواك، والفَرْق، وقَصّ الأظفار، والاستنجاء، وحَلْق العَانة. قال: ثلاثة في الرأس، وثلاثة في الجَسد.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، عن أبي هريرة: سَمِعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم –يقول)) :الفِطرة خَمْس، أو خَمْس من الفِطرة: الخِتان، والاستحداد، وقَصّ الشارب، وتَقليم الأظفار، ونَتْف الإبط.((

وأخرج البخاري، والنسائي، عن ابن عمر: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :مِن الفِطرة: حَلق العانَة، وتَقْليم الأظفار، وقَصّ الشّارب.((

وأخرج ابن أبي شيبة، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، عن عائشة – رضي الله عنها–، قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–عَشْر من الفِطرة: قَصّ الشّارب، وإعفاء اللّحية، والسِّواك، واستنشاق الماء، وقَصّ الأظفار، وغَسْل البَراجِم، ونَتْف الإبط، وحَلْق العانة، وانتقاص الماء.((

قال مصعب –راوي الحديث–: ونَسِيت العاشرة إلاّ أن تكون المضمضة.

قال وكيع: انتقاص الماء، يعني :الاستنجاء.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجة، عن عمار بن ياسر: أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال)) :الفِطرة :المضمضة، والاستنشاق، والسّواك، وقصّ الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، والاستنجاء، وغسل البَراجِم، والانتضاح، والاختِتان.((

وأخرج ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، عن أنس بن مالك، قال: وقَّت لنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في قَصّ الشارب، وتَقْليم الأظفار، وحَلْق العَانة، ونَتْف الإبط، أنْ لا تُتْرك أكثر مِن أربعين يوماً.

وأخرج الترمذي وحسّنه، عن ابن عباس، قال: كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يَقصّ أو يأخُذ من شَاربه، قال: لأنّ خَليل الرَّحمن إبراهيم يَفعَله.

وأخرج مالك، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، عن ابن عمر، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :خالِفوا المشركين :وفِّروا اللِّحَى، وأحْفُوا الشَّوارب.((

وأخرج الحاكم، عن أبي أمامة، قال :طَلَعتْ كفّ مِن السماء، بيْن أصبعيْن من أصابِعها شَعرة بيضاء، فجعلت تَدنو من رأس إبراهيم ثم تَدنو، فألقتْها في رأسه وقالت: أشْعِلْ وقاراً. ثم أوحى الله إليها أن تظهر. وكان أوّل من شاب واختتن .وأنزل الله على إبراهيم مما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم{ :-التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ }إلى قوله{ :وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } و{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ }إلى قوله{ :هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، و{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ }الآية والتي في) سَأَلَ :(و{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ }إلى قوله{ :قَائِمُونَ}، فلم يَفِ بهذه السِهام إلاّ إبراهيم ومحمد -صلى الله عليه وسلم.-

وقد أطنب السيوطي -رحمه الله -كعادته في الاسترسال في ذِكر الأحاديث في السِّواك، والخِتان، والعَقيقة، وتَغيير الشَّيب، وفي خِصال الفِطرة بصفة عامّة، ممّا يُخرجنا عن حَدّ التفسير، وفيما تقدّم كفاية.

كما أطنب أيضاً بذِكْر جملة كبيرة من أخبار إبراهيم -عليه السلام-، ومنها: أوّليّته في بعض الأمور؛ وقد يكون لِما ذَكره في الأوّلية وجْه إذا رُبط بين ذلك وبين قوله تعالى{ :إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}، إلاّ أنّني لم أقف على مَن رَبط هذا الرَّبط، وإن كان له وِجهَة؛ ولذا سأذكر بعضاً ممّا رُوي فيه، وأضرب صَفحاً عن بَقية الآثار- والله الموفِّق.-

أخرج البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم :-))اختتن إبراهيم -عليه السلام- وهو ابن ثمانين سنة بالقَدُّوم.((

وأخرج ابن عدي، والبيهقي في "شعب الإيمان"، عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال)) :كان إبراهيم أوّل مَن اختتن وهو ابن عشرين ومائة سنة، واختتن بالقَدُّوم. ثم عاش بعد ذلك ثمانين سَنة.((

وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة، والحاكم والبيهقي وصحّحاه، مِن طريق سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال)) :اختتن إبراهيم خَليل الله وهو ابن عشرين ومائة سَنة بالقَدُّوم، ثم عاش بعد ذلك ثمانين سَنة.((

قال سعيد: وكان إبراهيم أوّل مَن اختتن وأوّل من رأى الشَّيب، فقال يا ربّ ما هذا؟ قال: وقار يا إبراهيم، قال: ربِّ زدني وقاراً، وأوّلَ مَن أضاف الضَّيف، وأوّل مَن جزَّ شاربَه، وأوّلَ مَن قَصّ أظافيره، وأوّل مَن استحدّ.

وعن سفيان بن عينية، قال: شكا إبراهيم –عليه السلام– إلى ربّه ما يَلقى من رداءة خُلق سارة، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، أنت أوّل مَن تَسرْول، وأوّل مَن فرَق، وأوّل مَن استحدّ، وأوّل مَن اختتن، وأوّل مَن قَرى الضَّيف، وأوّل مَن شاب.

وعن واصل مولى ابن عينية، قال :أوحى الله إلى إبراهيم: يا إبراهيم إنك أكرمُ أهل الأرض إليّ، فإذا سَجدت فلا تُرِ الأرض عَورتَك، قال: فاتّخذ سراويل.

وأخرج الديلمي عن أنس، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–أوّل مَن خَضَب بالحِنّاء والكَتَم: إبراهيم –عليه السلام.((–

وعن سعد، عن إبراهيم، عن أبيه، قال :أوّل مَن خَطب على المِنبر: إبراهيم –عليه السلام– حين أَسِر لوط واستأسَرتْه الروم، فغَزا إبراهيمُ حتى استنقذه من الروم.

وعن حسان بن عطية، قال: أوّل مَن رتَّب العَسكَر في الحَرب مَيمنة ومَيسرة وقلباً :إبراهيم – عليه السلام–، لما سار لقِتال الذين أسَروا لوطاً– عليه السلام.–

وعن ابن عباس، قال: أوّل مَن عَمل القِسيّ: إبراهيم –عليه السلام.–

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب" الإخوان"، والخَطيب في "تاريخه"، والديلمي في "مسند الفِردوس"، والغَسولي في "جُزئه" المشهور عن تميم الداري: أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– سُئل عن مُعانَقة الرّجُل الرّجُل إذا لقِيَه، قال)) :كانت تَحيّة الأمم((، وفي لفظ :))كانت تَحيّة أهل الإيمان وخالِص ودِّهم. وأوّل مَن عانَق: خَليلُ الرّحمن((، وذكر حديثاً طَويلاً وفيه)) :فيومئذ كان أصْل المعانقة، وكان قبل ذلك السجود، هذا لهذا وهذا لهذا. ثم جاء الصِفاح مع الإسلام؛ فلم يُسجَد ولم يُعانَق، ولن تَفْتَرق الأصابع حتى يُغْفَر لكلّ مُصافِح.((

وعن نوف البكالي، قال: قال إبراهيم –عليه السلام–: يا ربّ، إنه ليس في الأرض أحَد يَعبدك غَيري. فأنزل الله –عز وجل– ثلاثة آلاف مَلَك فأمَّهم ثلاثة أيام.

وأخرج ابن أبي شيبة في "المصنف "واللفظ له، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، عن ابن عباس، قال: قام فينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال)) :أوّل الخَلائق يُلقَى بثوب– يعني يوم القيامة–: إبراهيم –عليه السلام.((–

ونقل القرطبي: أنه أوّل مَن بَرَدَ البَرِيد، وأوّل مَن ضَرب بالسيف، وأوّل مَن استاك، وأوّل مَن استنجى بالماء. قال: ورُوي عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم :-))إنْ أتّخِذ المِنبر فقد اتّخذَه أبي إبراهيم، وإن أتّخِذِ العَصا فقد اتّخذها أبي إبراهيم.((

قال ابن كثير: هذا حديث لا يَثبت- والله أعلم.-

وأخرج ابن جرير وغيره، عن معاذ بن أنس، قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول :))ألاَ أخبركم لِمَ سَمَّى اللهُ إبراهيمَ خليلَه الَّذِي وَفَّى؟ لأنه كان يقول كلّما أصبح، وكلّما أمسى : سبحان الله{ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ }...حتى يَختم الآية.((

وأخرج أيضاً، هو وآدم بن أبي إياس، وعبد بن حُميد، وغيرهم، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم{()) :-وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}، أتدْرون ما وفَّى؟ ((قالوا: الله ورسوله أعلم. قال)) :وفَّى عَمل يومِه: أربع ركعات في النهار.((

قال ابن كثير: ثم شَرع ابن جَرير يُضعِّف هذيْن الحديثيْن، وهو كما قال؛ فإنه لا تَجوز روايتهما إلاّ ببيان ضَعفهما. وضَعفهما من وجوه عَديدة، فإنّ كُلاً مِن السّنديْن مُشتمل على غير واحد من الضُّعفاء، مع ما في متن الحديث ممّا يَدلّ على ضَعفه -والله أعلم.-

وعن ابن عباس، قال{ :إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }يُقْتَدى بدِينك، وهَدْيك، وسُنّتك، قال: ومِن ذرّيّتي إماماً لغير ذُرّيتي. قال{ :لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }أن يُقتدى بدِينهم، وهَديهم، وسُنّتهم.

عن الربيع، في قوله{ :إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً :}يُؤتمّ به ويُقتدَى .قال إبراهيم{ :وَمِنْ ذُرِّيَّتِي }فاجعل مَن يؤتَمّ به ويُقتدَى به.

وأخرج وكيع وابن مردويه، عن عليّ بن أبي طالب، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، قال)) :لا طاعة إلاّ في المعروف.((

وأخرج أحمد وغيره، عن علي بن أبي طالب، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال)) :لاَ طاعة لِمخلوق في مَعصية الله- عز وجل.((-

وأخرج عبد بن حُميد، عن عمران بن حصين مِثله.

وأخرج عبد بن حُميد، عن إبراهيم، قال: لا طاعة مُفترَضة إلاّ لنَبيّ.

عن ابن عباس قال: قال الله لإبراهيم{ :إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، فأبى أن يفعل، ثم قال{ :لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.}

وعن ابن عباس{ :قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ :}يُخبره أنه كائن في ذُرِّيّته ظالِمٍ لا ينال عَهده، ولا ينبغي له أن يُولِيَه شيئاً من أمْره، وإن كان من ذُرية خَليله، ومُحسن ستَنفذ فيه دَعوته، ويَبلغ له فيه ما أراد من مَسألته.

عن ابن عباس{ :لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، قال: يعني: لا عَهد لظالِمٍ عليك في ظُلمه أن تُطيعه فيه.

عن ابن عباس، قال{ :لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ :}ليس للظالمين عهْد، وإن عاهدْتَه فانْقضْه.

ورُوي عن مقاتل بن حيان نحو ذلك.

عن مجاهد، في قوله{ :لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، قال: إنه سيكون في ذُرّيّتك ظالمون.

عن مجاهد، قال{ :لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، قال: لا يكون لي إمام ظالِم. وفي رواية: لا أجعل إماماً ظالِماً يُقتدَى به.

عن مجاهد، في قوله{ :وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، قال: أمّا مَن كان منهم صالحاً فسأجعله إماماً يُقتدَى به، وأمّا من كان ظالِماً فلا –ولا نِعمة عَين.–

وقال سعيد بن جُبير{ :لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ :}المراد به المشرِك؛ لا يكون إمام ظالِم. يقول: لا يكون إمام مُشرك.

عن عطاء قال{ :إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، فأبى أن يَجعل من ذُريته إماماً ظالِماً. قلت لعطاء: ما عهْده؟ قال: أمْره.

عن هارون بن عَنترة، عن أبيه، قال :ليس لظالِمٍ عَهد.

عن قتادة في قوله{ :لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، قال: لا يَنال عَهدُ الله في الآخرة الظالمين، فأمّا في الدنيا فَقد ناله الظالِم فأمِن به، وأكل وعاش.

وفي لفظ: قال: هذا عند الله يوم القيامة، لا ينال عهدُه ظالِماً. فأمّا في الدنيا، نالوا عَهده فوارثوا به المسلمين، وغازوهم، وناكحوهم. فلمّا كان يوم القيامة قصَر الله عَهدَه وكَرامته على أوليائه.

وكذا قال إبراهيم النخعي، وعَطاء، والحسن، وعكرمة.

وقال الربيع بن أنس: عَهْد الله الذي عَهِد إلى عِباده: دِينه، يقول: لا ينال دِينُه الظالمين، ألا ترى أنه قال{ :وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}، يقول: ليس كلّ ذُريتك يا إبراهيم على الحقّ.

وكذا رُوي عن أبي العالية، وعطاء، ومقاتل بن حيان.

وعن الضحاك: لا ينال طاعتي عَدوّ لي يَعصيني، ولا أنحَلها إلاّ ولياً لي يُطيعُني.

وقال السدي{ :لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، يقول: عَهدي نُبوّتي.

أقوال المفسّرين.

يقول تعالى، مُنبّها على شَرف إبراهيم خليله –عليه السلام–، وأنّ الله تعالى جعَلَه إماماً للناس يُقتدى به في التوحيد، حين قام بما كلَّفه الله تعالى به مِن الأوامر والنواهي، ولهذا قال : {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ }أي: واذكرْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين، وأهل الكتابيْن الذين يَنْتحِلون مِلّة إبراهيم، وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مُستقيم، فأنت والذين معك من المؤمنين؛ اذكرْ لهؤلاء ابتلاءَ الله إبراهيمَ، أي: اختباره له بما كلَّفه به من الأوامر والنواهي، {فَأَتَمَّهُنَّ }أي: قام بهنّ كلّهنّ، كما قال تعالى{ :وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}، أي: وفَّى جميع ما شُرِع له فعَمِل به– صلوات الله عليه–، وقال تعالى{ :إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .}وقال تعالى{ :قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، وقال تعالى{ :مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ.}

وقوله تعالى{ :بِكَلِمَاتٍ }أي: بشَرائع وأوامر ونواهٍ؛ فإن الكلمات تُطلق ويُراد بها :الكلمات القَدَرية، كقوله تعالى عن مريم –عليها السلام{ :–وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}، وتُطلق ويُراد بها :الشَّرعية، كقوله تعالى{ :وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً }أي: كلماته الشَّرعية .وهي إمّا خَبر صِدق وإمّا طَلَب عَدْل، إن كان أمراً أو نهياً؛ ومن ذلك: هذه الآية الكريمة.

وقد اختُلف في تفسير الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل –عليه السلام–، كما تقدّم.

وقال الآلوسي، معُدِّداً بالتفصيل ما في رواية ابن عباس، أنها ثلاثون سَهما: فالذي في (براءة): التوبة، والعبادة، والحَمد، والسِّياحة، والركوع، والسجود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحِفظ لحُدود الله تعالى، والإيمان المستفاد مِن{ :وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}، أو مِن{ :إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، وفي (الأحزاب): الإسلام، والإيمان، والقُنوت، والصِّدق، والصَّبر، والخُشوع، والتَّصدّق، والصّيام، والحِفظ للفُرُوج، والذِّكْر، والذي في (المؤمنين): الإيمان، والخُشوع، والإعراض عن اللّغو، والزكاة، والحِفظ للفُرُوج إلاّ على الأزواج أو الإماء ثلاثة، والرعاية للعهد والأمانة اثنيْن، والمحافظة على الصلاة؛ وهذا مَبنيّ على أنّ لُزوم التَّكرار في بَعض الخِصال بعد جَمْع العشرات المذكورة كالإيمان والحِفظ للفُرُوج، لا يُنافي كَونها ثلاثين تَعْداداً، إنما يُنافي تغايرها ذاتاً.

قال ابن جرير ما حاصله: أنه يَجوز أن يكون المراد بالكلمات جَميع ما ذُكِر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يَجوز الجَزم بشيء منها أنه المراد على التَّعيين إلاّ بحديث أو إجماع. قال: ولم يَصحّ في ذلك خَبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إن الذي قاله مجاهد، وأبو صالح، والربيع بن أنس، أوْلى بالصواب، كان مذهباً، لأنّ قوله{ :إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}، وقوله{ :وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ}، وسائر الآيات التي هي نظير ذلك، كالبيان عن الكلمات التي ذَكَر الله أنه ابتلى بهنّ إبراهيم.

قال ابن كثير: والذي قاله أوّلاً مِن أنّ الكلمات تَشمل جَميع ما ذُكر، أقوى من هذا الذي جَوَّزه من قول مجاهد ومَن قال مثله، لأن السياق يُعطي غير ما قالوه –والله أعلم.–

{فَأَتَمَّهُنَّ :}الضَّمير لإبراهيم- عليه السلام-، أي: قام بهن، وأتى بهنّ على الوَجه الأتم، وأدَّاهن، أو أتمَّها، بأن راعى شُروط الإجابة فيها ولم يأت بعدها بما يُضيِّعها.

وقيل: الضَّمير لله -عز وجل-، والمعنى: يَسَّر الله له العَمل بهنّ، وقوَّاه على إتمامهنّ، أو أتمّ له أجورهنّ، أو أدامهنّ سُنّة فيه وفي عَقِبه إلى يوم القيامة{ .قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }أي: جَزاءً على ما فَعَل، كما قام بالأوامر وتَرَك الزَّواجر، جعّله الله للناس قُدوة وإماماً يُقتدَى به ويُحتذَى حَذوه.

قال الآلوسي: والإمام بحَسَب المفهوم، وإن كان شاملاً للنبيّ، والخَليفة، وإمام الصلاة، بل كلّ مَن يُقتدى به في شَيء ولو باطلاً، كما يشير إليه قوله تعالى: }وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ{، إلاّ أنّ المراد به ههنا: النبيّ المقتدى به؛ فإنّ مَن عَداه لكونه مأموم النبي ليست إمامته كإمامته، وهذه الإمامة إمّا مُؤبّدة، كما هو مُقتضى تَعريف الناس، وصيغة اسم الفاعل الدال على الاستمرار، ولا يَضرّ مَجيء الأنبياء بعْده، لأنه لم يُبعث نَبيّ إلاّ وكان مِن ذُريته ومأموراً باتّباعه في الجُملة لا في جَميع الأحكام، لعَدم اتفاق الشرائع التي بعْده في الكلّ، فتكون إمامته باقية بإمامة أولاده التي هي أبعاضه على التناوب، وإمّا مُؤقّتة بناء على أنّ ما نُسخ ولو بعْضه لا يُقال له مُؤبّد، وإلاّ لكانت إمامة كل نَبي مُؤبدة، فالمراد من الناس حينئذ أمته الذين اتبعوه، ولك أن تَلتزم القَول بتأبيد إمامة كلّ نَبيّ ولكن في عقائِد التوحيد، وهي لم تُنسخ، بل لا تُنسخ أصلاً، كما يُشير إليه قوله تعالى: }أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ{.

وقوله{ :قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، لما جَعل الله إبراهيم إماماً، سأل أن تكون الأئمة مِن بَعْده من ذُريته، فأجيب إلى ذلك، وأُخبر أنه سيكون من ذُريته ظالمون، وأنه لا يَنالُهم عَهدُ الله ولا يَكونون أئمة، فلا يُقتدى بهم. والدليل على أنه أجيب إلى طُلبته: قول الله تعالى في سورة (العنكبوت){ :وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}، فكلّ نَبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله -بعد إبراهيم -ففِي ذُرّيّته صلوات الله وسلامه عليه.

وأمّا قوله تعالى{ :قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، فقد اختلفوا في ذلك، كما سَبق في الآثار. وقال ابن كثير، بعد أن ساقها: فهذه أقوال مُفسّري السَّلف في هذه الآية، على ما نَقله ابن جرير، وابن أبي حاتم –رحمهما الله تعالى .–واختار ابن جرير أنّ هذه الآية، وإن كانت ظاهِرة في الخَبر أنه لا يَنال عَهدُ الله بالإمامة ظالِماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل –عليه السلام–، أنه سيُوجد من ذُريتك مَن هو ظالِم لنفسه –كما تقدم عن مجاهد وغيره، والله أعلم.–

المعنى الإجمالي.

يُذكِّر الله تعالى عِباده بمَنزلة إبراهيم –عليه السلام– الذي يَنتسب له أصحاب الديانات الثلاثة، ويَفخر مشركو مكة بأنهم أتباع إبراهيم –عليه السلام–، وما كان منه من استيفاء تام لأمور الدِّين، وتَطبيق كامل لها على الوجه المِطلوب، ومِن ذلك: خِصال الفِطرة، ومناسك الحج، والصَّبر على الابتلاءات المتكرّرة، والثبات على الدِّين، فكافأه الله بأن جَعله إماماً للناس، يُقتدَى به ويُهتدى بفعاله. فسأل الله تعالى أن يَجعل ذلك أيضاً حاصِلاً في أبنائه، فأجابه لذلك مُستثنياً منهم الظالِمين، لأنهم لا يَستحقون أن يكونوا قُدوة لغيرهم، ولا يجوز أن يُولَّوْا أمْر الناس وليس لهم طاعة في ظُلمهم، ولا كَرامة.

من مسائل الآية.

قال ابن خويز مِنداد المالكي: الظالم لا يَصلح أن يكون خَليفة، ولا حاكماً، ولا مُفتياً، ولا إمام صلاة، ولا شاهداً، ولا راوياً.

قال الزمخشري: قالوا: في هذا دليل على أنّ الفاسِق لا يَصلح للإمامة، وكيف يَصلح لها من لا يَجوز حُكمُه وشهادته، ولا تَجب طاعته، ولا يُقبل خَبره، ولا يُقدَّم للصلاة. وكان أبو حنيفة– رحمه الله– يُفتي سِراً بوجوب نُصرة زيد بن علي –رضوان الله عليهما –وحَمْل المال إليه، والخُروج معه، على اللص المتغلّب المتسمَّى بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه.

وقالت له امرأة: أشرتَ على ابني بالخُروج مع إبراهيم ومحمد، ابنَيْ عبدِ الله بن الحسن حتى قُتل، فقال: ليتني مكان ابنك! وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مَسجد وأرادوني على عدّ آجُرّه، لما فَعلت.

وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط، وكيف يَجوز نَصْب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكفّ الظَّلَمة، فإذا نُصِب مَن كان ظالِماً في نَفسه فقد جاء المثل السائر، "مَن استرعى الذِّئبَ ظَلَم."

وقال الآلوسي: إذا تحقّق الاتّصاف بالظُّلم كما في الفاسِق، عُلِم عَدم حُصول الإمامة بعد ما دام اتّصافه بذلك، واستفادة عَدم صلاحية الفاسِق للإمامة على ما قَرّرنا من مَنطوق الآية وجُلُّها من دلالة النص أو القياس، وكان الظاهر أنّ الظُّلم الطارئ، والفِسْق العارض، يَمنع عن الإمامة بقاء، كما منع عنها ابتداء، لأن المنافاة بين الوَصفيْن مُتحقّقة في كلّ آن، وبه قال بعض السلف. إلاّ أنّ الجُمهور على خِلافه، مُدَّعين أنّ المنافاة في الابتداء لا تَقتضي المنافاة في البقاء، لأن الدَّفع أسهل من الرَّفع.

قال: وهذا الذي قالوه إنما يُسلَّم فيما إذا لم يَصل الظّلم إلى حَدّ الكفْر، أمّا إذا وصل إليه، فإنه ينافي الإمامة بقاء أيضاً بلا رَيب، ويَنعزل به الخليفة قطعاً.

قلت: الخروج على أئمّة الجَور المسلمين كان مذهباً لبعض السلف في القديم، واستقر الأمر على المنع منه، لِما يَترتّب عليه من مفاسد أعظم، والمسألة مَبثوثة في كُتب العقائد .والله تعالى أعلم.

الأسئلة :

١. إبراهيم اسم علم أعجمي معناه قبل النقل : عبد الله (خطأ) .

٢. إبراهيم اسم علم أعجمي معناه قبل النقل : أب رحيم (صح) .

٣. الكلمات جمع كلمة ، وهو اللفظ المفرد ولا يطلق على الجمل (خطأ) .

٤. الإمام : اسم للقدوة الذي يؤتم به (صح) .

٥. الذرية : نسل الرجل الصغار والكبار من الواحد وغيره ، وتشمل الآباء على الصحيح لقول الله (أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) (خطأ) .

٦. الذرية : نسل الرجل الصغار والكبار من الواحد وغيره ، ولا تشمل الآباء على الصحيح لقول الله (صحيح) .

٧. ذكر قصة إبراهيم هنا فيها تذكير للمشركين بهذا الإمام الذي بنى البيت الحرام والذي ينسبون إليه ، وفيها تحريض لهم على اتباع هذا النبي الذي يدعو إلى ملته ودينه (صح) .

٨. ورد عن ابن عباس أن الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم هي الطهارة في الرأس والجسد (صح)

٩. عن ابن عباس أن الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم هي ما لاقاه من قومه في سبيل الله وصبره على أمر الله (صح) .

١٠. عن ابن عباس أن من الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم مشاعر الحج (صح) .

١١. ما ورد عن بعض المفسرين أن الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم هي ما جاء بعد هذه الآية من قوله (إني جاعلك للناس إماماً ..) قول ضعيف مرجوح (خطأ) .

١٢. من الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم سنن الفطرة (صح) .

١٣. ثبت في الصحيحين وغيرهما أن سنن الفطرة خمس وهي : الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار وقص الشارب (صح) .

١٤. ما ورد في بعض السنن من أن الفطرة عشر ضعيف شاذ مخالف لرواية الصحيحين أنها خمس (خطأ) .

١٥. في صحيح مسلم من حديث أنس قال : وقت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قص الشارب وتقليم الأظفار وحلق العانة ونتف الإبط أن لا تترك أكثر من أربعين يوما (صح) .

١٦. في الترمذي بإسناد حسنه الترمذي : كان النبي ﷺ يأخذ من شاربه قال : لأن خليل الرحمن إبراهيم كان يفعله (صح) .

١٧. في الصحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ أنه قال : خالفوا المشركين ؛ وفروا اللحى وأحفوا الشوارب (صح) .

١٨. ورد أن إبراهيم عليه السلام هو أول من شاب وأول من اختتن وأول من ضاف الضيفان (صح) .

١٩. ما ورد أن إبراهيم اختتن وعمره ثمانين سنة ضعيف والصحيح أنه اختتن وهو ابن مائة وعشرين سنة كما روى البيهقي والحاكم وابن سعد (خطأ) .

٢٠. ورد أن إبراهيم هو أول من رأى الشيب فقال : رب ما هذا ؟ قال : وقار ، قال : رب زدني وقاراً (صح) .

٢١. ثبت أن أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام (صح) .

٢٢. نقل القرطبي عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أتخذ المنبر فقد اتخذه أبي إبراهيم » وصححه ابن كثير (خطأ) .

٢٣. قوله تعالى : (لا ينال عهدي الظالمين) أي : لا يقتدى بهم في هديهم وسنتهم (صح)

٢٤. عن كثير من المفسرين أن قوله (لا ينال عهدي الظالمين) في يوم القيامة ، أما في الدنيا فلهم ذلك (صح) .

٢٥. ورد في الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم أقوال كثيرة في تحديدها ، والصحيح أن كل ما ذكر يدخل فيها ، وأنها جميع ما أمره الله به من أمور الدين والدعوة (صح) .

٢٦. قوله (فأتمهن) إما أن يرجع الضمير إلى إبراهيم بمعنى أتى بهن على الوجه الأتم ، وإما أن يرجع إلى الله عز وجل بمعنى أنه يسر له العمل بهن وقواه على ذلك (صح) .

٢٧. سأل إبراهيم ربه أن يجعل الأئمة بعده من ذريته فأجابه الله إلى ذلك وأخبره أنه سيكون من ذريته ظالمون فلا يكونون أئمة ولا يقتدى بهم (صح) .

٢٨. من فوائد الآية أن الإنسان إذا أطاع الله وصبر على ذلك جعله الله إماماً يقتدى به (صح) .

٢٩. الجمهور من العلماء على أن الظالم لا يكون إماماً وأنه يجب خلعه والخروج عليه إذا كان كذلك (خطأ) .

٣٠. الخروج على أئمة الجور المسلمين وإن كان مذهباً لبعض السلف إلا أن الأمر استقر على منعه لما في ذلك من مفاسد أعظم (صح) .

المحاضرة الثانية والخمسون

***

تفسير الآيتيْن (١٢٥) و (١٢٦)من سورة) البقرة.(

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.}

القراءات:

قرأ نافع، وابن عامر{ :وَاتَّخَذُوا- }بفتح الخَاء- على أنه فعْل ماضٍ، وهو حينئذ معطوف على{ جَعَلْنَا}، أي: واتّخَذ الناس مِن مكان إبراهيم الذي عُرف به، وأسكن ذُرِيَّته عِنده -وهو الكعبة- قِبلة يُصلّون إليها. وقرأ الباقون: بكسر الخَاء على الأمْر بذلك، والمأمور قيل : إبراهيم وذُرِّيّته، وقيل: نبيّنا محمد -صلى الله عليه وسلم -وأمّته.

المناسبة:

لا زال الحديث عن إبراهيم -عليه السلام- وقِصّة بنائه البيت.

لغويّات الآيات.

{ الْبَيْتَ :}اسم غالب للكعبة، كالنجم للثُّريا.

{مَثَابَةً :}مباءة ومرجعاً للحُجّاج والعُمَّار، يتفرّقون عنه ثم يثوبون إليه، أي: يثوب إليه أعيان الذين يَزورونه، أو أمثالُهم.

قال البخاري: يثوبون: يَرجعون.

وقال بعض الشعراء:

جَعل البيت مثاباً لهمُ	ليس منه الدّهرَ يَقضُون الوَطرْ

وقيل: أي مُجمعاً لهم، أو مَعاذاً ومَلجأ، أو مَرجعاً يَحق أن يُرجَع ويُلجأ إليه، أو مَوضع ثواب يُثابون بحَجّه واعتماره. والتاء فيه وترْكها لغتان، كما في مقام ومقامة، وهي لتأنيث البُقعة، وهو قول الفراء والزجاج. وقال الأخفش: إنّ التاء فيه للمبالغة، كما في: نسَّابة، وعلّامة. وأصله :مَثوَبة، على وزن "مَفعَلة": مصدر ميميّ، أو ظرف مكان.

و{مِنْ مَقَامِ{ :}مِنْ }إمّا للتَّبعيض، أو بمعنى: "في"، أو زائدة –على مذهب الأخفش–. والأظهر :الأوّل. وقال القفّال: هي مثل: اتخذْتُ مِن فلانٍ صديقاً، وأعطاني الله تعالى من فلانٍ أخاً صالحاً، دَخلتْ لِبيان المتَّخَذ الموهوب وتمييزِه. والمقام: "مَفعَل" مِن القيام، يُراد به المكان، أي :مكان قِيامه.

{وَإِسْمَاعِيلَ :}علَم أعجمي، قيل: معناه بالعربية "مُطيع الله". وحُكي: أنّ إبراهيم –عليه السلام– كان يَدعو أن يَرزقه الله تعالى ولداً، ويقول: "اسمعْ إيل"، أي: "استجب دعائي يا الله ."!فلمّا رَزقه الله تعالى ذلك، سمّاه بتلك الجُملة. قال الآلوسي :أراه في غاية البُعد. وللعَرب فيه لغتان: اللام والنون في آخِره.

{وَعَهِدْنَا }أي: وصّيْنا، أو أمَرْنا، أو أوْحيْنا، أو قُلْنا. والذي عليه المحقِّقون: أنّ العَهد إذا تعدّى بـ"إلى" يكون بمعنى :التَّوصية، ويتجوّز به عن الأمر.

قال ابن كثير: والظاهر: أنّ هذا الحَرف إنما عُدِّي بـ"إلى" لأنه في معنى: تقدّمنا وأوحيْنا.

{أَنْ طَهِّرَا :}التَّطهير: التَّنظيف مِن كلّ ما لا يَليق، فيدخل فيه: الأوثان، والأنجاس، وجَميع الخبائث، وما يُمنع منه شرعاً، كالحائض عند مَن يرى ذلك. وقيل: المراد بخَّراه، ونظِّفاه، وخلِّقاه، وارفعا عنه الفَرْث والدّم الذي كان يُطرح فيه. وقيل: أخلصاه لمن ذُكِر بحيث لا يَغشاه غيرُهم؛ فالتطهير عبارة عن لازمه. ونُقِل عن السدي: أنّ المراد به: البِناء والتأسيس على الطهارة والتوحيد. قال الآلوسي: وهو بَعيد.

والطائف :اسم فاعل، مِن طَاف به، إذا دار حوْله.

}آمِناً{: ذا أمْن، كقوله: }عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ{، أو آمناً مَن فيه، كقوله: ليلٌ نائم.

{أَضْطَرُّهُ :}الاضطرار: ضِدّ الاختيار، وهو حَقيقة في كوْن الفِعل صادراً من الشخص من غير تعلّق إرادته به، كمَن أُلقِيَ مِن السطح مثلاً، ومجاز في كون الفِعل باختياره لكن بحيث لا يملْك الامتناعَ عنه، بأن عَرض له عارض يَقسره على اختياره، كمَن أكل الميْتة حال المخمَصة، وبكِلا المعنييْن قال البعض.

الآثار الواردة في الآيات.

عن زيد بن أسلم في قوله{ :وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ}، قال: الكعبة.

عن ابن عباس: قوله تعالى{ :وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ}، يقول :لا يَقْضون منه وَطراً، يأتونه ثم يَرجعون إلى أهليهم، ثم يَعودون إليه.

عن ابن عباس، في قوله تعالى{ :وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ}، قال :يثوبون إليه ثم يَرجعون.

ورُوي عن أبي العَالية، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومجاهد، والحسَن، وعطية، والربيع بن أنس، والضحاك، نحو ذلك .

عن عَبدة بن أبي لبابة، في قوله تعالى{ :وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ}، قال: لا يَنصرف عنه مُنصرِف وهو يرى أنه قد قَضى منه وَطراً.

وعن ابن زيد{ :وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ}، قال :يثوبون إليه من البلدان كلِّها ويأتونه.

وقال سعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وعطاء الخُراساني{ :مَثَابَةً لِلنَّاسِ }أي :مَجْمعاً.

وعن عطاء، في قوله{ :وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ}، قال :يأتون إليه من كلِّ مكان.

وعن مجاهد، في قوله{ :مَثَابَةً لِلنَّاسِ}، قال: يأتون إليه لا يَقضون منه وَطراً أبداً، يَحُجّون ثم يَعودون{ .وَأَمْناً }قال: تَحريمه، لا يَخاف مَن دَخَله.

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَأَمْناً}، قال: أمْناً للناس.

وعن أبي العالية{ :وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً}، يقول: أمْناً من العدوّ، وأن يُحمل فيه السِّلاح، وقد كانوا في الجاهلية يُتَخطّف الناس مِن حَولهم وهم آمنون لا يُسْبَوْن.

وروي عن عطاء، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس، قالوا: مَن دَخَله كان آمناً.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :كان الرّجل يَلقَى قاتلَ أبيه أو أخيه فيه، فلا يَعْرِض له.

وأخرج أبو نعيم، من حديث ابن عمر)) :أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– أخذ بيد عمر –رضي الله عنه– فقال: يا عمر، هذا مقام إبراهيم. فقال عمر :أفلا نتخذه مُصلًّى؟ فقال: لم أُومَرْ بذلك، فلم تَغِب الشمس حتى نَزلت هذه الآية.((

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والعَدني، والدارمي، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن أبي داود في "المصاحف"، وابن المنذر، وابن مردويه، وغيرهم، عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقْتُ ربّي في ثلاث، أو وافَقني ربِّي في ثلاث. قُلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ مِن مَقام إبراهيم مُصلًّى؟ فنزلت{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً}، وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البَّرّ والفاجِر، فلو أمرْتَ أمهاتِ المؤمنين بالحِجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. قال :وبلغني معاتبة النبي –صلى الله عليه وسلم– بعض نسائه، فدَخلتُ عليهن فقلت: إنْ انتهيتُنّ أو لَيُبدلنّ الله رسولَه خَيراً مِنكُنّ، حتى أتيت إحدى نِسائه، فقالت: يا عمر أما في رسول الله ما يَعظ نِساءه، حتى تَعظهُنّ أنت؟! فأنزل الله : {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ }...الآية.

وفي رواية لمسلم، قال: وافقتُ ربّي في ثلاث: في الحِجاب، وفي أُسارى بدْر، وفي مَقام إبراهيم .

وفي رواية لابن أبي حاتم، قال عمر بن الخطاب: والثالثة)) :لما مات عبد الله بن أبيّ، جاء

رسول الله –صلى الله عليه وسلم –ليُصلِّي عليه، قلت: يا رسول الله، تصلِّي على هذا الكافر المنافق؟ فقال: إيهاً عنك، يا ابن الخطاب. فنزلت{ :وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ.((}

قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح أيضاً، ولا تَعارُض بين هذا ولا هذا، بلِ الكلّ صحيح، ومَفهوم العَدد إذا عارضّه مَنطوق قُدِّم عليه –والله أعلم.–

وأخرج ابن أبي حاتم، عن جابر، وهو يُحدِّث عن حَجة النبي –صلى الله عليه وسلم– قال :))لما طاف النبي –صلى الله عليه وسلم– قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم. قال: أفلا نَتّخذه مُصلًّى؟ فأنزل الله– عز وجل{ :–وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً.((}

وأخرج عثمان بن أبي شيبة، عن أبي مَيسرة، قال: قال عمر)) :قلتُ: يا رسول الله! هذا مَقام خليلِ ربّنا؟ قال: نعم. قال: أفلا نتّخذه مُصلًّى؟ فنزلت{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً.((}

وأخرج ابن مردويه، عن عمرو بن ميمون، عن عمر بن الخطاب)) :أنه مَرّ بمقام إبراهيم فقال: يا رسول الله! أليس نقوم مقام خليلِ ربّنا؟ قال: بلى. قال :أفلا نَتّخذه مُصلًّى؟ فلم يلبث إلاّ يسيراً، حتى نزلت{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً .((}

وأخرج ابن ماجة، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر، قال)) :لما وقف رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يَوم فتح مكة عند مَقام إبراهيم، قال له عمر: يا رسول الله! هذا مَقام إبراهيم الذي قال الله{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً}؟ قال: نعم.((

قال الوليد: قلت لمالك: هكذا حدَّثك{ وَاتَّخَذُوا} ؟ قال: نعم.

قال ابن كثير: هكذا وَقع في هذه الرواية. وهو غريب.

قلت: لعلّه يَقصد بالغَرابة ضبطَ{ وَاتَّخَذُوا }بالفتح، وهي قِراءة أهل المدينة كما تقدّم. وقد يَقصد بالغَرابة كأنّ الآية مُتقدِّمة على قول عمر –رضي الله تعالى عنه–؛ والصحيح: أنها نزلت بعد قول عمر –رضي الله تعالى عنه–، كما تَقدَّم في النُّصوص الصحيحة الصريحة السابقة.

وأخرج مسلم، وابن أبي داود، وأبو نعيم في "الحِلية"، والبيهقي في "سننه"، عن جابر)) :أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– رَمل ثلاثة أشواط، ومَشى أربعة. حتى إذا فَرغ، عَمد إلى مقام إبراهيم فصلّى خَلْفه رَكعتيْن ثم قَرأ{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى.((}

وروى البخاري، عن ابن عمر، قال)) :قَدِم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فطاف بالبيت سبْعاً، وصلّى خلْف المِقام ركعتيْن .((

وأخرج البيهقي، عن عائشة –رضي الله عنها–: أنّ المِقام كان في زمان رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وزمان أبي بكر مُلتَصقاً بالبيت، ثم أخّره عمر بن الخطاب –رضي الله عنه.–

قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح.

وعن ابن جريج: حدّثني عطاء وغيره مِن أصحابنا قالوا: أوّل مَن نَقَله: عُمر بن الخطاب –رضي الله عنه.–

وعن مجاهد قال: أوّل مَن أخّر المِقام إلى مَوضعه الآن: عمر بن الخطاب –رضي الله عنه .–

وعن ابن عيينة –وهو إمام المكّيّين في زمانه–، قال: كان المِقام مِن سَقْع البيت على عَهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فحَوَّله عمر –رضي الله عنه –إلى مَكانه بعد النبي –صلى الله عليه وسلم–، وبعد قوله{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}، قال: ذهب السَّيل به بعد تَحويل عُمر إيّاه مِن موضعه هذا، فردَّه عمر إليه. وقال سفيان: لا أدري كمْ بينه وبين الكعبة قَبل تَحويله؟ وقال سفيان: لا أدري أكان لاصقاً بها أم لا؟

قال ابن كثير: فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه –والله أعلم.–

وأخرج ابن أبي داود، وابن مردويه، عن مجاهد، قال)) :قال: عمر بن الخطاب: يا رسول الله! لو صلَّيْنا خلْف المقام؟ فأنزل الله{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى .}فكان المقام عند البيت، فحَوَّله رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى مَوضِعه هذا .((قال مجاهد: قد كان عمر –رضي الله عنه– يرى الرأي فيَنزل به القرآن.

قال ابن كثير: هذا مُرسل عن مجاهد، وهو مُخالف لما تقدّم عنه: أوّل مَن أخّر المِقام إلى مَوضعه الآن: عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–. وهذا أصحّ من طَريق ابن مردويه، مع اعتضاد هذا بما تَقدَّم –والله أعلم.–

وعن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً}، فقال: سَمِعت ابن عباس قال: أمّا مَقام إبراهيم الذي ذُكِر ههنا، فمَقام إبراهيم هذا الذي في المسجد. ثم قال: ومَقام إبراهيم بعدُ كَثير، مَقام إبراهيم الحَجّ كُلّه.

ثم فسَّر لي عطاء، فقال: التَّعريف، وصلاتان بعَرفة، والمشعر، ومِنىً، ورَميْ الجِمار، والطَّواف بين الصفا والمروة. فقلت: أفسَّره ابن عباس؟ قال: لا. ولكن قال :مَقام إبراهيم الحَجّ كُلّه.

قلت: أسَمِعت ذلك -لهذا أجمَع-؟ .قال: نَعم، سَمِعْتُه مِنه.

وعن ابن عباس{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً}، قال :مَقام إبراهيم: الحَرَم كلّه.

ورُوي عن مجاهد وعطاء مثل ذلك.

وعن الحسن: أنه الحَجَر الذي وضَعتْه زوجة إسماعيل -عليه السلام- تحت إحدى رجلَيْه وهو راكب، فغَسلتْ أحدَ شِقّيْ رأسه، ثم رفعته من تحتها وقد غاصت فيه، ووضعتْه تحت رجْله الأخرى، فغَسلت شِقّه الآخر وغاصت رجْلُه الأخرى فيه أيضاً.

وقال السدي: المقام: الحَجر الذي وضعتْه زوجة إسماعيل تحت قَدَم إبراهيم، حتى غسلت رأسه. حكاه القرطبي وضعَّفه، ورجَّحه غيره. وحكاه الرازي في تَفسيره، عن الحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس.

وعن سعيد بن جبير{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً}، قال :الحَجَر: مَقام إبراهيم ليَّنه الله، قد جَعله الله رحمة، فكان يقوم عليه، ويُناوله إسماعيل الحِجارة. ولو غُسِّل رأسُه كما يَقولون لاختلف رجلاه.

وأطنب السيوطي هنا أيضاً بذِكْر آثار في أصْل المقام والحجر الأسود، وأنهما من الجَنة، وفَضل مَسحهما، لا نُطيل بذِكرها. ومنها:

ما أخرجه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في "الدلائل"، عن ابن عمرو، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-الرُّكن والمقام ياقوتتان مِن يَواقيت الجَنّة. طَمس الله نُورَهما، ولولا ذلك لأضاءتا ما بيْن المَشرق والمغرب.((

وعن ابن الزبير: أنه رأى قوماً يَمسحون المقام، فقال: لم تُؤمَروا بهذا، إنّما أُمِرْتم بالصلاة عنده.

عن أنس بن مالك، قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه -عليه السلام-، وأخمص قدميْه، غير أنه أذهَبه مَسْحُ الناس بأيديهم.

وعن قتادة{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً :} إنما أُمِروا أن يُصلّوا عنده، ولم يُؤمَروا بمَسْحه. وقد تكلَّفت هذه الأمّة شيئاً ما تَكلَّفتْه الأمم قَبْلها. ولقد ذَكَر لنا مَن رأى أثَر عَقبه وأصابعِه فيه، فما زالت هذه الأمّة يَمسحونه حتى اخلَولَق وانمحَى .

وأخرج الأزرقي، عن أبي سعيد الخُدري، قال: سألت عبد الله بن سلام عن الأثر الذي في المقام، فقال: كانت الحِجارة على ما هي عليه اليوم، إلاّ أنّ الله أراد أن يَجعل المِقام آية من آياته، فلمّا أمَر إبراهيم -عليه السلام- أن يُؤذِّن في الناس بالحَجّ، قَام على المِقام، وارتفع المِقام حتى صار أطول الجبال، وأشرف على ما تَحته، فقال: "يا أيها الناس أجيبوا ربَّكم". فأجابه الناس فقالوا: "لبَّيك اللهم لبَّيك"؛ فكان أثرُه فيه لما أراد الله، فكان يَنظر عن يمينه، وعن شماله: "أجيبوا ربّكم". فلما فرَغ أمَر بالمِقام فوَضعه قِبَله، فكان يُصلِّي إليه مُستقبل الباب؛ فهو قِبلته إلى ما شاء الله. ثم كان إسماعيل بَعدُ يُصلِّي إليه إلى باب الكَعبة. ثم)) كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأُمِر أن يُصلِّي إلى بيت المِقدس، فصلّى إليه قَبل أن يُهاجر وبَعدما هاجر. ثم أحبّ الله أن يَصرفَه إلى قِبلته التي رضي لنفسه ولأنبيائه، فصلّى إلى الميزاب وهو بالمدينة. ثم قَدِم مكة فكان يُصلّي إلى المِقام ما كان بمكة.((

و عن مجاهد، في قوله{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً}، قال :مُدَّعى.

وعن الحسن البصري، قال: ما أعلم بلداً يصلَّى فيه حيث أمر الله -عز وجل- نبيّه -صلى الله عليه وسلم- إلاّ بمكة، قال الله{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً.}

وعن الحسن البصري: قوله{ :وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ}، قال: أمَرهما الله أن يُطهِّراه من الأذى والنَّجس، ولا يُصيبه من ذلك شيء.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهْده؟ قال: أمْره.

و عن عطاء: }وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ{، قال: أمَرْناه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مثل ذلك.

وعن ابن عباس: قوله{ :أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ}، قال: من الأوثان .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير{ :طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ}، إنّ ذلك من الأوثان، والرَّيب، وقَول الزُّور، والرِّجس .

وروي عن عبيد بن عمير، وأبي العالية، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وقتادة{ :أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ }أي: بـ"لا إله إلا الله" مِن الشِّرك .

وعن عبد الرحمن بن زيد{ :أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ}، قال: من الأصنام التي يَعبدون التي كان المشركون يُعظِّمونها.

وعن قتادة، في قوله{ :أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ}، قال: من عِبادة الأوثان، والشِّرك، وقول الزور، وفي قوله{ :وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}، قال: هم مِن أهل الصلاة.

وعن ابن عباس، قال: إذا كان قائماً فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً فهو من العاكفين، وإذا كان مُصلِّياً فهو من الرُّكَّعِ السُّجُودِ.

وعن سويد بن غَفلة، قال: مَن قَعد في المسجد وهو طاهِر، فهو عاكِف حتى يخرج منه.

وعن ثابت، قال: قلتُ لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلاّ مُكلِّم الأمير أنِ امْنعِ الذين ينامون في المسجد الحَرام، فإنهم يُجنبون ويُحْدِثون. قال :لا تفْعل! فإنّ ابن عمر سُئل عَنهم، فقال: هم العَاكِفون.

قال ابن كثير: وقد ثبت في الصحيح :أنّ ابن عمر كان يَنام في مَسجد الرسول –صلى الله عليه وسلم –وهو عَزْب.

وعن سعيد بن جبير: أنه قال: في قوله تعالى{ :لِلطَّائِفِينَ }يعني: مَن أتاه من غُربة، {وَالْعَاكِفِينَ :}المقيمين فيه.

وهكذا روي عن قتادة، والربيع بن أنس: أنهما فسّرا{ الْعَاكِفِين }بأهله المقيمِين فيه، كما قال سعيد بن جبير.

وعن عطاء، في قوله{ :الْعَاكِفِين}، قال: مَن انتابه مِن الأمصار، فأقام عِنده. وقال للمُجاورين :أنتم من{ الْعَاكِفِين.}

وقال عطاء وقتادة: إذا كان مُصلِّياً فهو من{ الرُّكَّعِ السُّجُود.}

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والأزرقي، عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يوم فتح مكة)) :إنّ هذا البلد حَرَّمه الله يوْم خَلَق السموات والأرض؛ فهو حَرام بحُرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يَحِلّ القِتال فيه لأحَد قبلي، ولم يَحِلّ لي إلاّ ساعةً مِن نَهار؛ فهو حَرام بحُرمة الله إلى يوم

القيامة: لا يُعْضَد شَوْكُه، ولا يُنَفَّر صَيْدُه، ولا يَلتَقِط لُقطتَه إلاّ مَن عَرَّفها، ولا يُختلَى خَلاه .((فقال العباس: يا رسول الله! إلاّ الإذخِر، فإنه لقَيْنهم، ولبيوتهم. فقال)) :إلاّ الإذخر.((

وفي "الصحيحيْن"، وغيرهما عن أبي هريرة نحو من ذلك.

وأخرج البخاري تعليقاً، وابن ماجة، عن صفية بنت شيبة، قالت: سَمِعت النبي –صلى الله عليه وسلم –يَخطب عام الفتح، فقال)) :يا أيها الناس، إنّ الله حرَّم مكة يوم خَلق السموات والأرض، فهي حَرام إلى يوم القيامة: لا يُعْضد شَجرُها، ولا يُنفَّر صَيدُها، ولا يأخذ لقطتَها إلاّ مُنشد .((فقال العباس: إلاّ الإذخر، فإنه للبيوت والقُبور. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إلاّ الإذخر.((

وروى البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن أبي شريح العَدوي: أنه قال لعمرو بن سعيد –وهو يَبعث البُعوث إلى مَكة–: ائذنْ لي أيها الأمير، أن أحدِّثك قولاً قام به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الغدَ من يوم الفتح. سَمِعتْه أذناي ووعاه قَلبي، وأبصرتْه عيناي حين تكلّم به .))إنه حَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال :إنّ مكة حرَّمها الله ولم يحرِّمها الناس؛ فلا يَحِلّ لامرئٍ يُؤمِن بالله واليوم الآخِر أن يَسفِك بها دَماً، ولا يَعْضد بها شَجرة .فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقولوا: إن الله أذِن لرسوله ولمْ يأذنْ لكم. وإنما أذن لي فيها ساعةً من نهار، وقد عادت حُرمتُها اليوم، كحُرمتها بالأمس. فلْيبلِّغ الشاهدُ الغائب .((فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك، يا أبا شُريح. إنّ الحَرَم لا يُعيذ عاصياً، ولا فاراً بدَم، ولا فاراً بخَربة.

وروى مسلم، والنسائي، وابن جرير، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إنّ إبراهيم حرَّم بيتّ الله وأمَّنه، وإنِّي حرَّمتُ المدينة ما بين لابتيْها؛ فلا يُصاد صَيدُها، ولا يُقطع عَضاهُها.((

وروى ابن جرير، عن أبي هريرة، قال :قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إنّ إبراهيم كان عبدَ الله وخَليلَه، وإنِّي عبد الله ورسوله. وإنّ إبراهيم حرَّم مكة، وإني حرَّمتُ المدينة، ما بين لابتيْها عَضاهها وصَيدها. لا يُحمل فيها سِلاح لقتال، ولا يُقطع منها شَجرة إلاّ لعَلف بَعير.((

قال ابن كثير: وهذه الطريق غريبة، ليست في شيء من الكتب السِّتّة، وأصل الحديث في صحيح مسلم مِن وجه آخَر عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال)) :كان الناس إذا رأوْا أوّل الثمر، جاؤوا به إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإذا أخذه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال :اللهمّ باركْ لنا في ثَمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعِنا، وبارك لنا في مُدِّنا. اللهم إنّ إبراهيم عَبدُك وخَليلُك ونبيُّك، وإني عَبدُك ونبيُّك. وإنه دعاك لمكّة، وإني أدعوك للمدينة بمِثل ما دعاك لمكة ومِثله مَعه. ثم يَدعو أصغر وليد له، فيعطيه ذلك الثَّمر .((

وفي لفظ)) :برَكة مع بَرَكة .ثم يُعطيه أصغرَ مَن يَحضره من الولدان .((

وروى مسلم، وابن جرير، وغيرهما، عن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-إنّ إبراهيم حرَّم مكة، وإنّي أحرِّم ما بيْن لابَتيْها.((

وفي "الصحيحين"، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأبي طلحة)) :التمِسْ لي غُلاماً مِن غِلمانِكم يَخدِمني((، فخَرج بي أبو طلحة يُخدِّمني، يُرْدِفني وراءه)) .فكُنت أخدِم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كلّما نَزل .((...وقال في الحديث)) :ثم أقبل حتى إذا بدا له أُحُد قال: هذا جبل يُحبُّنا ونُحبّه. فلما أشرف على المدينة قال: اللهمّ إني أحرِّم ما بيْن جبليْها، مثل ما حرّم به إبراهيم مكة. اللهم باركْ لهم في مُدِّهم وصاعهم .((

وفي لفظ لهما)) :اللّهمّ باركْ لهم في مِكيالِهم، وباركْ لهم في صاعهم، وباركْ لهم في مُدِّهم .((

زاد البخاري: يعني: أهل المدينة.

ولهما أيضاً، عن أنس: أنّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال)) :اللّهمّ اجعَلْ بالمدينة ضعفَيْ ما جعلْتَ بمكّة مِن البركة .((

وروى البخاري ومسلم، عن عبد الله بن زيد بن عاصم -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم)) :-إنّ إبراهيم حرّم مكّة ودعا لأهلها، وإنّي حرّمتُ المدينة كما حرّم إبراهيم مكة، وإني دعَوْتُ في صاعها ومُدِّها بمِثلَيْ ما دعا إبراهيم لأهل مكة .((

وروى مسلم وغيره، عن أبي سعيد- رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال :))اللّهمّ إنّ إبراهيم حرّم مكة فجعلَها حراماً، وإنّي حرّمتُ المدينة حراماً ما بيْن مأزميْها ألاّ يُهراق فيها دم، ولا يُحمل فيها سلاح لقتال، ولا يُخبط فيها شجرة إلاّ لعَلف. اللهم بارك لنا

في مدينتنا. اللهم بارك لنا في صاعنا. اللهم بارك لنا في مُدِّنا. اللهم اجعلْ مع البركة بركَتيْن ((الحديث.

قال ابن كثير: والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة، وإنّما أوردنا منها ما هو متعلِّق بتحريم إبراهيم -عليه السلام- لمكة، لِما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة .

وذكر السيوطي -رحمه الله- جملة كبيرة من الآثار في تحريم الله لمكة، وعظم حرمتها وفضْلها، وفي أنصابها، ومَن نصبها وجدّدها، وبعض الحكايات فيمن انتهك حُرمتها.

أمّا قوله تعالى{ :وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ.}

فأخرج الأزرقي، عن محمد بن المنكدر، عن النبي -صلى الله عليه وسلم)) :-لما وضع الله الحرَم نقَل له الطائف من فلسطين.((

وعن محمد بن مسلم الطائفي، قال :بلغني أنه لما دعا إبراهيم للحرَم{ :وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ }نقَل الله الطائف مِن فلسطين.

وعن الزهري، قال: إنّ الله نقَل قريةً مِن قُرى الشام فوضعَها بالطائف، لدعوة إبراهيم -عليه السلام.-

وعن سعيد بن المسيب بن يسار، قال :سمعت بعض ولَد نافع بن جبير بن مطعم وغيره، يذكرون أنهم سمعوا أنه لما دعا إبراهيم بمكة أن يرزق أهله من الثمرات، نقل الله أرض الطائف من الشام، فوضعها هنالك رزقاً للحرم.

عن ابن عباس، في قوله تعالى{ :رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}، قال ابن عباس: كان إبراهيم يُحجِّرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله{ :وَمَنْ كَفَرَ }أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخْلُق خلْقاً لا أرزقهم؟ أمتِّعهم قليلاً، ثم أضطرّهم إلى عذاب النار وبئس المصير. ثم قرأ ابن عباس{ :كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً}، رواه ابن مردويه.

وعن أبي العالية، قال أبيّ بن كعب، في قوله{ :وَمَنْ كَفَرَ :}إنّ هذا مِن قول الرّبّ. قال : {وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً .}وقال ابن عباس: هذا من قول إبراهيم، يسأل ربّه أنّ مَن كفر فأمْتِعْه قليلاً.

وعن محمد بن كعب القرظي، قال: دعا إبراهيم للمؤمنين، وترك الكفّار لَمْ يَدْعُ لهم بشيء، فقال{ :وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.}
وعن مجاهد، في قوله{ :وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ}، قال: استرزق إبراهيم لِمَن آمن بالله وباليوم الآخِر. قال الله :ومَن كفَر فأنا أرزقه.
وهذا قول عكرمة أيضاً.

أقوال المفسِّرين.

مضمون ما فسّر به هؤلاء الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدَراً، مِن كوْنه مثابةً للناس، أي: جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح، وتحنّ إليه، ولا تقضي منه وطراً، ولو تردّدت إليه كلّ عام، استجابةً من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم –عليه السلام– في قوله{ :فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ }إلى أن قال{ :رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ .}ويصِفه تعالى بأنه جعَله أمناً، مَن دخله أمِن، ولو كان قد فعَل ما فعَل ثم دخَله كان آمِناً .
كما وصفها في سورة) المائدة) بقوله تعالى{ :جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ }
أي :يدفع عنهم بسبب تعظيمها السّوء، كما قال ابن عباس: "لو لم يحجّ الناس هذا البيت، لأطبق الله السماء على الأرض."
وما هذا الشرف إلاّ لِشرف بانِيه أوّلاً وهو: خليل الرحمن،كما قال تعالى{ :وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً}، وقال تعالى{ :إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً.}
وفي هذه الآية الكريمة نبّه على مقام إبراهيم، مع الأمر بالصلاة عنده، فقال{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً .}وقد اختلف المفسّرون في المراد بالمقام ما هو؟
قال ابن كثير، بعد سَوْق مجموعة من الروايات:

فهذا كلّه ممّا يدلّ على أنّ المراد بالمقام، إنّما هو الحجَر الذي كان إبراهيم –عليه السلام- يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار، أتاه إسماعيل –عليه السلام- به، ليقوم فوقه ويُناوله الحجارة فيضعها بيده لرفْع الجدار. وكلّما كمّل ناحية، انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه .كلّما فرغ من جدار، نقله إلى الناحية التي تليها، هكذا حتى تمّ جدارات الكعبة –كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخاري. وكانت آثار قدميْه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تَعرِفه العرب في جاهليّتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية :

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة	على قدميْه حافياً غير ناعلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً.

قال ابن كثير: وقد كان المقام مُلصَقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانُه معروف اليوم إلى جانب الباب ممّا يلي الحجَر، يَمْنة الداخل من الباب، في البقعة المستقلّة هناك. وكان الخليل –عليه السلام- لما فرغ من بناء البيت وضَعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتَرَكه هناك؛ ولهذا –والله أعلم- أُمِر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه. وإنّما أخَّره عن جدار الكعبة أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- أحد الأئمة المهدِيّين، والخلفاء الراشدين الذين أُمِرْنا باتّباعهم، وهو أحَد الرّجليْن اللّذيْن قال فيهما رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :-اقْتدُوا باللّذيْن مِن بعْدي أبي بكر وعمر .((وهو الذي نزل القرآن بوِفاقه في الصلاة عنده، ولهذا لم يُنكِر ذلك أحد من الصحابة –رضي الله عنهم أجمعين .-

قال الآلوسي: وذهب النخعي ومجاهد إلى أنّ المراد من مقام إبراهيم: الحرَم كلّه، وابن عباس وعطاء إلى أنه مَواقف الحجّ كلّها، والشعبي إلى أنه عرفة ومزدلفة والجِمار، ومعنى اتّخاذها مُصلّى أن يُدعَى فيها ويُتقرّب إلى الله تعالى عندها. والذي عليه الجمهور، وهو ما قدّمناه أوّلاً، وهو الموافق لظاهر اللفظ ولِعُرف الناس اليوم، وظواهر الأخبار تُؤيّده.

وقال ابن جرير -رحمه الله-: فمعنى الآية: وأَمَرْنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتِي للطّائفين.
والتطهير الذي أمَرهما به في البيت هو: تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه، ومِن الشّرك .
ثم أورد سؤالاً فقال :فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟

وأجاب بوجهيْن: أحدهما :أنه أمَرهما بتطهيره ممّا كان يُعبد عنده زمانَ قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سُنّة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يُقتدى به.

قال ابن كثير: وهذا الجواب مُفرّع على أنه كان يُعبد عنده أصنام قبل إبراهيم -عليه السلام- ، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد -صلى الله عليه وسلم .-

قلت: الأصنام كانت موجودة في زمنه -عليه السلام- بلا شكّ، فما المانع من صحّة هذا الجواب؟ قال تعالى{ :وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .}وعطف ذلك على دعائه للبلَد، كالبيان لوجود ذلك عنده. ثم إنه من البدهي أن تكون عبادة قبيلة جُرهم هي السائدة في المنطقة بعد ما أصبحت تحت سلطتهم. فماذا كانوا يعبدون غير الأصنام؟؟؟

الجواب الثاني :أنه أمَرهما أن يُخلصا في بنائه لله وحْده لا شريك له، فيَبْنِياه مُطهَّراً من الشرك والريب، كما قال جل ثناؤه{ :أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ}، قال: فكذلك قوله{ :وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ :}على طهر من الشرك بي والريب،كما قال السدي{ :أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ :}ابنيا بيتي للطائفين .

وملخّص هذا الجواب :أن الله تعالى أمَر إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-، أن يَبْنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطّائفين به والعاكفين عنده، والمصلّين إليه من الرُّكّع السّجود، كما قال تعالى{ :وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ }الآيات .

والمراد من ذلك: الرّدّ على المشركين الذين كانوا يُشركون بالله عند بيته المؤسَّس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يَصدُّون أهلَه المؤمنين عنه، كما قال تعالى{ :إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .}

ثم ذكَر أنّ البيت إنما أُسِّس لِمَن يعبد الله وحده لا شريك له، إمّا بطواف أو صلاة، فذكر في سورة (الحج) أجزاءها الثلاثة :قيامها، وركوعها، وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدّم {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .}وفي هذه الآية الكريمة ذكَر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكْر الركوع والسجود عن القيام، لأنه قد علِم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلاّ بعد قيام. وفي ذلك أيضاً ردّ على مَن لا يحجّه من أهل الكتابيْن: اليهود والنصارى، لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظَمته، ويعلمون أنه بنَى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئا من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرَع الله له؟

وقد حجّ البيت موسى بن عمران وغيرُه من الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام-، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى{ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .}

وتقدير الكلام إذاً{ :وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ }أي: تقدّمنا بوحْينا إلى إبراهيم وإسماعيل،{ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ }أي: طهّراه مِن الشِّرك والرّيب، وابنياه خالصاً لله، معقلاً للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السّجود.

وقوله تعالى، إخباراً عن الخليل، أنه قال{ :رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً }أي: مِن الخوف لا يرعب أهله. وقد جعل الله ذلك شرْعاً وقدَراً، كقوله تعالى{ :وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً}، وقوله : {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}، إلى غير ذلك من الآيات ... وقد تقدّمت الأحاديث في تحريم القتال فيه. وفي صحيح مسلم، عن جابر: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول)) :لا يحلّ لأحد أن يحمل بمكة السّلاح .((وقال فى هذه السورة{ :رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً }أي: اجعل هذه البقعة بلداً آمناً، وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة (إبراهيم){ :وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً .}

وناسب هذا هناك لأنه- والله أعلم- كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سناً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة؛ ولهذا قال في آخر الدعاء{ :الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ.}

وهل الدعاء بأن يجعله آمناً من الجبابرة والمتغلّبين، أو مِن أن يعود حرَمه حلالاً، أو من أن يخلو من أهله، أو من الخسف والقذف، أو من القحط والجدب، أو من دخول الدّجّال، أو من دخول أصحاب الفيل؟ أقوال. والواقع يردّ بعضها؛ فإن الجبابرة دخلتْه وقَتلوا فيه، كعمرو بن لحي الجرهمي، والحجاج الثقفي، والقرامطة وغيرهم...

وقوله تعالى{ :وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ }أي: مِن أنواعها بأن تجعل قريباً منه قرىً يحصل فيها ذلك، أو تجيء إليه من الأقطار الشاسعة. وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد. روي أن الله سبحانه لما دعا إبراهيم أمَر جبريل فاقتلع بقعة من فلسطين، وقيل من الأردن، وطاف بها حول البيت سبعاً فوضعها حيث وضعها، رزقاً للحرَم، وهي الأرض المعروفة اليوم بالطائف، وسمِّيتْ به لذلك الطواف. قال الآلوسي: وهذا، على تقدير صحّته، غير بعيد عن قدرة الملِك القادر –جلّ جلاله-. وإن أبيتَ إبقاءه على ظاهره، فباب التأويل واسع.

قوله{ :مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً.}

قال محمد بن إسحاق: لما عزل إبراهيم- عليه السلام- الدعوة عمّن أبى الله أن يجعل له الولاية –انقطاعاً إلى الله ومحبّته، وفراقاً لَمن خالف أمرَه وإن كانوا من ذريته، حين عرف أنه كائن منهم ظالم لا ينال عهده بخبر الله له بذلك- قال الله: ومَن كفَر فإني أرزق البَر والفاجر وأمتّعه قليلاً .

وهذا كقوله تعالى{ :إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}، وقوله تعالى{ :وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}، وقوله{ :وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ

لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ.}

وقوله{ :ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }أي: ثم أُلجِئة بعد متاعه في الدنيا وبسْطنا عليه من ظلّها، إلى عذاب النار وبئس المصير. ومعناه :أن الله تعالى يُنظرهم ويُمهلهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى{ :وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ .}وفي "الصحيحيْن)) :"لا أحَد أصْبر على أذىً سمِعَه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم .((وفي الصحيح أيضاً)) :إن الله لَيُملي للظّالم حتى إذا أخَذه لم يُفلته، ثم قرأ قوله تعالى{ :وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.((}

المعنى الإجمالي.

يمتنّ الله سبحانه على عباده بأن جعل لهم بيتَه الحرام تهفو إليه الأفئدة، يرجع إليه الناس عاماً بعد عام، وحكَم على عباده بأن يُبقوا هذا الحرم آمناً لكلّ مَن لاذ به ولجأ إليه، وأمَرهم سبحانه أن يتّخذوا مكان الحجَر الذي قام عليه إبراهيم –عليه السلام– وهو يبني الكعبة مكاناً للصلاة كما اتّخذه مَن سبقهم من الأمم.

ويذكر سبحانه أنه أمّر إبراهيم ومعه ابنه إسماعيل– عليهما السلام– بتطهير مكان البيت عندما أمرهما ببنائه، من كلّ ما لا يليق مِن أوثان ورجس ونجس، لكي يكون مجهزاً لاستقبال الذين أتَوْا إليه لِيعبدوا الله تعالى بأنواع العبادات فيه مِن طواف به ومكث فيه وجلوس وصلاة بركوعها وسجودها.

ثم بيّن سبحانه أن إبراهيم –عليه السلام– قد دعا لمكة بأن يجعلها الله بلداً آمناً، وأن يرزق أهلها من أنواع الثمار والخير والبركة، وخصّ دعوته بالمؤمنين بالله واليوم الآخر؛ فبيّن سبحانه أنه سيشمل بذلك أيضاً الكافر، ولكن سيمتّعه في هذه الدنيا متاعاً قليلاً، والعبرة في الآخرة، حيث يَصلى النار التي لا اختيار له سوى دخولها، وبئست النهاية والمآل.

مسائل الآيات.

الأولى :

اختلف الفقهاء: أيّهما أفضل: الصلاة عند البيت، أو الطواف به؟ فقال مالك: الطواف به لأهل الأمصار أفضل من الصلاة عنده .وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً. وقد ذكر السيوطي آثاراً في ذلك. وقال ابن كثير: وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام .

الثانية:

تطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة في قوله{ :طَهِّرَا بَيْتِي}، ومِن قوله تعالى{ :فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}، ومِن السُّنّة من أحاديث كثيرة، مِن الأمر بتطهيرها وتطييبها، وغير ذلك مِن صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك... ولهذا قال –عليه الصلاة والسلام)) :–إنما بُنِيت المساجد لِما بُنِيَتْ له .((

قال ابن كثير: وقد جمعت في ذلك جزءاً على حِدة، ولله الحمد والمنّة .

الثالثة:

قال ابن كثير: اختلف الناس في أوّل مَن بنى الكعبة؛ فقيل :الملائكة قبْل آدم، روي هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين. ذكره القرطبي وحكى لفظه، وفيه غرابة. وقيل: آدم– عليه السلام–، رواه عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم: أنّ آدم بناه من خمسة أجبل: من حراء، وطور سيناء، وطور زيتا، وجبل لبنان، والجودي. وهذا غريب أيضاً. وروي نحوه عن ابن عباس، وكعب الأحبار، وقتادة. وعن وهب بن منبه : أوّل من بناه شيث –عليه السلام–. وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي ممّا لا يُصدَّق ولا يُكذَّب ولا يُعتمَد عليها بمجرّدها، وأمّا إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

وقال فخر الدين الرازي: الأكثرون من أهل الأخبار على أنّ البيت كان موجوداً قبل إبراهيم على ما روينا فيه من الأحاديث. واحتجّوا بقوله تعالى{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ

وَإِسْمَاعِيلُ}، فدلّ على وجود القواعد قبل ذلك. قال ابن كثير: وفيما قاله نظر؛ فإنه لم يَرِد شيء من الأحاديث المرفوعة تدلّ على ما ذكَره. وفي الاستدلال ممّا ذكَره من الآية نظر، إذ لا يلزم وجود القواعد قبل ذلك –والله أعلم .–

الرابعة:

مسألة تفضيل مكة على المدينة –كما هو قول الجمهور–، أو المدينة على مكة –كما هو مذهب مالك وأتباعه– تذكر في موضع آخَر بأدلّتها. وقد قدّمنا أن السيوطي ذكر روايات في فضل مكة، وفيها تصريح بأنها أحبّ أرض الله إلى الله .

الخامسة:

تمسّك بالآية وبما ورد في أحاديث صحيحة سبَق ذكْرها في الآثار مَن ذَهَب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محرّمة منذ خُلقت مع الأرض، قال ابن كثير: وهذا أظهر وأقوى –والله أعلم .–

وقد وردت أحاديث أخَر تدلّ على أن الله تعالى حرّم مكة قبل خلق السموات والأرض، ذكرنا بعضها في الآثار. قال ابن كثير: فإذا عُلم هذا، فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرّم مكة يوم خلَق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم–عليه السلام– حرّمها، لأن إبراهيم بلّغ عن الله حُكمه فيها وتحريمَه إياها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم –عليه السلام– لها،كما أنه قد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم –مكتوباً عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمجندل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم –عليه السلام{ :–رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ }...الآية. وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علْمه وقدَره. ولهذا جاء في الحديث: أنهم قالوا :يا رسول الله! أخبِرْنا عن بدء أمْرك. فقال :))دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم. ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام .((

السادسة:

قوله{ :آمِناً :}قال بعضهم: لِلجاني الملتجئ إليه من القتل، وهو مذهب الإمام أبي حنيفة، إذ عنده لا يُستوفي قصاص النفس في الحرم، لكن يُضيَّق على الجاني ولا يُكلَّم ولا يُطعَم ولا يُعامَل، حتى يَخرج فيُقتَل. وعند الشافعي: مَن وجب عليه الحدّ والتجأ إليه، يأمر الإمام بالتضييق عليه بما يُؤدِّي إلى خروجه، فإذا خرج أُقيم عليه الحدّ في الحلّ. فإن لم يَخرج، جاز قَتْلُه فيه. وعند الإمام أحمد: لا يُستوفَى من الملتجِئ قصاص مُطلقاً، ولو قصاص الأطراف، حتى يَخرج، وموضع تفصيل ذلك كُتُب الأحكام.

السابعة:

والأمر في قوله{ :وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً }للاستحباب، إذ المتبادَر من المصلَّى موضع الصلاة مُطلقاً، وقيل المراد به :الأمر بركعتَي الطواف، لِما أخرجه مسلم، عن جابر :))أن رسول الله- صلى الله تعالى عليه وسلم- لما فرغ من طوافه، عمَد إلى مقام إبراهيم، فصلّى خلفَه ركعتيْن، وقرأ الآية .((فالأمْر للوجوب على بعض الأقوال، ولا يخفى ضعفُه لأن فيه التقييد بصلاة مخصوصة من غير دليل. وقراءته –عليه الصلاة والسلام- الآية حين أداء الركعتيْن لا يقتضي تخصيصه بهما.

الثامنة :

قرئ شاذاً" :قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتِعْهُ قَلِيلاً"، فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، كما رواه أبو العالية قال: كان ابن عباس يقول: ذلك قول إبراهيم، يسأل ربّه أنّ مَن كفَر فأمْتِعْه قليلاً .
قال ابن كثير: وهي قراءة شاذة مُخالِفة للقرّاء السّبعة، وتركيب السِّياق يأبى معناها –والله أعلم-. فإنّ الضمير في{ :قَالَ }راجع إلى الله تعالى في قراءة الجمهور، والسياق يقتضيه، وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير في{ قَالَ }عائداً على إبراهيم، وهذا خلاف نظم الكلام- والله سبحانه هو العلاّم.-

الأسئلة :

١. قرأ نافع وابن عامر (واتخذوا) بفتح الخاء على أنه فعل ماض ، على معنى أن الناس اتخذوا من مكان إبراهيم الذي عرف به وأسكن ذريته عنده قبلة يصلون إليها ، وقرأ الباقون بكسر الخاء على الأمر (صح) .

٢. البيت : اسم للكعبة إذا أطلق (صح) .

٣. مثابة : موضعاً للثواب ينالون فيه الأجر من الله على الأصح كما قال ابن عباس (خطأ)

٤. (من مقام) : من للتبعيض أو بمعنى في أو زائدة على مذهب الأخفش ، والأول هو الأظهر (صح) .

٥. (وعهدنا إلى) بمعنى : أوحينا ووصينا لأنه تعدى بإلى (صح) .

٦. (أضطره) : الاضطرار ضد الاختيار ، وهو صدور الفعل من الفاعل من غير تعلق بإرادته حقيقة أو مجازاً (صح) .

٧. كون البيت أمناً لأن أهله أمنون من دخول العدو عليهم ومن دخله كان آمناً حتى كان الرجل يرى قاتل أبيه فيه فلا يتعرض له (صح) .

٨. أكثر أهل التفسير أم معنى (مثابة) بمعنى الرجوع فلا يشعر من أتاه بأنه قضى منه وطراً حتى يرجع إليه (صح) .

٩. صح أن أبا بكر الصديق ﵁ وافق ربه في ثلاث منها قوله للنبي ﷺ في مقام إبراهيم : أفلا نتخذه مصلى ؟ فأنزل الله الآية (خطأ) .

١٠. ثبت أن المقام كان ملاصقاً للكعبة وأن عمر ﵁ هو من وضعه في مكانه الآن (صح)

١١. ورد عن ابن عباس أن مقام إبراهيم هو الحرم كله ، وفي رواية : الحج كله (صح) .

١٢. في قوله (أن طهرا بيتي) دليل على عدم جواز دخول المحدث إلى الحرم والطواف بالكعبة كما هو واضح (خطأ) .

١٣. ثبت في الأحاديث الصحيحة أن إبراهيم عليه السلام حرم مكة وأن النبي ﷺ حرم المدينة ودعا لها بالبركة ضعفي ما دعا إبراهيم لمكة (صح) .

١٤. لما دعا إبراهيم لمكة بأن يرزق الله أهلها من الثمرات نقل الله قرية من الشام فوضعها في موضع الطائف الآن رزقاً لأهل مكة كما ورد عن جماعة من التابعين وروي عن النبي ﷺ (صح) .

١٥. الصحيح أن قوله (ومن كفر فأمتعه) من تمام دعاء إبراهيم عليه السلام (خطأ) .

١٦. اختلف العلماء في المراد بمقام إبراهيم ، والصحيح أنه الحجر الذي عليه آثار قدميه والذي كان يقف عليه لبناء الكعبة (صح) .

١٧. اختلف العلماء في المراد بمقام إبراهيم والصحيح أنه الحرم كله ومشاعر الحج كما قال ابن عباس ومجاهد والنخعي والشعبي وأن المراد باتخاذها مصلى هو الدعاء عندها والتقرب إلى الله (خطأ) .

١٨. ذكر الطبري أن الأمر بتطهير البيت يراد منه تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان ، مما كان يعبد هناك من زمان نوح عليه السلام ، ولا إشكال في هذا فإن الأصنام كانت من زمن نوح عليه السلام (صح) .

١٩. الأمر بتطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود هو الإخلاص في بنائه لله وحده وهو أرجح من التفسير بأن المراد بذلك تطهيره من الشرك وعبادة الأوثان لأنه لم يكن هناك أوثان قبل بناء إبراهيم البيت كما هو متفق عليه عند العلماء (خطأ) .

٢٠. في الآية رد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله في بيت الله الحرام وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم (صح) .

٢١. ذكر في هذه الآية الركع السجود ولم يذكر القائمين لأنه من المعلوم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام ، وأما في سورة الحج فذكر الأجزاء الصلاة للصلاة ولم يذكر العاكفين لأنه سبق ذكرهم في قوله (سواء العاكف فيه والباد) (صح) .

٢٢. الآيات تدل على أن الله تعالى قد جعل مكة بلداً آمناً شرعاً وقدراً فلا يحل فيها القتال ولا حمل السلاح ومن دخله كان آمناً لا يعتدى عليه فيه (صح) .

٢٣. ذهب مالك والجمهور إلى أن الطواف بالبيت أفضل من الصلاة عنده بدليل هذه الآي ، وقال الشافعي بأن الصلاة هناك أفضل (خطأ) .

٢٤. اختلف الناس في أول من بنى الكعبة وغالب ما يذكر من الأقوال إنما هو عن أهل الكتاب (صح) .

٢٥. استدل بعض العلماء بأن الكعبة كانت قبل إبراهيم عليه السلام بدليل قوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) فدل على أن القواعد كانت موجودة قبل ذلك ، وهو استدلال صحيح كما قال ابن كثير (خطأ) .

٢٦. الجمهور على أن مكة أفضل من المدينة وذهب مالك وأتباعه إلى أن المدينة أفضل (صح) .

٢٧. لا تعارض بين تحريم إبراهيم لمكة وبين ما ورد في بعض الأحاديث أن الله تعالى حرمها يوم خلق السماوات والأرض لأن إبراهيم عليه السلام بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها (صح) .

٢٨. أكثر العلماء على أنه لا يقتص من الجاني إذا لجأ إلى الحرم واختلفوا ما الذي يفعل به (صح) .

٢٩. الأمر بالصلاة عند مقام إبراهيم للوجوب على الأصح وقد بينت السنة الصحيحة أن المراد بذلك صلاة الركعتين بعد الطواف فإن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ثم صلاهما (خطأ) .

٣٠. الصحيح أن قول (ومن كفر فأمتعه قليلاً) من كلام الله ﷻ لا من كلام إبراهيم عليه السلام (صح) .

المحاضرة الثالثة والخمسون

***

تفسير الآية (١٢٧) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة

التلاوة:

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.}

القراءات:

لا يوجد أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

ما زالت الآيات تترى في قصة إبراهيم وبنائه البيت.

لغويّات.

}الْقَوَاعِدَ{: جمْع قاعدة، وهي: السّارية والأساس والأصْل لِما فوْقه، وهي صفة غالبة، ومعناها: الثابتة.

ومنه: "قعّدك الله" أي: اسأل الله أن يُقعِّدك، أي: يُثبِّتك. ورفْع الأساس: البناء عليها لأنها إذا بُنِيَ عليها نُقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتطاولت بعد التقاصر.

ويجوز أن يكون المراد بها: سافات البناء، لأن كلّ سافٍ قاعدة للّذي يُبنى عليه ويُوضع فوقه.

ومعنى رفْع القواعد: رفْعها بالبناء، لأنه إذا وَضع سافاً فوق ساف فقد رفَع السّافات.

ويجوز أن يكون المعنى: وإذ يرفع إبراهيم ما قعَد من البيت أي: استوطأ، يعني: جعل هيئتَه القاعدة المستوطِئة مرتفعَة عالية بالبناء.

}وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ{: واحدتها: قاعد.

الآثار.

عن ابن عباس قال{ :الْقَوَاعِدِ :}أساس البيت.

وعن ابن عباس{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ}، قال: القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك .

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في "العظمة"، عن ابن عباس، قال: وُضع البيت على أركان الماء، على أربعة أركان، قبل أن تُخلق الدنيا بألفَيْ عام. ثم دُحيَت الأرض من تحت البيت .

وعن وهيب بن الورد، أنه قرأ{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا}، ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن، وأنت مُشفِق أن لا يتقبّل منك؟ !

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والجندي، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في "الدلائل"، عن سعيد بن جبير: أنه قال: سلوني يا معشر الشباب، فإني قد أوشكتُ أن أذهب من بين أظهركم. فأكثر الناس مسألته، فقال له رجل: أصلحك الله، أرأيت المقام، أهو كما نتحدّث؟ قال: وماذا كنت تتحدّث؟ قال: كنّا نقول إنّ إبراهيم حين جاء عَرضت عليه امرأة إسماعيل النزول، فأبى أن ينزل. فجاءت بهذا الحجر. فقال: ليس كذلك. فقال سعيد بن جبير :قال ابن عباس: إنّ أوّل مَن اتّخذ المناطق من النساء: أمّ إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي تُرضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء. ثم قفّى إبراهيم منطلقاً، فتبعتْه أمّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أُنْس ولا شيء؟ قالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليهما .قالت له: آللهُ أمَرَك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضيِّعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنيّة

حيث لا يرَوْنه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدّعوات ورفع يديْه، قال{ :رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .}وجعلت أمّ إسماعيل تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها. وجعلت تنظر إليه يتلوّى، أو قال: يتلبّط. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصّفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثمّ استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداً. فهبطتْ مِن الصّفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعتْ طرف دِرعها، ثم سعتْ سعْي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً. ففعلت ذلك سبْع مرّات. قال ابن عباس :قال النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–فلِذلك سعَى الناس بينهما .((فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه! تريد نفسها. ثم تسمّعت فسمعت صوتاً أيضاً، فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملَك موضع زمزم، فنَحَتَ بعقِبِه –أو قال: بجناحِه– حتى ظهر الماء. فجعلتْ تخوضه بيدِها وتغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي –صلى الله عليه وسلم :–))يَرحم الله أمّ إسماعيل، لو تركت زمزم– أو قال –لو لمْ تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً مَعيناً .((فشربت وأرضعت ولَدَها. فقال لها الملَك: لا تخافي الضيْعة، فإنّ ههنا بيتاً لله –عز وجل– يَبنِيه هذا الغلام وأبوه. وإنّ الله لا يُضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله. فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرهُم أو أهل بيت من جُرهُم مُقبِلين من طريق كذا، فنزلوا في أسفل مكة، فرأَوْا طائراً عائفاً فقالوا: إنّ هذا الطائر ليدور على الماء! لَعهْدنا بهذا الوادي وما فيه ماء !فأرسلوا جرِيّاً أو جريَّيْن فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأمّ إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حقّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي – صلى الله عليه وسلم)) :–فألفَى ذلك أمَّ إسماعيل، وهي تحبّ الأنس .((فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم. وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم، وأنفسَهم وأعجبَهم حين شبّ. فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم. وماتت أمّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوّج إسماعيل يُطالع ترِكتَه فلم يجدْ اسماعيل .فسأل زوجته عنه، فقالت: خرج

يبتغي لنا. ثم سألها عن عيْشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ في ضيق وشدّة. وشكَتْ إليه، قال: إذا جاء زوجُك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يُغيِّر عتبة بابه. فلمّا جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم مِن أحد؟ قالت: نعم .جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألني عنك فأخبرتُه، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا في جهد وشدّة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم .أمَرَني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّرْ عتَبة بابك. قال: ذاك أبي، وأمَرَني أن أفارقك. فالحقي بأهلك. فطلّقها وتزوّج منهم أخرى .فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد ذلك، فلم يجِدْه .فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنتْ على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ فقالت :الماء. فقال: اللهم بارك لهم في اللّحم والماء. قال النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–ولم يكن لهم يومئذ حَبّ، ولو كان لهم حَبّ لدعا لهم فيه .((قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلاّ لم يوافقاه. قال :فإذا جاء زوجك، فاقرئي عليه السلام، ومُريه يُثبّت عتبة بابه .فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسَن الهيئة، وأثنت عليه. فسألني عنك، فأخبرته. وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير. قال: أما أوصاك بشيء؟ قالت: نعم. وهو يقرأ السلام، ويأمرك أن تثبّت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنتِ العتبة، فأمرني أن أُمسِكَك. ثم لبث عنهم ما شاء الله. ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبري نبلاً تحت دوحة قريباً من زمزم .فما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد، ثم قال: يا إسماعيل، إنّ الله أمرني بأمْر. قال: فاصْنعْ ما أمرك .قال: وتُعينني؟ قال: وأُعينُك. قال: فإنّ الله أمرني أن أبْني ههنا بيتاً. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني. حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضَعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان{ :رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .}

قال معمر: وسمعت رجلاً يقول :كان إبراهيم يأتيهم على البراق. قال معمر: وسمعت رجلاً يذكر أنهما حين التقيا بكيا حتى أجابتهما الطير .

وفي لفظ عند البخاري :فجاء، فوافق إسماعيل من وراء زمزم يُصلح نبلاً له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك –عز وجل– أمَرني أن أبْنِيَ له بيتاً. فقال: أطِعْ ربّك –عز وجل–. قال: إنه

قد أمرني أنْ تُعينني عليه. فقال: إذنْ أفعل. أو كما قال. قال: فقام، فجعل إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان{ :رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .}قال: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجَر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان{ :رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.}

قال ابن كثير: والحديث- والله أعلم- إنّ ما فيه مرفوع أماكن صرّح بها ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم .-

وأخرج ابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه في "مسنده"، وعبد بن حميد، والحارث بن أبي أسامة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والأزرقي، والحاكم وصحّحه، والبيهقي في "الدلائل"، عن خالد بن عرعرة: أنّ رجلاً قام إلى علي- رضي الله عنه- فقال: ألا تخبرني عن البيت؟ أهو أوّل بيت وُضع في الأرض؟ فقال: لا، ولكنه أوّل بيت وُضع في البركة،{ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً}، وإن شئتَ أنبأتك كيف بُني. إنّ الله أوحى إلى إبراهيم أنِ ابْنِ لي بيتاً في الأرض. قال: فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً، فأرسل الله السكينة -وهي ريح خجوج ولها رأسان-. فاتّبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة، وأمر إبراهيم، فتطوّتْ على موضع البيت كطيّ الحجَفة. وأُمِر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة. فبنى إبراهيم، فبقي الحجر، فذهب الغلام سعياً، فقال إبراهيم: ابغِني حجراً كما آمُرك. قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجَراً، فأتاه به، فوجده قد ركّب الحجر الأسود في مكانه. فقال: يا أبت! من أتاك بهذا الحجَر؟ فقال: أتاني به من لم يتّكل على بنائك! جاء به جبريل- عليه السلام- من السماء. فأتمّاه .

وأخرج ابن جرير، عن علي بن أبي طالب، قال: لما أُمِر إبراهيم ببناء البيت، خرج معه إسماعيل وهاجر. قال: فلمّا قدم مكة، رأى على رأسه في موضع البيت مثْل الغمامة فيه مثل الرأس فكلّمه. قال: يا إبراهيم، ابْنِ على ظلّي -أو قال: على قدْري-، ولا تزِدْ ولا تُنقص. فلمّا بنى، خرج وخلّف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلى مَن تَكِلنا؟ قال: إلى الله. قالت: انطلق فإنه لا يُضيّعنا ...وذكر قصّة هاجر مختصَرة.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والأزرقي، والحاكم، من طريق سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب: أنّ إبراهيم أقبل من أرمينية، ومعه السكينة

تدلّه، حتى تبوّأ البيت كما تتبوّأ العنكبوت بيتاً. قال: فكشفت عن أحجار لا يطيق الحجَرَ إلاّ ثلاثون رجُلاً. قيل: يا أبا محمد، فإنّ الله يقول{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}، قال: كان ذلك بعْد.

وأخرج الديلمي، عن علي عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، في قوله{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ }...الآية، قال)) :جاءت سحابة على تربيع البيتِ، لها رأس تتكلّم: "ارتفاعُ البيت على تربيعي ."فرفعاه على تربيعها.((

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: لما أهبط الله آدم مِن الجنّة، قال: "إنّي مُهبِط معك بيتاً يُطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويُصلّى عنده كما يُصلَّى عند عرشي". فلمّا كان زمن الطوفان، رفَعه الله إليه، فكانت الأنبياء يحجّونه ولا يعلمون مكانه، حتى بوّأه الله بعْدُ لإبراهيم، وأعلمه مكانَه، فبناه من خمسة جبال: حراء، ولبنان، وثيبر، وجبل الطّور، وجبل الحمر –وهو جبل ببيت المقدس.–

وأخرج ابن سعد في" الطبقات"، عن أبي جهم بن حذيفة بن غانم، قال: أوحى الله –عز وجل –إلى إبراهيم يأمره بالمسير إلى بلده الحرام، فركب إبراهيم البراق، وجعل إسماعيل أمامه وهو ابن سنَتيْن، وهاجرُ خلْفَه، ومعه جبريل –عليه السلام– يدلّه على موضع البيت، حتى قدِم به مكة. فأنزل إسماعيل وأمّه إلى جانب البيت، ثم انصرف إبراهيم إلى الشام. ثم أوحى الله إلى إبراهيم أن يَبْني البيت وهو يومئذ ابن مائة سنة، وإسماعيل يومئذ ابن ثلاثين، فبناه معه .وتوفيّ إسماعيل بعد أبيه فدُفن داخل الحِجْر ممّا يلي الكعبة مع أمّه هاجر. وولي ثابت بن إسماعيل البيت بعد أبيه مع أخواله جُرهم.

وقال السدي: إن الله –عز وجل– أمَر إبراهيم أن يَبني البيتَ هو وإسماعيل: ابنِيَا{ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .}فانطلق إبراهيم– عليه السلام– حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل، وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت .فبعث الله ريحاً يقال لها: الريح الخجوج، لها جناحان ورأس في صورة حيّة، فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس؛ فذلك حين يقول تعالى{ :وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .}فلما بنَيا القواعد فبلغَا مكان الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنيّ! اطلبْ لي حجَرا حسَناً أضعه ههنا. قال: يا أبه! إني كسلان لغِب. قال: عليّ ذلك! فانطلق يطلب له

حجَراً. وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة. وكان آدم هبط به من الجنة فاسودّ من خطايا الناس. فجاءه إسماعيل بحجَر فوجده عند الرّكن. فقال: يا أبت، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك! فبنَيَا، وهما يدعوان الكلمات التي ابتلى إبراهيمَ ربّه، فقال{ :رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .}

وفي لفظ قال: خرج آدم من الجنّة ومعه حجَر في يده وورق في الكفّ الآخَر. فبثّ الورق في الهند، فمنه ما تَرَوْن من الطِّيب، وأما الحجر فكان ياقوتة بيضاء يُستضاء بها. فلمّا بنى إبراهيم البيت... فذكر نحوه.

وعن عطاء بن أبي رباح، قال: لما أهبط الله آدم من الجنة، كانت رِجلاه في الأرض، ورأسُه في السماء، يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم، يأنس إليهم، فهابت الملائكة حتى شكَتْ إلى الله في دعائها وفي صلاتها، فخفّضه الله إلى الأرض. فلما فقَد ما كان يسمع منهم، استوحش حتى شكا ذلك إلى الله في دعائه وفي صلاته، فوُجِّه إلى مكة، فكان موضع قدَمه قرية، وخطْوه مفازة، حتى انتهى إلى مكة. وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به، حتى أنزل الله الطوفان، فرُفعت تلك الياقوتة. حتى بعث الله إبراهيم –عليه السلام– فبَناه، فذلك قول الله تعالى{ :وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ.}

وعن عطاء، قال: قال آدم: إني لا أسمع أصوات الملائكة. قال :بِخطيئتك! ولكن اهْبطْ إلى الأرض، فابْنِ لي بيتاً، ثم احفُف به كما رأيتَ الملائكة تحفّ ببيْتي الذي في السماء. فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل: من حراء، وطور زيتا، وطور سيناء، والجودي، وكان ربَضُه من حراء. فكان هذا بناء آدم، حتى بناه إبراهيم –عليه السلام– بعْد .

قال ابن كثير: هذا صحيح إلى عطاء، ولكن في بعضه نكارة– والله أعلم .–

عن كعب الأحبار، قال:كان البيت غثاءة على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاماً، ومنه دُحِيت الأرض .

وعن قتادة قال: وضَع الله البيت مع آدم؛ أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه في السماء، ورجلاه في الأرض، فكانت الملائكة تهابه، فنقص إلى ستّين ذراعاً. فحزن آدم)إذ فقَد أصواتَ الملائكة وتسبيحَهم، فشكا ذلك إلى الله –عز وجل–،

فقال الله: يا آدم، إني قد أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يُطاف حول عرشي، وتُصلِّي عنده كما يُصلَّى عند عرشي. فانطلق إليه آدم فخرج، ومدّ له في خطْوه، فكان بيْن كلّ خطوتيْن مفازة. فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك، فأتى آدم البيت فطاف به، ومَن بَعْده من الأنبياء .

وعن مجاهد وغيره من أهل العلْم: إنّ الله لما بوّأ إبراهيم مكان البيت، خرج إليه من الشام، وخرج معه بإسماعيل وبأمّه هاجر. وإسماعيل طفل صغير يَرضع، وحُملوا على البراق، ومعه جبريل يدلّه على موضع البيت ومعالِم الحرَم. وخرج معه جبريل فكان لا يمر بقرية إلاّ قال: أبهذه أُمِرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: امضِهْ! حتى قدم به مكة –وهي إذ ذاك عضاه وسلم وسمُر– وبها أناس يقال لهم: العماليق، خارج مكة وما حولها .والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة. فقال إبراهيم لجبريل: أههنا أمِرت أن أضعهما؟ قال :نعم. فعمَد بهما إلى موضع الحِجْر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أمّ إسماعيل أن تتّخذ فيه عريشاً .فقال{ :رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ }إلى قوله{ :لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .}

وعن مجاهد، قال: خلَق الله موضع هذا البيت قبْل أن يخلق شيئاً بألْفيْ سنة، وأركانه في الأرض السابعة.

وعن مجاهد: القواعد في الأرض السابعة .

وعن علباء بن أحمر: أنّ ذا القرنيْن قدِم مكّة، فوجد إبراهيم وإسماعيل يَبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل، فقال: مالكما ولأرضي؟ فقال: نحن عبدان مأموران، أُمِرْنا ببناء هذه الكعبة . قال: فهاتا بالبيّنة على ما تدّعيان! فقامت خمسة أكبش، فقلن :نحن نشهد أنّ إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران أُمِرا ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رضيت وسلّمْت، ثم مضى.

وعن معمر، قال: إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً، حتى إذا غرق قوم نوح رفَعَه، وبقي أساسه، فبوّأه الله لإبراهيم فبناه بعد ذلك؛ وذلك قوله تعالى{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ .}واستودع الركن أبا قبيس، حتى إذا كان بناء إبراهيم، نادى أبو قبيس إبراهيم فقال: يا إبراهيم، هذا الرّكن. فجاء فحفر عنه، فجعله في البيت حين بناه إبراهيم –عليه السلام .–

وأخرج مالك، والشافعي، والبخاري، ومسلم، والنسائي، عن عائشة زوج النبي –صلى الله عليه وسلم–: أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :ألم تَرَيْ أنّ قومكِ حين بنَوا

الكعبة أقصروا عن قواعد إبراهيم؟ .((فقالت: يا رسول الله! ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ قال)) :لولا حدَثَان قومِك بالكفْر .((فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعتْ هذا من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ما أرى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ترَك استلام الركنيْن اللَّذيْن يليان الحَجر، إلاّ أنّ البيت لم يُتمَّمْ على قواعد إبراهيم– عليه السلام.–

وله ألفاظ في "الصحيحيْن"، ومنها)) :لولا حداثة عهدِ قومِك بالكفْر، لَنقضْتُ الكعبة ولَجعلْتُها على أساس إبراهيم؛ فإنّ قريشاً حين بَنَتِ البيتَ استقصرَت، ولجعلتُ لها خَلْفاً .((وفي آخَر)) :يا عائشة، لولا قومك حديثو عهدٍ بشِرْكٍ لهدمْتُ الكعبة فألزقْتُها بالأرض، ولجعلتُ لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وزدتُ فيها ستّة أذرع من الحِجْر؛ فإنّ قريشاً اقتصرتْها حين بنَتِ الكعبة.((

وقد أطنب السيوطي جداً في سوْق الروايات المتعلِّقة بأصل بناء البيت قبْل آدم –عليه السلام– وبَعْده، وما يُقابله في السماء والأرض، وقصّة بناء إبراهيم له، وكم كان طوله وعَرضه، وحجّ الملائكة والأنبياء لهذا البيت، وعِظم حُرمته، وفضْل النّظر إليه، وأصْل الحجَر الأسود وفضْله، ورفْع البيت والحجَر في آخر الزمان، وغير ذلك...

أقوال المفسِّرين.

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ :}عطف على{ :وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ}،{ وَإِذْ }للمضيّ. وآثَر صيغة المضارع مع أنّ القصة ماضية استحضاراً لهذا الأمر ليقتدي الناسُ به في إتيان الطاعات الشّاقّة مع الابتهال في قَبولها، ولِيعلموا عَظمة البيت المبنيّ فيُعظِّموه.

والمعنى: واذكُرْ يا محمد لِقومك بناءَ إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– البيت، ورفْعَهما القواعد منه، وهما يقولان{ :رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .}

وحكى القرطبي وغيره، عن أبيّ وابن مسعود: أنهما كانا يقرآن{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}، ويقولان{ :رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.}

ويدلّ على هذا: قولُهما بَعْده{ :رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ }... الآية؛ فهُما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبّل منهما .

وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخُلّص في قوله{ :وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ }أي: يُعطون ما أعطَوْا مِن الصّدقات، والنّفقات، والقُربات،{ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } أي: خائفة أن لا يتقبّل منهم، كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم .–

وقال بعض المفسرين: الذي كان يرفع القواعد من البيت هو: إبراهيم، والداعي: إسماعيل .

والصحيح: أنهما كانا يرفعان ويقولان كما في الآثار.

وقال ابن كثير، معلِّقاً على أثر السدي: في هذا السياق ما يدلّ على أنّ قواعد البيت كانت مبنيّة قبل إبراهيم، وإنما هُدي إبراهيم إليها، وبُوِّئ لها؛ وقد ذهب إلى ذلك ذاهبون.

وجاء في الصحيح: أنّ قرني الكبش كانا معلّقيْن بالكعبة .

وقد جاء: أنّ إبراهيم –عليه السلام –كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً، ثم يعود إلى أهله بالبلاد المقدّسة –والله أعلم.–

المعنى الإجمالي.

يذكر –سبحانه وتعالى– مَشهداً من أعمال إبراهيم –عليه السلام– وهو: بناؤه الكعبة على قواعدها الأساسية التي دلّه الله عليها، ويرفع هذا البناء، ويُساعده إسماعيل –عليه السلام–، وهما يقولان حال بنائهما{ :رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّك أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، فيطلبان من الله قبول هذا العمل بِجعْله خالصاً له، وابتغاء مرضاته؛ فهو السميع لِما يَدعوانه به، العليم بحقيقة عمَلِهما ونيّتهما فيه.

من مسائل الآية.

الأولى:

قال ابن كثير، معلِّقاً على حديث عليّ بن أبي طالب: في هذا السياق، أنه بنَى البيت قبل أن يفارقهما، وقد يُحتمل إن كان محفوظاً أن يكون أوّلاً وضَع له حوْطاً وتحجيراً، لا أنه بناه إلى أعلاه، حتى كبُر إسماعيل فبنياه معا كما قال الله تعالى .

وقال الآلوسي: أبْعد بعضُهم فزعم أنّ{ إِسْمَاعِيلُ :}مبتدأ، وخبره محذوف، أي: يقول: ربّنا... وهذا ميْل إلى القول بأنّ إبراهيم -عليه السلام- هو المتفرِّد بالبناء، ولا مَدخليّة لإسماعيل فيه أصلاً، بناءً على ما رُوي عن عليّ أنه كان إذ ذاك طفلاً صغيراً. والصحيح: أنّ الأثر غير صحيح.

قلت: الذي ذهب إليه ابن كثير هو الصواب، والأثر ثابت، والنصوص الصحيحة تدلّ على ترتيب الأمر هكذا:

مجيء إبراهيم إلى مكان البيت بهداية الله له ودلالته عليه، ومعه هاجر وإسماعيل وهو رضيع، فحوّط البيت كما دلّه الله تعالى، وترَك أهلَه عنده، ودعا لهم بقوله{ :رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ }...الآية.

وجاءت جُرهم، وترَبّي إسماعيل بينهم، وتزوّج منهم. وكان أبوه يزوره. وفي زيارة له، أخبره بأمْر الله تعالى ببناء البيت، وأن يساعده؛ وهذا هو المراد بالآية هنا.

وبعد انتهاء البناء، أمَر الله سبحانه نبيَّه إبراهيم -عليه السلام- بأنْ يُنادي في الناس بالحجّ. وجاءه جبريل فعلّمه المناسك، وفي خلالها رأى رؤيا الذّبح لِوَلده، فكانت القصّة. وفداه الله بالكبش في الوقت الذي أصبح نُسكا من المناسك الآن، وهو ما يكون يوم النّحر .

وقد وضّحتُ ذلك في "صحيح السيرة النبوية"، فلْيراجِعْه مَن شاء.

الثانية:

أطال ابن كثير بذِكْر قصة بناء قريش للكعبة كاملة، والشّاهد منها المتعلّق بالآية: قوله:

حتى إذا انتهى الهدْم بهم إلى الأساس -أساس إبراهيم -عليه السلام- أفضَوْا إلى حجارة خُضر كالأسنّة، آخذ بعضها بعضاً.

وفيه: أنّ رجلاً من قريش ممّن كان يهدمها، أدخل عتلة بين حجَريْن منها ليقلع بها أحدَهما، فلمّا تحرّك الحجّر تنقّضت مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس.

ثم قال ابن كثير: ولم تزلْ على بناء قريش حتى احترقت في أوّل إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة سِتّين، وفي آخِر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذ نقَضها ابن الزبير إلى

الأرض، وبناها على قواعد إبراهيم -عليه السلام-، وأدخل فيها الحِجْر، وجعل لها باباً شرقياً، وباباً غربياً، مُلصَقيْن بالأرض، كما سمع ذلك من خالته عائشة أمّ المؤمنين -رضي الله عنها-. ولم تزل كذلك مدّة إمارته حتى قتله الحجاج، فردّها إلى ما كانت عليه بأمْر عبد الملك بن مروان له بذلك.

ثم ذكر حديث مسلم عن عطاء، قال :لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية، حين غزاها أهل الشام، فكان مِن أمْره ما كان، ترَكه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم، يريد أن يحزِّبهم أو يُجرِّئهم على أهل الشام. فلمّا صدر الناس قال: يا أيها الناس! أشيروا عليّ في الكعبة ! أنقُضها، ثم أبني بناءها؟ أو أُصلح ما وَهِي منها؟ قال ابن عباس: فإني قد فرَق لي رأي فيها؛ أرى أن تصلح ما وهِي منها، وتدَعُ بيتاً أسلم الناسُ عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبُعث عليها النبي -صلى الله عليه وسلم-. فقال ابن الزبير :لو كان أحدُهم احترق بيتُه ما رضِي حتى يجدِّدَه، فكيف بيت ربّكم- عز وجل-؟! إني مستخير ربي ثلاثاً، ثم عازم على أمري. فلما مضت ثلاث، أجمع رأيَه على أن ينقضها. فتحاماها الناس،؛ أن ينزل بأوّل الناس يَصعد فيه أمرٌ من السماء، حتى صعده رجل، فألقى منه حجارة. فلما لمْ يرَه الناس أصابه شيء، تتابعوا فنقضوه، حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه .

وقال ابن الزبير: إنّي سمعت عائشة- رضي الله عنها- تقول: إنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال)) :لولا أنّ الناس حديثٌ عهدُهم بكفْر، وليس عندي مِن النفقة ما يُقوِّيني على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحِجْر خمسة أذرع، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه .((قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحِجْر، حتى أبدى أُساً نظر الناس إليه، فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً. فلما زاد فيه استقصره، فزاد في طوله عشر أذرع، وجعل له بابيْن أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتل ابن الزبير، كتب الحجّاج إلى عبد الملك يُخبره بذلك، ويُخبره أنّ ابن الزبير قد وضع البناء على أسّ نظر إليه العُدول من أهل مكة. فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء. أما ما زاده في طوله فأقِرَّه، وأمّا ما زاد فيه من الحِجر، فرُدَّه إلى بنائه، وسُدَّ الباب الذي فتحه. فنقضه، وأعاده إلى بنائه .

قال ابن كثير: وقد كانت السُّنّة إقرارَ ما فعَله عبدِ الله بن الزبير –رضي الله عنه–، لأنه هو الذي ودّه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ولكن خشِي أن تُنكِرَه قلوبُ بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام، وقُرْبِ عهْدهم من الكفْر، ولكن خفِيَتْ هذه السُّنَّة على عبد الملك بن مروان؛ ولهذا لما تحقّق ذلك عن عائشة أنّها روت ذلك عن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– قال" :ودِدْنا أنّا تركْناه وما تولَّى."

وذكَر ابن كثير ما رواه مسلم: أنّ الحارث بن عبيد الله وفَد على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظنّ أبا خبيب –يعني ابن الزبير– سمِع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها! قال الحارث: بلَى! أنا سمِعتُه منها. قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إنّ قومَك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حداثة عهدهم بالشِّرك أعدتُ ما تركوا منه؛ فإنْ بدا لقومِك مِن بعدي أن يبْنوه، فهلُمّي لأُرِيَك ما تركوا منه، فأراها قريباً من سبعة أذرع .((

وزاد بعض الرواة: قال النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–ولجعَلْتُ لها بابيْن موضوعيْن في الأرض، شرقياً وغربياً. وهل تَدرين لِمَ كان قومُك رفعوا بابها؟ ((قالت: قلتُ: لا. قال :))تعزّزاً أن لا يدخلَها إلاّ مَن أرادوا. فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدَعونَه حتى يرتقي، حتى إذا كاد أن يَدخل دفعوه فسقط .((قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنتَ سمعْتَها تقول هذا؟! قال: نعم. قال: فنكت ساعة بعصاه، ثم قال: "ودِدتُ أنّي تركته وما تحمّل."

وفي لفظ: فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقُلْ هذا يا أمير المؤمنين! فأنا سمعت أمّ المؤمنين تُحدّث هذا. قال: لو كنتُ سمعتُه قبل أن أهْدمه، لَتركْته على ما بنَى ابنُ الزبير .

قال ابن كثير: فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة، لأنه قد رُوي عنها من طُرق صحيحة متعدّدة؛ فدلّ هذا على صواب ما فعَله ابنُ الزبير، ولو تُرك لكان جيّداً، ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كَرِه بعض العلماء أن يغيّر عن حاله،كما ذُكِر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد، أو أبيه المهدي، أنه سأل الإمام مالكاً عن هدْم الكعبة وردِّها إلى ما فعَله ابن الزبير؛ فقال له مالك :يا أمير المؤمنين، لا تجْعلْ كعبة الله مَلعبةَ للملوك، لا يشاء أحدٌ أن يهدمها إلاّ هدمها !فترَك ذلك الرشيد. نقله عياض والنواوي.

ولا تزال -والله أعلم- هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخرِّبها ذو السويْقتيْن من الحبشة، كما ثبت ذلك في "الصحيحين" عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم :-))يُخرِّب الكعبة ذو السويْقتيْن من الحبشة .((أخرجاه .

وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال)) :كأنّي به أسود أفحج، يقلعها حجَراً حجَراً .((رواه البخاري .

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل، عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول)) :يُخرِّب الكعبةَ ذو السويْقتيْن مِن الحبشة، ويَسلُبها حِلْيتَها، ويُجرِّدها من كِسوتها. ولكأنّي أنظر إليه أصَيْلع أفَيْدع يضرب عليها بمسحاته ومِعْوله.((

والفدَع: زيْغ بين القَدَم وعظْم الساق .

قال: وهذا -والله أعلم- إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لِما جاء في "صحيح البخاري "عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم)) :-لَيُحَجَّنّ البيت ولَيُعتَمَرَنّ بعد خروج يأجوج ومأجوج.((

الأسئلة :

١. القواعد جمع قاعدة وهي السارية والأساس لما فوقها من البناء ، ومعناها الثابتة (صح) .

٢. رفع القواعد معناه : البناء عليها لأنها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع (صح) .

٣. ذهب بعضهم إلى أن معنى رفع القواعد من البيت أي : رفع ما قعد من البيت بمعنى : جعل هيئته القاعدة المستوطئة مرتفعة عالية البناء ، وهو قول معتبر أيضاً (صح) .

٤. ورد عن ابن عباس أن قواعد البيت كانت موجودة قبل بناء إبراهيم عليه السلام (صح)

٥. ورد أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام وأنه ذهب مع طوفان نوح عليه السلام فكانت الأنبياء تحجه ولا تعرف مكانه حتى بناه إبراهيم عليه السلام (صح) .

٦. ثبت أن الحجر الأسود من الجنة جاء به جبريل إلى إبراهيم عليهما السلام فوضعه في موضعه (صح) .

٧. حديث أن الحجر الأسود كان أبيض وسودته ذنوب بني آدم حديث ضعيف (خطأ) .

٨. صح عن النبي ﷺ أن الحجر الأسود كان لا يمسه صاحب عاهة إلا برئ (صح) .

٩. لما خلق الله الأرض جعل موضع الكعبة ياقوتة من الجنة كبيرة ، وكان الأنبياء يحجون إليها حتى ذهبت في طوفان نوح (صح) .

١٠. ورد عن ابن عباس وكعب الأحبار أن البيت كان على الماء قبل خلق الأرض بأربعين سنة ومنه دحيت الأرض (صح) .

١١. عن مجاهد أن قواعد البيت في الأرض السابعة (صح) .

١٢. ثبت في السنة أن بناء البيت الموجود الآن نقص عن قواعد إبراهيم لما بنته قريش وأن النبي ﷺ كان يحب أن يعيده على قواعد إبراهيم ولكن منعه من ذلك أن قريشاً حديثة عهد بكفر (صح) .

١٣. قال تعالى (وإذا يرفع) بالمضارع مع أن القصة ماضية وصدرها بإذ اللتي للمضي ليقتدي الناس بإبراهيم في إتيان الطاعات مع الابتهال في قبولها وليعرفوا عظمة البيت (صح)

١٤. في الآية التنبيه على حال أهل الإيمان من أنهم يعملون العمل الصالح وهم خائفون أن لا يتقبل منهم (صح).

١٥. رجح ابن كثير أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم عليه السلام وإنما هدي إبراهيم إليها (صح) .

١٦. الصحيح أن قواعد البيت لم تكن قبل إبراهيم وإنما بناها إبراهيم مع بناء البيت وأن الذي بوأه الله له هو موضع البيت (خطأ) .

١٧. ما ورد من أن قرني الكبش كانا معلقين في الكعبة ضعيف لا يثبت (خطأ)

١٨. ورد أن إبراهيم كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً ثم يعود (صح) .

١٩. ورد في أثر علي رضي الله عنه أن إبراهيم عليه السلام بنى البيت وإسماعيل صغير وهو أثر ضعيف على الأصح كما قال الألوسي (خطأ) .

٢٠. جمع ابن كثير بين أثر علي في أن إبراهيم بنى البيت وإسماعيل صغير بأنه وضع له حوطاً وتحجيراً ثم بناه مع إسماعيل لما كبر (صح) .

٢١. ذهب بعض المفسرين إلى أن الجملة تنتهي بقوله (من البيت) وإسماعيل مبتدأ ، والمعنى : أن إبراهيم هو الذي بنى البيت وحده وإسماعيل كان يقول : ربنا تقبل .. وهذا تفسير له وجه قوي يوافق أثر علي (خطأ) .

٢٢. في السيرة الصحيحة أن قريشاً لما نقضت الكعبة لإعادة بنائها ووصلت إلى قواعد إبراهيم وأرادت تحريكها رجفت مكة بأكملها فانتهوا عن ذلك (صح) .

٢٣. ورد في الصحيح أنه في زمن ابن الزبير احترقت الكعبة فبناها ابن الزبير على قواعد إبراهيم كما كان يحب النبي ﷺ ثم أعادها الحجاج إلى وضعها بعد قتل ابن الزبير (صح) .

٢٤. رجح ابن كثير أن ما فعله ابن الزبير من بناء الكعبة هو السنة لأنه هو ما وده النبي ﷺ ولكن لما جهل عبد الملك ذلك هدمه وأعاده كما كان (صح) .

٢٥. ما فعله ابن الزبير من بناء الكعبة مخالف للصحيح وإن كان موافقاً لتمني النبي ﷺ وذلك لأن الله تعالى قدر بأن يموت النبي ﷺ وهو على ذلك لم يغيره (خطأ) .

٢٦. لما تأكد عبد الملك بن مروان من أن النبي ﷺ تمنى أن يعيد بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ندم على أنه لم يترك البناء على ما فعله ابن الزبير (صح) .

٢٧. اتفق أهل العلم على ترك البيت على ما هو عليه وكرهوا تغييره حتى لا يكون ألعوبة بين يدي الملوك (صح) .

٢٨. ثبت أن الكعبة ستبقى إلى قرب يوم القيامة حتى يخربها رجل من أتباع الدجال (خطأ)

٢٩. اسم الذي يخرب الكعبة قبل يوم القيامة ذو السويقتين رجل من الحبشة ويأخذ حليها وكنزها (صح) .

٣٠. هدم الكعبة قبل يوم القيامة دليل على قرب زلزلة الأرض لأنها بمثابة الثبات للأرض وبعدم قيامها لا قيام للأرض (صح) .

المحاضرة الرابعة والخمسون

***

تفسير الآيات من (١٢٨) إلى(١٣٤) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.}

القراءات:

لا يُوجد أوجُه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

الآيات استكمال لدَعَوات إبراهيم وإسماعيل عند بناء البيت، وفي الثناء عليه وعلى ذرّيّته واستقامتهم على شريعة الله –عز وجل.–

لغويّات.

{مُسْلِمَيْنِ لَكَ}: مُخلصين لك أوجهنا، من قوله{أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}: ، أو مُستسلمين. يقال: أسلم له، وسلّم، واستسلم، إذا خضع وأذعن .والمعنى: زِدْنا إخلاصاً أو إذعاناً لك .

{وَأَرِنَا :}منقول من: رأى بمعنى: أبصر، أو عرف؛ ولذلك لم يتجاوز مفعولَيْن، أي: وبَصِّرْنا مُتعبَّداتِنا في الحجّ، أو عرِّفْنَاها.

{سَفِهَ نَفْسَهُ :}امتهنها واستخفّ بها، وأصل السّفَه: الخِفّة، ومنه: زمام سَفيه، وقيل : انتصاب النفس على التمييز، نحو: غبِن رأيَه، وألِم رأسَه. وقيل :معناه: سفِه في نفسه، فحذف الجارّ، كقولهم: "زيد ظنّي مقيم" أي: في ظنّي. والوجه هو الأوّل، وكفى شاهداً له: ما جاء في الحديث)) :الكِبْر :أن تَسْفِه الحقّ، وتَغمِصَ النّاس((، وذلك أنه إذا رغب عمّا لا يرغب عنه عاقل قط، فقد بالغ في إذالة نفسه وتعجيزها، حيث خالف بها كلّ نفْس عاقلة.

{مَنَاسِكَنَا :}المِنسَك –بفتْح السِّين، والكسْر شاذّ–: إمّا مصدر، أو مكان. وأصل النُّسُك –بضمّتيْن–: غاية العبادة، وشاع في الحجّ لِما فيه مِن الكلفة غالباً، والبُعد عن العادة.

{وَالْحِكْمَةَ :}وضْع الأشياء مواضعَها، أو ما يُزيل من القلوب وهَج حبِّ الدّنيا، أو الفِقه في الدِّين، أو السُّنَّة المبيِّنة للكتاب، أو الكتاب. وكرّر للتأكيد، اعتناء بشأنه. وقيل غير ذلك...

{يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ :}يقال: رغب عن الشيء، إذا ترَكَه مُتعمِّداً وزَهد فيه، ولَمْ يُرِدْه، بخلاف: رغب فيه، فمعناه: إذا حرص عليه وطمع فيه.

{اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا }أي: اخترناه بالرسالة بتلك المِلّة، واجتبيناه مِن بيْن سائر الخلْق، وأصله :اتّخاذ صفوة الشيء أي: خالِصه.

{وَوَصَّى :}التوصية: التّقدّم إلى الغير بفعْل فيه صلاح وقُربة، سواء كان حالة الاحتضار أو لا، وسواء كان ذلك التّقدّم بالقول أو الدّلالة، وإن كان الشائع في العُرف: استعمالها في

القول المخصوص حالة الاحتضار. وأصلها: الوصْل، مِن قولهم: "أرض واصِية" أي :متّصلة النبات. ويقال: وصّاه إذا وصلَه، وفصّاه إذا فصلَه، كأنّ الموصي يصِل فعْلَه بفعْل الوصيّ.

{يَعْقُوبَ :}نبيّ الله بن نبيّ الله إسحاق بن نبيّ الله إبراهيم –عليهم السلام–. قيل: سمِّي "يعقوب" لأنه وعيصاً كانا توأميْن، فتقدّم عيص وخرج يعقوب على أثره آخذاً بعقِبه، كذا رُوي عن ابن عباس. قال الآلوسي: ولا أظن صحّته.

والشهداء: جمع شهيد، أو شاهد، بمعنى: حاضر.

والأمة :أتت بمعانٍ والمراد بها هنا: الجماعة، مِن أَمّ بمعنى: قَصَد. وسمِّيتْ كلّ جماعة يجمعهم أمْرٌ ما، إمّا دِين واحد، أو زمان واحد، أو مكان بذلك، لأنهم يؤمّ بعضُهم بعضاً ويقصده .

{خَلَتْ :}مِن خلاَ الشّيء خُلُواً، إذا مضى، مِن المضيّ وأصله: الانفراد.

الآثار.

عن عبد الكريم{ :وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}، قال: مُخلِصين لك{ .وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}، قال: مُخلِصة .

وعن سلام بن أبي مطيع، في هذه الآية{ :وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ}، قال: كانا مسلميْن، ولكنّهما سألاه الثّبات .

وقال عكرمة{ :رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}، قال الله: قد فعلْتُ{ .وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}، قال الله: قد فعلتُ .

وقال السدي{ :وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ }يعنِيان :العرب .

وعن عطاء{ :وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا :}أخرِجْها لنا، علِّمْناها .

وقال مجاهد: }وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا{: مذابحنا .

وعن قتادة في قوله{ :وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}، قال: أراهما الله مناسكَهما: الموقف بعرفات، والإفاضة مِن جمْع، ورمْي الجِمار، والطّواف بالبيت، والسّعْي بين الصّفا والمرْوة.

وأخرج ابن خزيمة، والطبراني وصحّحه، والبيهقي في "شُعب الإيمان"، عن ابن عباس، رفَعه، قال)) :لما أتى إبراهيم خليل الله المناسكَ، عَرض له الشيطان عند جمرة العقبة، فرماه بسبْع حصيات حتى ساخ في الأرض. ثم عرض له عند الجمرة الثانية، فرماه بسبْع حصيات حتى ساخ في الأرض. ثم عرَض له عند الجمرة الثالثة، فرماه بسبْع حصيات حتى ساخ في الأرض. قال ابن عباس: الشيطان تَرجُمون، وملّة أبيكم إبراهيم تتّبعون.((

وأخرج الطيالسي، وأحمد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في "شُعب الإيمان"، عن ابن عباس، قال: إن إبراهيم لما أُرِيَ أوامر المناسك، عرض له الشيطان عند المسعَى، فسابقه إبراهيم. ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منىً، فقال: مناخ الناس هذا. فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرّض له الشيطان، فرماه بسبْع حصيات حتى ذهب. ثم أتى به إلى جمرة الوسطى، فعَرض له الشيطان، فرماه بسبْع حصيات حتى ذهب. ثم أتى به إلى الجمرة القصوى، فعرض له الشيطان، فرماه بسبْع حصيات حتى ذهب. فأتى به جمْعاً، فقال: هذا المشعر. ثم أتى به عرَفة، فقال: هذه عرَفة. فقال له جبريل: أعرفْت؟ قال: نعم، ولذلك سمّيتْ: "عرفة". أتَدْري كيف كانت التلبية؟ إنّ إبراهيم لما أُمِر أن يُؤذِّن في الناس بالحج، أُمِرت الجبال فخفضتْ رؤوسها، ورُفعت له القُرى، فأذّن في الناس بالحج.

وعن ابن عباس قال: كان المقام مِن أصْل الكعبة، فقام عليه إبراهيم، فتفرّجت عنه هذه الجبال: أبو قبيس وصواحبه إلى ما بينه وبين عرفات، فأراه مناسكه حتى انتهى إليه. فقال: عرفْتَ؟ قال: نعم. فسُمِّيت: "عرفات."

وعن علي قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، قال: قد فعلت، أيْ ربِّ. فأرِنا مناسكَنا. أبْرِزْها لنا .علِّمْناها. فبعث الله جبريل فحجّ به.

وعن مجاهد، قال: قال إبراهيم :أرِنا مناسكنا. فأتاه جبريل فأتى به البيت. فقال: ارفعِ القواعد. فرفَع القواعد، وأتمّ البنيان. ثم أخذ بيده فأخرجه، فانطلق به إلى الصّفا، قال: هذا مِن شعائر الله. ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله. ثم انطلق به نحو منى. فلمّا كان من العقبة، إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبِّرْ وارْمِه. فكبّر ورماه. ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلمّا حاذى به جبريل وإبراهيم، قال له: كبِّرْ وارْمِه. فكبّر ورماه. فذهب إبليس، وكان الخبيث أراد أن يُدخل في الحجّ شيئاً فلمْ يستطع. فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام. فأخذ بيَد إبراهيم حتى أتى به عرفات. قال: قد عرَفْتَ ما أريتُك؟ -قالَها: ثلاث مرات- قال: نعم. قال: فأذّن في الناس بالحجّ. قال: وكيف أؤذِّن؟ قال: قُل: "يا أيها الناس، أجِيبوا ربّكم! -ثلاث مرات-". فأجاب العباد" :لبّيْك اللهم ربّنا لبّيْك". فمن أجاب إبراهيم يومئذ مِن الخلْق فهو حاجّ.

وعن مجاهد قال: حجّ إبراهيم وإسماعيل وهما ماشيان.

وعن أبي مجلز، في قوله{ :وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}، قال: لما فرغ إبراهيم من البيت، جاءه جبريل فأراه الطواف بالبيت والصفا والمروة، ثم انطلقا إلى العَقبة، فعَرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبْع حصيات، وأعطى إبراهيم سبْع حصيات، فرمى وكبّر وقال لإبراهيم: ارْم وكبِّرْ مع كلّ رمْية حتى أفل الشيطان. ثم انطلقا إلى الجمرة الوسطى، فعَرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبْع حصيات، فرميا وكبّرا مع كلّ رمْية حتى أفل الشيطان. ثم أتيا الجمرة القصوى، فعَرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبْع حصيات وأعطى إبراهيم سبْع حصيات، وقال: ارمِ وكبِّرْ .فرميا وكبَّرا مع كلّ رمْية حتى أفل. ثم أتى به إلى منىً فقال :ههنا يحلق الناس رؤوسهم. ثم أتى به جمْعاً فقال: ههنا يجمع الناس الصلاة. ثم أتى به عرفات فقال: عرفْت؟ قال: نعم. فمِن ثَمّ سُمِّيتْ: "عرفات."

وروي عن قتادة نحو ذلك .

وعن زهير بن محمد، قال: لما فرغ إبراهيم من البيت الحرام قال: أيْ ربِّ، قد فعلْتُ. فأرنا مناسكنا .فبعث الله إليه جبريل فحجّ به، حتى إذا جاء يوم النّحر عرض له إبليس، فقال: احصبْ، فحصَب سبْع حصيات. ثم الغد، ثم اليوم الثالث، فملأ ما بين الجبليْن. ثم علا على منبر، فقال: يا عباد الله، أجيبوا ربّكم. فسمع دعوتَه مِن بين الأبحر ممّن في قلبه مثقال

ذرّة من إيمان، قالوا: "لبّيْك اللهم لبّيْك". قال: ولم يزَل على وجه الأرض سبْعة مسلمون فصاعداً. ولولا ذلك لأُهلِكت الأرض ومَن عليها. قال: وأوّل مَن أجاب حين أذّن بالحج: أهل اليَمَن.

وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في "الدلائل"، عن العرباض بن سارية، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :-إنّي عند الله لخاتَم النبيّين، وإنّ آدم لمنجَدِل في طِينتِه. وسأنبّئُكم بأوّلِ ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمّي التي رأت، وكذلك أمّهات النبيّين يرَيْن.((

وأخرج أحمد، وابن سعد، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي أمامة، قال: قلت: يا رسول اللّه، ما كان أوّل بدْء أمْرِك؟ قال)) :دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأتْ أمِّي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام .((

وأخرج ابن سعد في طبقاته، وابن عساكر، من طريق جويبر، عن الضحاك: أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :أنا دعوة إبراهيم؛ قال وهو يرفع القواعد من البيت{ :رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ }...حتى أتمّ الآية .((

وعن أبي العالية، في قوله{ :رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ }يعني :أمّة محمد –صلى الله عليه وسلم–، فقيل له: قد استُجيب لك، وهو كائن في آخر الزّمان.

وعن السدي، في قوله{ :رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ}، قال: هو محمد –صلى الله عليه وسلم.–

وكذا قال قتادة .

و عن الحسن –رضي الله عنه{ :–وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ }يعني: القرآن،{ وَالْحِكْمَةَ }يعني: السُّنّة.

وقاله مقاتل بن حيان، وأبو مالك، وغيرهم ...

وعن قتادة، في قوله{ :وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}، قال{ :الْحِكْمَةَ :}السُّنَّة. قال: ففعل ذلك بهم، فبعث فيهم رسولاً منهم يعرفون اسمه ونَسبه، يُخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

{وَيُزَكِّيهِمْ}، عن ابن عباس: يعني: طاعة الله والإخلاص .

وعن ابن جريج، في قوله{ :وَيُزَكِّيهِمْ}، قال: يُطهِّرهم مِن الشِّرك، ويُخلِّصُهم منه.

وأخرج أبو داود في مراسيله، عن مكحول، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :–))آتاني الله القرآن، ومِن الحكمة مِثليْه .((

وعن أبي العالية، في قوله{ :الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، قال: عزيز في نِقمته إذا انتقم، حكيم في أمْره.

عن أبي العالية، في قوله{ :وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ}، قال: رغبت اليهود والنصارى عن ملّته، واتخذوا اليهودية والنصرانية بِدْعة ليست من الله، وتركوا ملّة إبراهيم: الإسلام؛ وبذلك بعث الله نبيّه محمداً –صلى الله عليه وسلم– بملّة إبراهيم.

وعن قتادة مثله.

وعن ابن زيد، في قوله{ :إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}، قال: إلاّ مَن أخطأ حظّه.

وعن أبي مالك، في قوله{ :وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ}، قال: اخترناه.

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ}، قال: وصّاهم بالإسلام، ووصّى يعقوب بنيه مثْل ذلك.

وعن فضيل بن عياض، في قوله{ :فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }أي :مُحسنون بربّكم الظّنّ.

وعن الكلبي، قال: وُلد لإبراهيم إسماعيل –وهو أكبر ولَده، وأمّه هاجر، وهي قبطية–، وإسحاق– وأمّه سارة–، ومدْين وبيشان وزمران وأشبق وشوح –وأمّهم قنطوراء من العرب العاربة–. فأمّا بيشان فلحق بنوه بمكة، وأقام مدين بأرض مدين، فسُمِّيتْ به. ومضى سائرهم في البلاد. وقالوا لإبراهيم :يا أبانا، أنزلْتَ إسماعيل وإسحق معك، وأمَرْتَنا أن ننزل أرض الغربة والوحشة؟ قال: بذلك أُمِرتُ. فعلّمهم اسماً من أسماء الله، فكانوا يستسْقون به ويستنصرون.

عن أبي العالية، في قوله{ :أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ }يعني: أهل مكة.

وعن الحسن، في قوله{ :أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ }...الآية، قال: يقول :لمْ تشهد اليهود ولا النصارى ولا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق، إذ حضره الموت: ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه .فأقرّوا بذلك، وشهد عليهم أن قد أقرّوا بعبادتهم وأنّهم مسلمون.

وعن ابن عباس أنه كان يقول: الجدّ أب، ويتلو{ :قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .}

و عن أبي زيد، في الآية، قال: يقال: بدأ بإسماعيل لأنه أكبر.

وعن أبي العالية، في الآية، قال :سمّي العمّ أباً.

وعن محمد بن كعب، قال: الخال والد، العمّ والد، وتلا{ :قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ }... الآية.

وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة{ :تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ }يعني :إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

أقوال المفسِّرين.

قوله تعالى، حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام{ :–رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . }

قال ابن جرير: يعنيان بذلك :واجعلنا مُستسلمَيْن لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نُشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك .

وقال ابن جرير: قوله{ :وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا }الصواب: أنه يعمّ العرب وغيرهم، لأن مِن ذريّة إبراهيم: بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى{ :وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ . }

قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن جرير لا يَنفيه السدي، فإنّ تخصيصهم بذلك لا ينفي مَن عداهم، والسياق إنما هو في العَرب؛ ولهذا قال بعْده{ :رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ }...الآية، والمراد بذلك: محمد –صلى الله عليه وسلم–، وقد بُعث فيهم كما قال تعالى{ :هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ}، ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى{ :قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً}، وغير ذلك من الأدلّة القاطعة .

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل– عليهما السلام– كما أخبر الله تعالى عن عباده المتّقين المؤمنين في قوله{ :وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً}، وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً؛ فإنّ مِن تمام محبّة عبادة الله تعالى: أن يُحبّ أن يكون مِن صُلبه مَن يَعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم– عليه السلام :–

{إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، وهو قوله : {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .}وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة –رضي الله عنه–، عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: أنه قال)) :إذا مات ابن آدم، انقطع عملُه إلاّ من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو عِلْمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له.((

ثم يقول تعالى –إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحَرَم–: أنْ يبعث الله فيهم رسولاً منهم أي: مِن ذرِّيّة إبراهيم. وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدَر الله السابق في تعْيين محمد – صلوات الله وسلامه عليه– رسولاً في الأمِّيّين، إليهم وإلى سائر الأعجميّين، من الإنس والجن، كما سبق ذلك في الحديث المذكور في الآثار. والمراد: أن أوّل مَن نوّه بذِكْره وشهَره في الناس :إبراهيم –عليه السلام–. ولم يزَل ذكْرُه في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً، حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو :عيسى بن مريم –عليه السلام–، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال{ :إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .}ولهذا قال في هذا الحديث)) :دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم.((

وقوله)) :ورأتْ أمِّي أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشام .((قيل: كان مناماً رأتْه حين حمَلتْ به، وقصّتْه على قومها، فشاع فيهم واشتهر بيْنهم، وكان ذلك توطئة .

وتخصيص الشام بظهور نوره: إشارة إلى استقرار دِينه وثبوته ببلاد الشام؛ ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقِلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى بن مريم إذا نزل بدمشق، بالمنارة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في "الصحيحيْن)) :"لا تزال طائفة مِن أمّتي ظاهرين على الحق، لا يضرّهم مَن خذَلهم ولا مَن خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك .((وفي صحيح البخاري)) :وهُم بالشّام .((

وقوله{ :الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ :}تقدّم في الآثار: أنّ الحِكمة السُّنّة، وقيل الحِكمة: الفهْم في الدِّين، ولا منافاة .

وقال محمد بن إسحاق{ :وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}، قال: يُعلِّمهم الخير فيفعَلوه، والشّرّ فيتّقوه، ويُخبرهم بِرضَى الله عنهم إذا أطاعوه، وليستكثروا مِن طاعته، ويجتنبوا ما سخِط مِن معصيته .

وقوله{ :إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }أي: العزيز الذي لا يُعجزه شيء، وهو قادر على كلِّ شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضَع الأشياء في محالّها لعِلْمه وحِكمته وعَدْله.

ثم يقول -تبارك وتعالى{ :-وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ }رداً على الكفّار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرْك بالله، المخالف لملّة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء؛ فإنه جرّد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلمْ يدَعْ معه غيره، ولا أشرك به طرفة عيْن، وتبرّأ من كلّ معبود سواه، وخالف في ذلك سائرَ قومه، حتى تبرّأ من أبيه، فقال{ :يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، وقال تعالى{ :وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}، وقال تعالى{ :وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}، وقال تعالى{ :إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .}

ومعنى قوله{ :وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ }أي: عن طريقته ومنهجه، فيخالفها ويرغب عنها،{ إِلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ }أي: ظلَم نفْسَه بسفهه، وسوءِ تدبيره، بترْكه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق مَن اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد، مِن حداثة سِنّه إلى أن اتّخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فترك طريقه هذا ومَسلكه وملّتَه، واتّبع طُرق الضلالة والغيّ، فأيّ سفَه أعظم من هذا؟ أمْ أيّ ظلْم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى{ :إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .}

ويشهد لصحّة هذا القول: قول الله تعالى{ :مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}، وقوله تعالى{ :إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } أي: أمره تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدَراً .

وقوله{ :وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ }أي :وصّى بهذه الملّة، وهي: الإسلام لله، [أو يعود الضمير على الكلمة، وهي قوله{ :أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ]}لحِرْصهم عليها ومحبّتهم

لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصَّوْا أبناءهم بها مِن بعدهم، كقوله تعالى{ :وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ.}

وأيضاً، فإنّ وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكْرُها قريباً؛ وهذا يدلّ على أنه ها هنا من جملة الموصِين .

وقوله{ :يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }أي: أحْسِنوا في حال الحياة، والزَموا هذا، لِيَرزقكم الله الوفاة عليه؛ فإنّ المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويُبعث على ما مات عليه. وقد أجرى الله الكريم عادتَه، بأنّ مَن قصَد الخير وُفِّق له ويُسِّر عليه، ومن نَوى صالحاً ثُبِّت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح)) :فإنّ الرّجُلَ لَيعمَلُ بعمَل أهلِ الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ باعٌ أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعْمل بعمل أهل النار فيدخل النار. وإنّ الرجُل لَيعمل بعمَل أهلِ النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعْمل بعمَل أهل الجنة فيدخلها .((لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث)) :فيعمل بعمَل أهل الجنّة فيما يبدو للناس، ((وبعمَل أهل النار فيما يبدو للناس .((وقد قال الله تعالى{ :فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى .}

ثم يقول تعالى، مُحتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل –وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم –عليهم السلام –بأنّ يعقوب لمّا حضرتْه الوفاة وصّى بنيه بعبادة الله وحْده لا شريك له، فقال لهم{ :مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}؛ وهذا من باب التغليب، لأنّ إسماعيل عمّه .

]قال النحاس: والعرب تسمّي العمّ أباً، نقله القرطبي .

وقوله{ :إِلَهاً وَاحِداً }أي: نُوحِّده بالألوهية، ولا نشرك به شيئاً غيره{ .وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } أي: مُطيعون، خاضعون، كما قال تعالى{ :وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ.}

والإسلام: هو ملّة الأنبياء قاطبة، وإن تنوّعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ .}والآيات في هذا

كثيرة، والأحاديث؛ فمنها قوله –صلى الله عليه وسلم)) :–نحن معشر الأنبياء أولادُ علاّت، دينُنا واحد .((

وقوله تعالى{ :تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ }أي: مَضَتْ{ .لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ }أي: إنّ السّلف الماضين مِن آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابُكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعُه عليكم؛ فإنّ لهم أعمالهم التي عملوها، ولكم أعمالكم،{ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .}

ولهذا جاء في الأثَر)) :ومَن بَطَّأ به عمَلُه لمْ يُسرِعْ به نسَبُه.((

المعنى الإجمالي.

يذكر الله سبحانه بقيّة دعاء إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– وهما يبنيان الكعبة، حيث سألا الله أن يجعلهما مخلصيْن له إخلاصاً تاماً، مستديميْن على الخضوع له والانقياد، وأن يجعل مِن ذرّيّتهما مَن يكون كذلك خاضعاً مُنقاداً مُخلصاً له سبحانه. وسألاه أيضاً أن يُعلِّمهما مناسك الحجّ لهذا البيت الكريم، وسألاه التوبة والمغفرة تواضعاً منهما له؛ فهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويرحمهم بمَنِّه وكرَمه.

ثم سألاه أن يبعث في ذرِّيَّتهما رسولاً منهم وهو محمد –صلى الله عليه وسلم–، يتلو عليهم آيات الله، ويُعلِّمهم أحكام كتابه، ويكون هدْيُه سُنَّة لهم، ويُرشدهم إلى ما يُزَكّون به أنفسَهم ويُطهِّرونها من الشرك والمعاصي؛ فهو سبحانه القادر على كلّ شيء، العزيز الذي لا يُمانَع، الحكيم في أفعاله وأقواله.

ثم أخبر تعالى أنه لا يترك أحدٌ دِينَ إبراهيم خليلِه، ويبتعد عنه ويزهد فيه، إلاّ إذا كان سفيه العقل، سقيم الفِكر، ظالماً لنفسه، مُضيعاً عليها حظّها وما ينفعها، لأن الله تعالى قد اختاره في هذه الدنيا فكرّمه، وهداه إلى طريق الحق، ورفعه. وهو كذلك في الآخرة من الناجين المفلحين .فأي مكسب أعظم من الجمْع بين خيرَيِ الدنيا والآخرة؟ وما ذلك إلاّ لاستجابته لأمْر الله، وخضوعه له التّامّ، وانقياده المطلق لأمر رب العالمين وفاطر السموات والأرضين.

ثم بيّن -جل وعلا- أنّ مِن حِرْص إبراهيم -عليه السلام- على الدعوة إلى الإسلام والانقياد لله، قد وصّى بنِيه جميعاً به. وكذا فعَل حفيدُه يعقوب -عليه السلام -حيث وصّى أبناءه بذلك، كما فعَل جدّه حيث بيّنَا جميعاً أنّ الله تعالى قد اختار الإسلام ديناً لعباده ولا يرضى سواه، وهو :الإخلاص في العبادة، والاستسلام والانقياد التّامّ لله والخضوع له، ونبْذ الشرْك. فعلى العاقل ألاّ يَلْقَى ربّه تعالى إلاّ عليه، ولا يكون ذلك إلاّ بالحرص على الاستدامة عليه، والتّمسّك به حتى تأتيَه المنيّة.

ثم بيّن سبحانه: أنّ ما أخبر به عن يعقوب إنّما هو مِن الغيْب الذي علّمه رسولَه -صلى الله عليه وسلم-، فلم يكُن أحدٌ حاضراً وشاهداً هذه الوصية المباركة والتوجيه العظيم، عندما داهَم الموتُ هذا النبيّ الجليل، وقال لبنيه مؤكِّداً لهم على الثبات على توحيد الله تعالى وعبادة ربّ الأرباب: ما تعبدون بعد وفاتي؟ فأخبروه أنهم ثابتون على دِينه ودِين آبائه: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، وهو: عبادة الله الواحد القهّار، لا يُشركون به شيئاً، والاستسلام والانقياد له.

ثم يقرِّر -جلّ وعلا- بعد أن حاجّ الكفّار مِن مُشركي مكة وأهل الكتاب، بهذه الأخبار عن نبي الله إبراهيم الذي ينتسبون إليه، وما حصل منهم مِن مخالفة لِدِينه ودِين ذرّيّته، أنّ هؤلاء الأنبياء المكرَّمين ومَن تَبعَهم من الصالحين جماعة قد مضتْ أيّامُهم وأفْضَوْا إلى ربهم، قد أحصى الله لهم ما اكتسبوا من العمل. وأمّا مَن أتى بَعْدهم فله أيضاً ما كسب، ولن يُسأل أحدٌ عن عمَل غيرِه، ولن يَنفع أحداً الانتسابُ إليهم؛ فمَن بَطَّأ به عملُه لم يُسرِعْ به نسبُه.

مسائل الآيات.

الأولى:

درج بعضُ المفسِّرين على استنكار بعض القراءات المتواترة، وهو خطأ بيِّن؛ ومن ذلك: قراءة ابن كثير ويعقوب: }وَأَرْنَا{ -بسكون الراء-، قال الزمخشري: إن هذه القراءة قد استُرذلت لأنّ الكسرة منقولة من الهمزة السّاقطة دليل عليها، فإسقاطها إجحاف.

ووجْه ذلك: أنه قد شُبِّه فيه المنفصل بالمتّصل، فعومل معاملة "فَخْذ" في إسكانه للتخفيف، وقد استعملتْه العرب كذلك.

الثانية:

قرأ بعض السلف: }وَيَعْقُوبَ{ -بالنّصب عطفاً على }بَنِيهِ{- كأنّ إبراهيم وصّى بَنيه، وابنَ ابْنه يعقوب بن إسحاق- وكان حاضراً ذلك. وقد ادّعى القشيري -فيما حكاه القرطبي عنه-: أنّ يعقوب إنما وُلد بعد وفاة إبراهيم.

قال ابن كثير: ويحتاج مثلُ هذا إلى دليل صحيح. والظاهر -والله أعلم-: أنّ إسحاق وُلد له يعقوب في حياة الخليل وسارة، لأنّ البشارة وقعت بهما في قوله: }فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ{، وقد قُرئ بنصب يعقوب ههنا على نزْع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لَمَا كان لِذكْره من بيْن ذرّيّة إسحاق كبير فائدة. وأيضاً فقد قال الله تعالى في سورة (العنكبوت): }وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{، وقال في الآية الأخرى: }وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً{؛ وهذا يقتضي أنه وُجد في حياته. وأيضاً فإنه بانِي بيتِ المقدس، كما نطقت بذلك الكُتب المتقدّمة.

وثبت في "الصحيحيْن" من حديث أبي ذر: قلت: يا رسول اللهّ، أي مسجد وُضع أوّل؟ قال: ((المسجد الحرام)) قلت: ثم أي؟ قال: ((مسجدُ بيت المقدس)). قلت: كم بينهما؟ قال: ((أربعون سَنة)) الحديث.

فزعم ابن حبان: أنّ بيْن سليمان -الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس- وإنما كان جدَّده بعد خرابه وزَخرَفه- وبيْن إبراهيم: أربعين سَنة؛ وهذا ممّا أُنكِر على ابن حبان، فإنّ المدة بينهما تزيد على ألوف السِّنين -والله أعلم-.

الثالثة:

قد استدل بهذه الآية الكريمة مَن جعَل الجدّ أباً، وحجب به الإخوة، كما هو قول الصِّدّيق -رضي الله عنه-، حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير. ثم قال البخاري: ولم

يختلف عليه، وإليه ذهبت عائشة أمّ المؤمنين. وبه يقول: الحسن البصري، وطاوس، وعطاء. وهو مذهب أبي حنيفة، وغير واحد من علماء السلف والخلَف. وقال مالك، والشافعي، وأحمد -في المشهور عنه-: إنه يقاسم الإخْوة. وحُكي ذلك عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وجماعة من السلف والخلَف. واختاره صاحبا أبي حنيفة: القاضي أبو يوسف، ومحمد بن الحسن. ولتقرير هذه المسألة موضع آخَر.

الأسئلة :

١. مسلمين لك ، أي : مستسلمين لك ، يقال : أسلم به واستسلم إذا خضع وأذعن (صح) .

٢. لا يأتي الإسلام بمعنى الإخلاص إلا مقيداً بالوجه كقوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله) (خطأ) .

٣. (وأرنا مناسكنا) أي : بصرنا بالمناسك التي نعبدك فيها (صح) .

٤. (سفه نفسه) أي : امتهنها واستخف بها ، لما وضعها فيما لا يرضى به عاقل وأبعدها عن ما فيه خيرها (صح) .

٥. أصل النسك بضم النون والسين العبادة التي فيها ذبح (خطأ) .

٦. رغب عن الشيء : إذا تركه وزهد فيه ومثله رغب فيه فهما بمعنى واحد (خطأ) .

٧. (اصطفيناه) أي : اخترناه بالرسالة من بين سائر الخلق ، وأصله : اتخاذ صفوة الشيء أي : خالصه (صح) .

٨. التوصية : التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة حالة الاحتضار ، فإن كان في حالة الحياة فهو العهد (خطأ) .

٩. يعقوب : نبي الله ابن نبي الله إسحاق ابن نبي الله إبراهيم ، وسمي يعقوب لأنه سيكون لع عقب أي ذرية كثيرون (خطأ) .

١٠. يعقوب : نبي الله ابن نبي الله إسحاق ابن نبي الله إبراهيم ، وسمي يعقوب لأنه خرج من بطن أمه ممسكاً بعقب أخيه التوأم العيص (صح) .

١١. الأمة هنا : الجماعة من الناس التي يجمعهم إمام واحد (صح) .

١٢. روى ابن خزيمة والطبراني وصححه والبيهقي أن إبراهيم لما أتى المناسك عرض له الشيطان في مواضع الجمرات فرجمه حتى ساخ في الأرض (صح) .

١٣. عن ابن عباس أن جبريل أرى إبراهيم مناسك الحج فلما انتهى إلى عرفة قال له : أعرفت ؟ فلهذا سميت عرفة (صح) .

١٤. ثبت عن النبي ﷺ أن أول أمره كان دعوة إبراهيم وبشرى عيسى (صح) .

١٥. الآثار التي وردت في أن إبليس عرض لإبراهيم عليه السلام في موضع الجمرات فحصبه بحجرات آثار ضعيفة لا تقوم بها حجة (خطأ) .

١٦. (ويزكيهم) أي : يرفعهم على غيرهم من الأمم ، وأصل التزكية الرفعة والنمو (خطأ) .

١٧. الاستفهام في قوله (أم كنتم شهداء) بمعنى النفي ، أي : لم تكونوا شاهدين لهذا (صح) .

١٨. استدل بهذه الآية من قال : إن الجد أب كابن عباس وغيره وهو قول عمر بن الخطاب وكثير من السلف وإليه ذهب أكثر الأئمة (خطأ) .

١٩. ذكر بعض المفسرين أن قول إبراهيم وإسماعيل (ومن ذريتنا) تعني العرب خاصة ، والصحيح ما ذهب إليه الطبري من أنها ليست خاصة بالعرب فإن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل أيضاً (خطأ) .

٢٠. رجح ابن كثير أن سياق الدعوات تدل على أن المقصود بالذرية العرب وأن الرسول المبعوث فيهم هو محمد ﷺ وأن هذا لا ينفي دخول غير العرب في الكلام لأن محمداً ﷺ بعث إلى الأمم كلها (صح) .

٢١. دلت الآيات أن من كمال محبة العبد لله أن يحب أن يكون أولاده ممن يعبد الله ولهذا يدعو بذلك أولياء الله (صح) .

٢٢. ثبت أن النبي ﷺ سئل عن بداية أمره فقال : دعوة أبي إبراهيم ، بمعنى أنه أول من شهره وذكره بين الناس (صح) .

٢٣. الحكمة هنا : وضع الشيء في موضعه ولا يصح أن يكون المراد بذلك السنة لأن سياق الكلام يأباه (خطأ) .

٢٤. تخصيص الشام بظهور نور النبي ﷺ إشارة إلى بركة أرض الشام وفضلها على سائر البقاع (خطأ) .

٢٥. تخصيص الشام بظهور نور النبي ﷺ إشارة إلى أن ثبوت ملك أمته في آخر الزمان في أرض الشام كما أن بدايته من مكة (صح) .

٢٦. ثبت أن يعقوب ولد في حياة إبراهيم الخليل وأنه قد بشر به وهو الصحيح وما سواه فغير صحيح (صح) .

٢٧. استنكر الزمخشري قراءة ابن كثير (أرنا) بإسكان الراء ، وهي قراءة متواترة لا مجال لردها والقراءة لا قياس لها ولا تخضع لآراء أهل العربية (صح) .

٢٨. جرت العادة أن من أطاع الله وأخلص له في حياته ثبته الله إلى الممات ، ولا تنافي بين هذا وبين حديث (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة) لأنه قد جاء في رواية (فيما يبدو للناس) (صح) .

٢٩. الإسلام هو ملة الأنبياء جميعاً وهو دين الله وإن تنوعت الشرائع واختلفت المناهج (صح) .

٣٠. دلت الآيات على أن النسب لا ينفع بدون الإيمان والعمل الصالح كما جاء في الحديث (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) (صح) .

المحاضرة الخامسة والخمسون

***

تفسير الآيات من (١٣٥) إلى (١٤١) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.}

القراءات:

{أَمْ تَقُولُونَ :}قرأ غير ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص، ورويس{ :أَمْ يَقُولُونَ– } بالياء– إضراب من الخطاب إلى الغيبة. والكلام استئناف غير داخل تحت الأمر السابق في الآية، بل وارد منه تعالى توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم.

المناسبة:

لما أخبر تعالى عن اليهود والنصارى، أنهم تركوا الاقتداء بالأتقياء من أسلافهم، بيَّن أنهم لم يكتفوا بذلك، بل صاروا دُعاة إلى الكفر بدعوة الناس إلى ما هم عليه من الباطل. والآية مرتبطة بالآية المتقدّمة{ :وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى.}

ثم بيّن سبحانه طريق المؤمنين، والإيمان الصحيح، وبكّتَ هؤلاء على كِتمانهم الحق ودعاواهم الكاذبة، وتَوعَّدَهم على ذلك.

لغويّات.

{حَنِيفاً :}الحنيف: المائل عن كلّ دِين باطل إلى دين الحق، والحَنَف :الميْل في القدَميْن. وتحنَّف إذا مال. وأنشد بعضهم:

ولكنّا خُلقْنا إذْ خُلقْنا	حنيفاً دينُنا عن كلِّ دينِ

{وَالأَسْبَاطَ :}جمع: سِبْط، كأحمال وحِمْل، والسِّبْط :الحافد.

وقال القرطبي: وسُمُّوا: "الأسباط" مِن السَّبَط، وهو: التتابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله مِن السّبَط -بالتحريك-، وهو: الشجر كثير الأغصان، أي: هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة: سَبْطة. وقيل: من السّبوطة وهي: الاسترسال، وقيل: إنه مقلوب "البسْط."

قال القرطبي: والسّبْط: الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد.

والأسباط: حفدة يعقوب، ذراري أبنائه الاثنَي عشر، وقيل: هم في أولاد إسحاق كالقبائل في أولاد إسماعيل. وقيل للحَسَنيْن: سِبْطا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لانتشار ذريّتهما. ثم قيل لكلّ ابن بنت: "سِبْط"، وكذا قيل له: حفيد أيضاَ.

{شِقَاقٍ }أي: مخالفة لله تعالى، أو منازعة، ومحاربة، أو عداوة .واختلف في اشتقاقه، فقيل: من الشِّق أي: الجانب، وقيل: من الشّقّة. وقيل: مأخوذ مِن قولهم: "شقّ العصا" إذا أظهر العداوة.

{صِبْغَةَ- :}بالكسر- وهي: "فِعْلة" مِن صَبَغ كالجِلسة مِن جَلَس، وهي الحالة التي يقع عليها الصّبغ. والمعنى: تطهير الله لأنّ الإيمان يطهّر النفوس.

وقيل: الأصل فيه: أنّ النصارى كانوا يَغمسون أولادهم في ماء أصفر يُسمّونه: "المعموديّة"، يزعمون أنه الماء الذي وُلد فيه عيسى -عليه السلام-، ويعتقدون أنه تطهير للمولود كالختان

لغيرهم. وقيل: هو ماء يقدس بما يُتلى من الإنجيل، ثم تُغسل به الحاملات، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً. فأُمِر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله، وصبَغَنا الله بالإيمان صِبْغة لا مثْل صبغتنا، وطهّرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا. أو يقول المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صِبغته، ولم نُصبغ صِبغتكم. وإنّما جيء بلفظ" الصِّبغة "على طريقة المشاكلة. ويرد على هذا الوجه أنّ الكلام عامّ لليهود، غير مختصّ بالنصارى، اللهمّ إلاّ أن يعتبر أن ذلك الفعل كائن فيما بينهم في الجملة.

الآثار.

أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ما الهدى إلاّ ما نحن عليه، فاتَّبِعْنا يا محمّد تَهْتَدِ. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله –عز وجل{ :–وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا.}

وعن ابن عباس في قوله{ :حَنِيفاً}، قال: حاجاً.

وعن السدي، قال: ما كان في القرآن{ حَنِيفاً }مُسلماً، وما كان في القرآن{ حُنَفَاء } مسلمِين حُجاجاً.

وكذا روي عن الحسن، والضحاك، وعطية.

وعن محمد بن كعب قال: الحنيف :المستقيم.

وعن عيسى بن جارية مثله.

وعن مجاهد في قوله{ :حَنِيفاً}، قال: متّبعاً.

وكذا قال الربيع بن أنس.

وعن خصيف قال: الحنيف: المخلص.

و عن أبي قلابة، قال: الحنيف: الذي يؤمن بالرُّسل كلّهم مِن أوّلهم إلى آخِرهم.

وقال أبو العالية: الحنيف: الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أنّ حجّه عليه إن استطاع إليه سبيلاً.

وقال قتادة: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله، يدخل فيها تحريم الأمّهات، والبنات، والخالات والعمّات، وما حرّم الله -عز وجل-، والختان.

وأخرج أحمد، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) -بُعثتُ بالحنيفيّة السّمْحة.((

وأخرج أحمد، والبخاري في "الأدب المفرد"، وابن المنذر، عن ابن عباس، قال: قيل: يا رسول الله، أي الأديان أحبّ إلى الله؟ قال)) :الحنيفيّة السّمْحة.((

وأخرج ابن أبي حاتم، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم :-))آمنوا بالتوراة والزّبور والإنجيل، ولْيَسعْكم القرآن.((

وأخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في "سننه"، عن ابن عباس، قال :))كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكثر ما يُصلّي الركعتيْن اللّتيْن قبل الفجر بـ{آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا }...الآية، والأخرى بـ{آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .((}

وأخرج الحاكم وصحّحه، عن ابن عباس، قال)) :أكثر ما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في ركعتَي الفجر{ :قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ }...الآية، وفي الثانية{ :قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ }الآية.((

وأخرج البخاري وغيره، عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: "آمنا بالله وما أنزل الله .(("

وعن الضحاك، قال: علِّموا نساءكم وأولادكم وخدَمَكم أسماء الأنبياء المسلمين في الكتاب، لِيُؤمنوا بهم، فإنّ الله أمَر بذلك، فقال{ :قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا }إلى قوله{ :وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .}

وعن ابن عباس، قال: الأسباط: بنو يعقوب، كانوا اثنَيْ عشر رجُلاً، كلّ واحد منهم ولَد سِبْطاً أمّة من الناس.

وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة، والسدي: الأسباط: بنو يعقوب، اثنا عشَر رجُلاً. ولَد كلّ رجُل منهم أمّة من الناس، فسُمُّوا: "الأسباط ."

وعن ابن عباس، قال: كلّ الأنبياء من بني إسرائيل إلاّ عشرة: نوح، وهود، وصالح، وشُعيْب، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمّد –عليهم الصلاة والسلام .–

وقال قتادة: أمَر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويُصدِّقوا بكُتبه كلّها وبرُسله .

وقال سليمان بن حبيب: إنّما أُمِرْنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما .

وأخرج الطبري، وأبو نعيم، وابن عساكر، عن عبد الله بن عبد الثمالي: أنه سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول)) :لو حلفتُ لبررتُ أنه لا يدخل الجنة قبل الرّعيل الأوّل من أمّتي إلا بضعة عشر إنساناً: إبراهيم، واسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى بن مريم.((

وعن ابن عباس، قال: لا تقولوا{ :فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ}، فإنّ الله لا مِثْل له، ولكن قولوا" :فإن آمنوا بالذي آمنتم به."

وعن أبي جمرة، قال: كان ابن عباس يقرأ: "فإن آمنوا بالذي آمنْتم به."

وعن أبي العالية، في قوله{ :فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ}، قال: فِراق.

وأخرج الحاكم، عن ابن عباس، قال: كنت قاعداً إذ أقبل عثمان، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم" :–يا عثمان، تُقتَل وأنت تقرأ سورة (البقرة)، فتقع قطرة من دمك على : {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ."}قال: الذهبي في "مختصر المستدرك": هذا كذب بحْت، وفي إسناده: أحمد بن محمد بن عبد الحميد الجعفي، وهو المتّهَم به.

وعن أبي سعيد مولى بني أسد، قال :لما دخل المصريّون على عثمان، والمصحف بين يديه، فضربوه بالسّيف على يديْه، فجرى الدم على{ :فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .}فمدّ يده وقال: والله لَأنها أوّل يدٍ خطّت المفصَّل.

وعن زياد بن يونس، قال: حدثنا نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إليّ بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليُصلحه. قال زياد: فقلت له: إنّ الناس يقولون: إنّ مصحفه كان في حجره حين قُتل، فوقع الدم على{ :فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ !}فقال نافع :بصُرَت عيني بالدم على هذه الآية، وقد قدم .

وعن عمرة بنت أرطاة العدويّة، قالت :خرجت مع عائشة سَنة قتل عثمان إلى مكة، فمررنا بالمدينة، ورأينا المصحف الذي قُتل وهو في حِجره، وكانت أوّل قطرة مِن دمه على هذه الآية{ :فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .}قالت عمرة: فما مات منهم رجل سوياً.

عن ابن عباس، في قوله{ :صِبْغَةَ اللَّهِ}، قال :دين الله.

وكذا روي عن أبي العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك .

و عن مجاهد، في قوله{ :صِبْغَةَ اللَّهِ}، قال: فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وأخرج ابن مردويه، والضياء في" المختارة"، عن ابن عباس: أن نبيّ الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :إنّ بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل يَصبغ ربك؟ فقال: اتّقوا الله. فناداه ربه: يا موسى سألوك هل يَصبغ ربك؟ فقلْ: نعم، أنا أصبغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلّها من صبغي .((وأنزل الله على نبيه –صلى الله عليه وسلم{ :–صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً.}

وأخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في" العظمة"، عن ابن عباس، موقوفاً.

قال ابن كثير: كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعاً، وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف، وهو أشبه إن صحّ إسناده –والله أعلم.–

وعن ابن عباس، في قوله{ :صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً}، قال: البياض.

وعن قتادة، قال: إن اليهود تصبغ أبناءها يهوداً، وإنّ النصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإنّ صبغة الله الإسلام، ولا صبغة أحسن مِن صبغة الله الإسلام، ولا أطهر. وهو دين الله الذي بعث به نوحاً ومَن كان بعده من الأنبياء.

عن ابن عباس، في قوله{ :أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ}، قال: أتخاصمونا؟

وعن ابن عباس، في قوله{ :أَتُحَاجُّونَنَا :}تجادلوننا.

وعن مجاهد، في قوله{ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}، قال :في قول يهود لإبراهيم وإسماعيل ومَن ذكر معهما، أنهم كانوا يهوداً أو نصارى، فيقول الله لهم: لا تكتموا منّي شهادة إن كانت عندكم، وقد علِم الله أنهم كاذبون.

وعن قتادة، في قوله{ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً }...الآية، قال: أولئك أهل الكتاب، كتموا الإسلام وهُم يعلمون أنّه دين الله، واتّخذوا اليهودية والنصرانية، وكتموا محمداً -صلى الله عليه وسلم-، وهم يعلمون أنه رسول الله.

وعن الحسن، في قوله{ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}، كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي آتاهم: إنّ الدين الإسلام، وإنّ محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية .فشهد الله بذلك، وأقرّوا به على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك .

وعن قتادة، والربيع، في قوله{ :تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ}، قالا: يعني: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط.

وعن أبي المليح، قال: الأمّة ما بين الأربعين إلى المائة فصاعداً.

أقوال المفسِّرين.

{وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا :}الضمير الغائب لأهل الكتاب، والجملة عطْف على ما قبْلها؛ عطف القصة على القصة. والمراد منها: ردّ دعوتهم إلى دِينهم الباطل إثْر ردّ ادّعائهم اليهودية على يعقوب -عليه السلام-، و{أَوْ }لتنويع المقال لا للتّخيير، بدليل أنّ كل واحد من الفريقيْن يكفِّر الآخَر، أي: قال اليهود للمؤمنين: "كونوا هوداً"، وقالت النصارى لهم : "كونوا نصارى."

قوله{ :قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } أي: لا نريد ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية. أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- مفصّلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدّمين مُجملاً. ونصّ على أعيان من الرُّسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وأنهم لا يفرقون بين أحد منهم، بل يؤمنون بهم كلّهم، ولا يكونون كمن قال الله فيهم{ :إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا

بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً .}

والمقصود: التعريض بأهل الكتاب والعرب الذين يدّعون اتّباعه ويَدينون بشرائع مخصوصة به مِن حج البيت والختان وغيرهما... فإنّ في كلّ طائفة منهم شركاء؛ فاليهود قالوا: "عزير ابن الله"، والنصارى: "المسيح ابن الله"، والعرب عبدوا الأصنام وقالوا: "الملائكة بنات الله."

{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ :}خطاب للمؤمنين لا للكافرين، وقدّم الإيمان بالله سبحانه لأنه أوّل الواجبات، ولأنه بتقدّم معرفته تصحّ معرفة النّبوّات والشرعيات{ .وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا }أي: القرآن، وهو، وإن كان في الترتيب النزولي مؤخّراً عن غيره، لكنه في الترتيب الإيماني مقدَّم عليه لأنه سبب الإيمان بغيره لِكونه مصدِّقا له، ولذا قدَّمه{ .وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ }يعني: الصّحف، وهي وإن نزلت على إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– لكن لما كان ما عُطف عليه مُتعبَّدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها، صحّ نسبة نزولها إليهم أيضاً، كما صحّ تعبّدنا بتفاصيل القرآن ودخولنا تحت أحكامه نسبة نزوله إلينا.

و{الأَسْبَاط :}قال الخليل بن أحمد وغيره :الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل. وقال الزمخشرى فى "الكشاف": الأسباط: حفدة يعقوب وذراري أبنائه الاثنَي عشر. وقد نقله فخر الدين عنه، وقرّره ولم يُعارضه .

وقال البخارى{ :وَالأَسْبَاطِ :}قبائل بنى إسرائيل.

وهذا يقتضي أنّ المراد بالأسباط ههنا: شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله تعالى من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم{ :اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ}، وقال تعالى{ :وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً .}

{وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى }أي: التوراة والإنجيل، ولكوْن أهل الكتاب زادوا ونقصوا وحرّفوا فيهما، وادّعوا أنهما أُنزِلا كذلك، والمؤمنون يُنكرونه. اهتمّ بشأنهما فأفردهما بالذِّكْر وبيّن طريق الإيمان بهما، ولم يُدرجْهما في الموصول السابق. ولأنّ أمْرهما أيضاً بالنسبة إلى موسى وعيسى

أنّهما مُنزلان عليهما حقيقة، لا باعتبار التّعبّد فقط، كما في المنزَل على إسحاق ويعقوب والأسباط.

ولك أن تقول: المراد بالموصول هنا :ما هو أعمّ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيدي هذيْن النبيّيْن الجليليْن.

يقول تعالى :

{فَإِنْ آمَنُوا }أي: الكفّار مِن أهل الكتاب وغيرهم،{ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ }أيّها المؤمنون، مِن الإيمان بجميع كُتب الله ورُسله، ولم يُفرّقوا بين أحد منهم،{ فَقَدِ اهْتَدَوْا }أي: فقد أصابوا الحق، وأُرشِدوا إليه{ .وَإِنْ تَوَلَّوْا }أي :عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجّة عليهم،{ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ }أي: فسينصرك عليهم ويُظفرك بهم.

{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ :}وعيد لهم، أي: يسمع ما يَنطقون به، ويَعْلَم ما يُضمرون مِن الحَسد والغِلّ. وهو مُعاقِبهم عليه. أو وَعْد لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– بمعنى :يسمع ما تدعو به، ويَعْلم نيّتَك وما تُريده من إظهار دين الحقّ. وهو مستجيب لك ومُوصلُك إلى مُرادك.

وانتصاب{ صِبْغَةَ اللَّهِ :}إمّا على الإغراء، كقوله{ :فِطْرَتَ اللَّهِ }أي: الْزَموا ذلك، علَيْكُموه. وقال بعضهم: بدل مِن قوله{ :مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ .}وقال سيبويه: هو مصدر مؤكّد انتصب عن قوله{ :آمَنَّا بِاللَّهِ}، كقوله{ :وَعَدَ اللَّهُ .}

{وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً }أي: لا صبغة أحسَن من صبغته تعالى.

{وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ }أي: مُوحِّدون، أو مُطيعون مُتّبعون ملّة إبراهيم، أو خاضعون مُستكينون في اتّباع تلك الملّة. وتقديم الجارّ لإفادة اختصاص العبادة له تعالى، وتقديم المسنَد إليه لإفادة قصْر ذلك الاختصاص عليهم وعدَم تجاوزه إلى أهل الكتاب؛ فيكون تعريضاً لهم بالشرك أو عدم الانقياد له تعالى باتّباع ملّة إبراهيم.

ثم يقول الله تعالى مرشداً نبيّه– صلوات الله وسلامه عليه– إلى درء مجادلة المشركين{ :قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ }أي :أتُناظروننا في توحيد الله والإخلاص له، والانقياد واتّباع أوامره، وترْك زواجره،{ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ }المتصرِّف فينا وفيكم، المستحِقّ لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له؟{ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ }أي: نحن بُرآء منكم، وأنتم بُرآء منّا، كما قال في الآية الأخرى{ :وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا

تَعْمَلُونَ}، وقال تعالى{ :فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}، وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم{ :وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ}، وقال تعالى{ :أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ }...الآية .

{وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ :}جملة حالية أي :أتجادلوننا، والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلاً، لأنه تعالى مالك أمْرِنا وأمْرِكم.

{وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ :}عطف على ما قبْله، أي: لنا جزاء أعمالنا الحسَنة الموافِقة لأمْره، ولكم جزاء أعمالكم السّيِّئة المخالفة لحُكْمه .

{وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ }أي: في العبادة والتّوجّه، لا نبتغي بهذه الأعمال إلاّ وجْهه.

ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أنّ إبراهيم ومَن ذكر بَعْده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملّتهم إمّا اليهودية أو النصرانية، فقال{ :قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ }يعني: بل الله أعلَم. وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، كما قال تعالى{ :مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }...الآية والتي بعدها .

{قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ }أي: لستم أعلم بحال إبراهيم –عليه السلام–، بل الله تعالى أعْلم بذلك. وقد أخبر سبحانه بنفْي اليهودية والنصرانية عنه، واحتجّ على انتفائهما عنه بقوله : {وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ}، وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدِّين، فحالهم حاله، فِلَم تدَّعون له ولهم ما نفَى الله تعالى؟ فما ذلك إلاّ جهْل غالٍ ولجاج محْض.

{وَمَنْ أَظْلَمُ :}إنكار لأن يكون أحَد أظلم{ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً }ثابتة عنده، واصلة من الله إليه، وهي شهادته تعالى لإبراهيم –عليه السلام –بالحنيفية، والبراءة عن اليهودية والنصرانية.

وفي إطلاق الشهادة، مع أن المراد بها ما تقدّم من الشهادة المعيّنة: تعريض بِكِتمانهم شهادة الله تعالى لنبيّه محمد –صلى الله تعالى عليه وسلم– في التوراة والإنجيل.

وقوله{ :وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ :}تهديد ووعيد شديد، أي أنّ علمه محيط بعمَلِكم، وسيجزيكم عليه .

ثم قال تعالى{ :تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ }أي: قد مضَتْ،{ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ } أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم،{ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم. ولا تغترّوا بمجرّد النِّسبة إليهم، حتى تكونوا مثْلَهم مُنقادين لأوامر الله، واتّباع رُسله الذين بَعَثَ مبشِّرين ومُنذرين؛ فإنه مَن كفَر بنبيٍّ واحد، فقد كفَر بسائر الرُّسل، ولا سيما مَن كفَر بسيِّد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن مِن سائر المكلَّفين –صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.–

والآية تكرير لِمَا تقدّم، للمبالغة في التحذير عمّا استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتّكال عليهم، كما يُقال: "اتّق الله! اتّق الله!"، أو تأكيد وتقرير للوعيد، يعني: أنّ الله تعالى يجازيكم على أعمالكم، ولا تَنفعكم آباؤكم، ولا تُسألون يوم القيامة عن أعمالهم بل عن أعمال أنفسكم. وقيل: الخطاب فيما سبق لأهل الكتاب، وفي هذه الآية لنا، تحذيراً عن الاقتداء بهم.

المعنى الإجمالي.

يذكر تعالى إجرام اليهود والنصارى في دعوتهم الناس لدِينهم، وزعْم كلِّ طائفة منهم أنّ مَن اتّبع دِينها فقد اهتدى إلى الحق، كما قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتّبِعْنا يا محمد تَهْتَدِ". وقالت النصارى مثل ذلك. فأضرب سبحانه عن قولهم، وبيّن أنّ الدِّين الحقّ هو المائل عن دينهم وسائر الأديان الباطلة، وهو: دين إبراهيم –عليه السلام– الذي حقّق توحيد الله تعالى، وأخذ بشرائع الإسلام، ومنها: حجّ بيت الله الحرام، ولم يكن مِن المشركين بربِّهم مثْلَهم.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يُعلنوا إيمانهم بما أنزل الله تعالى على جميع رُسله مِن كُتب وبما آتاهم من معجزات، وعلى رأسهم خاتم أنبيائه: محمد– صلى الله عليه وسلم–، وأبو الأنبياء: إبراهيم –عليه السلام–، ونبيّ العرب: إسماعيل، ونبيّا أهل الكتاب: إسحق ويعقوب، وأجدادهم: الأسباط الاثنا عشر أبناء يعقوب –عليه السلام–، وكذلك النّبيّان الكريمان

صاحبا الكتابيْن الجليليْن التوراة والإنجيل: موسى وعيسى -عليهما السلام .-وأمر سبحانه المؤمنين بأن يشهدوا بعدم تفريقهم بين هؤلاء الأنبياء في الإيمان ببعضهم دون الآخر، وأنهم قد أسلموا أمْرَهم وانقادوا وخضعوا في ذلك لله تعالى، لا كغيْرهم ممّن لم يفعل ذلك.

ثم أخبر سبحانه أنّهم إن حصل منهم الإيمان بهذا الدِّين القويم الذي آمن به المسلمون، فهنا يكونون قد اهتدَوْا إلى الحق فعْلاً، وإن لم يفعلوا ذلك فسيظلّ كلّ منهم في اختلاف وتنازع وعلى غير سبيل المؤمنين، والله -عز وجل- سوف يَكفي نبيه -صلى الله عليه وسلم- شرَّهم ومَكرهم، وسيجعل الدائرة عليهم بالقتل والسّبْي والإخراج والذِّلّة والصَّغار. فهو السميع الذي لا يخفى عليه كفْرهم ومَكْرهم، العليم بكل صغيرة وكبيرة.

وأمر سبحانه عباده المؤمنين أن يُخبروا أنّ دِينهم الذي اعتنقوه هو الدِّين الخالص النّقيّ، دِين الفطرة التي فطر الله عليها الناس، والتي لا يوجد أفضل منها ولا أحسن، وأنهم على ذلك الدِّين قائمون وبالله لا يشركون.

ثم أنكر تعالى على أهل الكتاب مُحاجّتهم المسلمين بالباطل ولَجاجهم، وأمَر عباده المؤمنين أن يقولوا لهم إنّ خالِقَهم ومُبدعَهم وربّ الجميع هو: الله سبحانه، وأنّ أعمال كلٍّ منهم هو يُحصيها، وهو مُطّلع عليها، ويعلم ما كان منها على الحقّ وما كان على الباطل، وأنهم ما أرادوا بأعمالهم إلاّ وجْهَه، فلم يشركوا به شيئا كغيرهم.

ثم أدحض الله دعواهم الباطلة أنّ أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وجُدودَهم الأسباط أبناء يعقوب كانوا على ديانة اليهودية أو النصرانية، وبَكّتَهم على ذلك، حيث إنهم قد علِموا أن الله قد شهِد أنّ دينهم الإسلام، وأنهم لم يكونوا على يهودية أو نصرانية، ولم تكن هاتان الدِّيانتان قد ظهَرتا بعْد. فهل هُم أعْلم بحالهم وبدينهم من الله؟

ثم بيّن -جل وعلا- مدى ظُلمهم في كتمانهم الشهادة لهم بذلك، مع معرفتهم إيّاه في كُتبهم، كما كتموا ما أُمِروا به من الشهادة بالرسالة لخاتم الأنبياء -عليه صلوات الله وسلامه-. وتوعّدهم سبحانه بأنه ليس غافلاً عن إجرامهم وما يفعلونه من دعوة للباطل، ثم أكّد عليهم أنّ هؤلاء الأنبياء والآباء الصالحين لن ينفعوهم بشيء، فقد مضَوْا بأعمالهم، وهم لهم عمَلُهم كذلك لا يُسأل أحدٌ عن أحَد، ولا ينتفع أحَدٌ بأحد، كما سبق أن بيّن لهم ذلك، وإنما أعاده تأكيداً وتوثيقاً.

مسائل الآيات.

الأولى:

اختلف الناس في الأسباط أولاد يعقوب، هل كانوا كلّهم أنبياء أم لا؟

قال الآلوسي: والذي صحّ عندي: الثاني، وهو المرويّ عن جعفر الصادق -رضي الله عنه-، وإليه ذهب الإمام السيوطي وألّف فيه، لأنّ ما وقع منهم مع يوسف- عليه الصلاة والسلام- يُنافي النّبوّة قطعاً، وكونه قبل البلوغ غير مُسلَّم، لأنّ فيه أفعالاً لا يقدر عليها إلاّ البالغون. وعلى تقدير التسليم، لا يُجدي نفعاً على ما هو القول الصحيح في شأن الأنبياء، وكم كبيرة تضمّن ذلك الفعل. وليس في القرآن ما يدلّ على نبوّتهم. والآية قد تقدّم معناها وتوجيهها.

قلت: وقوعهم فيما وقعوا فيه لا ينافي حصول النبوّة لهم، فكلّ ذلك يُمكن أن يُحمل على ما قبْل النّبوّة لا البلوغ وعدَمه، ولكن الحجّة في عدم ورود ما يدلِّل على نبوّتهم سوى ما يُفهم من هذه الآية. ويُمكن أن تُوجّه بما ذكر الآلوسي وغيره. وإنما أدرجهم في سياق الأنبياء، لافتخار بني إسرائيل بهم، وانتسابهم إليهم، ولكونهم أجدادهم الذين انحدروا منهم، فيحتاج الأمر إلى دليل آخر، ولا يوجد -والله أعلم.-

الثانية:

قوله{ :بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ}، فهل يوجد مثْل لدِين الحق؟

قال الزمخشري: هي من باب التّبكيت، لأن دين الحق واحد لا مِثْل له، وهو: دين الإسلام. {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ}، فلا يوجد إذاً دين آخر يُماثل دين الإسلام في كونه حقاً، حتى إن آمنوا بذلك الدِّين المماثل له كانوا مهتدين، فقيل{ :فَإِنْ آمَنُوا }بكلمة الشّك على سبيل الفرْض والتقدير، أي: فإن حصلوا ديناً آخَر مثْل دينكم مساوياً له في الصحة والسداد، فقد اهتدوا. وفيه: أنّ دينَهم الذي هم عليه، وكلّ دِين سواه مغاير له، غير مماثل لأنه حقّ وهدىً، وما سواه باطل وضلال.

ونحو هذا: قولك للرّجُل الذي تشير عليه: "هذا هو الرأي الصواب، فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به"، وقد علمتَ أن لا أصوب من رأيك، ولكنك تريد تبكيت صاحبك، وتوقيفه على أنّ ما رأيتَ لا رأي وراءه.

ويجوز أن لا تكون "الباء" صلة، وتكون" باء" الاستعانة، كقولك: "كتبت بالقلَم"، و"عملت بالقدوم". أي: فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثْل شهادتكم التي آمنتم بها .

وقال الآلوسي: و"إنْ" لِمجرّد الفرْض، والكلام من باب الاستدراج وإرخاء العنان مع الخصم، حيث يُراد تبكيته. وهو مما تتراكض فيه خيول المناظرين، فلا بأس بحمل كلام الله تعالى عليه. يعني: نحن لا نقول إننا على الحق وأنتم على الباطل، ولكن إن حصلتم شيئاً مساوياً لما نحن عليه ممّا يجب الإيمان أو التّديُّن به، فقد اهتديتم. ومقصودنا هدايتكم كيفما كانت. والخصم إذا نظر بعيْن الإنصاف في هذا الكلام وتفكّر فيه، علِم أنّ الحق ما عليه المسلمون لا غير، إذ لا مثْل لِما آمنوا به، وهو: ذاته تعالى، وكُتبه المنزَلة على أنبيائه، ولا دين كدينهم.

وقيل: المثْل مُقحم، كما في قوله تعالى{ :وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}، أي: عليه. ويشهد له :قراءة مَن قرأ: "بالّذي آمنْتُم به"، وقراءة: "بما آمنْتُم به". وكان ابن عباس – رضي الله تعالى عنه– يقول: "اقرؤوا ذلك، فليس لله تعالى مِثْل". ولعلّ ذلك محمول على التفسير، لا على أنّه أنكر القراءة المتواترة وخفِي عليه معناها.

الثالثة :

اختلف الناس في الإخلاص، قال الآلوسي: رُوي عن النبي –صلى الله تعالى عليه وسلم– أنه قال)) :سألتُ جبريل عن الإخلاص ما هو؟ فقال: سألت ربّ العزّة عنه، فقال: سِرٌّ من أسراري، استودَعْتُه قلْبَ مَن أحببْتُه مِن عبادي .((وقال سعيد بن جبير" :الإخلاص: أن لا تُشرك في دِينه، ولا ترائيَ أحداً في عمله ."وقال الفضيل: "ترْك العمل من أجْل الناس رياء، والعمَل من أجْل الناس شِرْك. والإخلاص أنْ يُعافيَك الله تعالى منهما ."وقال حذيفة المرعشي: "أن تستوي أفعال العبد في الباطن والظاهر". وقال أبو يعقوب المكفوف: "أن

يكتم العبد حسناتِه كما يكتم سيآته". وقال سهل: "هو الإفلاس"، ومعناه احتقار العمل، وهو معنى قول رويم: "ارتفاع عملك عن الرؤية."

قيل: ومقابل الإخلاص: الرياء. وذكر سليمان الداراني ثلاث علامات له: الكسل عند العبادة في الوحدة، والنشاط في الكثرة، وحبّ الثناء على العمل.

ونكتفي بهذا القدْر. وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

الأسئلة :

١. في قوله تعالى (أم تقولون) قراءتان متواترتان : بالتاء وبالياء ، أما التاء فعلى الخطاب عطفاً على الكلام السابق ، وبالياء على الاستئناف (صح) .

٢. في الآيات بيان أن بني إسرائيل لم يكتفوا بترك الاقتداء بأسلافهم بل صاروا دعاة إلى الكفر والباطل (صح) .

٣. الحنيف : المستقيم ، وسمي إبراهيم حنيفاً لأنه استقام على أمر الله (خطأ) .

٤. الحنيف : المائل ، والمقصود الميل عن كل دين باطل إلى دين الحق (صح) .

٥. قال القرطبي : السبط هم الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد (صح)

٦. الأسباط : حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر (صح) .

٧. الأسباط : أولاد البنات خاصة كما قيل للحسن والحسين : سبطا رسول الله ﷺ (خطأ)

٨. اختلف في أصل الشقاق وهو المنازعة والمحاربة والعداوة (صح) .

٩. الصبغة : بالكسر هي فعلة من صبغ ، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ ، والمقصود ما يظهر على ظاهر المؤمن من علامات الإيمان (خطأ) .

١٠. قيل في الإيمان وتطهيره للنفوس : صبغة الله ، مقابلة ومشاكلة لما كان يفعله النصارى من غمس أولادهم في ماء يسمونه ماء المعمودية ويزعمون أنه بذلك يصير نصرانياً وهو قول يرد منتقد عليه (صح) .

١١. اختلف المفسرون في معنى الحنيف على أقوال متقاربة ترجع إلى أصل واحد وهو الميلان عن الباطل والاستقامة على الحق (صح) .

١٢. ما ورد في المسند وبعض كتب السنة من قول النبي ﷺ : (بعثت بالحنيفية السمحة) حديث ضعيف لا يصح (خطأ) .

١٣. ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ في ركعتي سن الفجر بهذه الآية (قل آمنا بالله وما أنزل إلينا) وبالآية التي في آل عمران (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) (صح) .

١٤. قال سليمان بن حبيب : أمرنا أن نؤمن بالتوراة لا والإنجيل ولا نعمل بما فيهما (صح)

١٥. قال ابن عباس : لا تقولوا : فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فإن الله لا مثل له ، وكان يقرأ : فإن آمنوا بالذي آمنتم به ، وهي قراءة شاذة (صح) .

١٦. ورد أن عثمان لما قتل كان يقرأ هذه الآية فنزل دمه على قوله تعالى (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) (صح) .

١٧. قال الذهبي في قصة نزول دم عثمان ﷺ على قوله تعالى (فسيكفيكهم الله) : هذا كذب بحت وفي إسناده أحمد بن محمد بن عبد الحميد الجعفي وهو المتهم به (خطأ) .

١٨. ورد عن ابن عباس في صبغة الله أنها صبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود ، وروي مرفوعاً ، وهو غير صحيح (صح) .

١٩. صبغة الله : دين الله ، وفطرة الله ، وهي الإسلام (صح) .

٢٠. اختلف العلماء في الأسباط أولاد يعقوب هل كانوا أنبياء أم لا ؟ والصحيح أنهم كانوا أنبياء كما هو ظاهر الآية وقد رجح ذلك السيوطي والألوسي (خطأ)

٢١. قوله (فإن آمنوا) تدل على ندرة ذلك وعدم وقوعه وهي من باب الفرض واستدراج الخصم (صح) .

٢٢. أكثر علماء التفسير حول معنى (المثل) الذي ورد في الآية وأن دين الحق لا مثل له على أقوال وتفسيرات ، والصحيح أن يقال : إن آمنوا بمثل ما جاء به محمد فهم قد آمنوا بما جاء به لأن مثله لا يكون إلا هو والله أعلم (صح) .

٢٣. قوله (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) فيها دليل على أن اليهود كانوا يعلمون أن محمداً حق وأن الدين الذي جاء به هو دين الله ولكنهم كتموا ذلك فكانوا أظلم عباد الله (صح) .

٢٤. أو في قوله تعالى (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى) للتخيير ، أي : كونوا هذا أو هذا (خطأ) .

٢٥. أو في قوله تعالى (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى) لتنويع المقال لا للتخيير أي كل فريق قال للمؤمنين ذلك (صح) .

٢٦. قوله (قولوا آمنا بالله) خطاب لليهود والنصارى بأن يفعلوا ذلك (خطأ)

٢٧. قوله (وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) دليل على أن هؤلاء الأنبياء قد أنزل عليهم كتب أيضاً وإن كنا لا نعلم عنها شيئاً (خطأ) .

٢٨. خص ذكر التوراة والإنجيل في قوله (وما أوتي موسى وعيسى) لبيان أن ما أنزل عليهما كان كتباً مستقلة بخلاف غيرهما ممن ذكر فإن ما أنزل عليهم كان هو عين ما أنزل على إبراهيم عليه السلام (صح) .

٢٩. في قوله تعالى في ختام الآية (وهو السميع العليم) وعد ووعيد (صح) .

٣٠. تقديم (له) في قوله (عابدون) للدلالة على تعظيم العبودية هذه بكونها لله تعالى (خطأ) .

المحاضرة السادسة والخمسون

***

تفسير الآية (١٤٢) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.}

القراءات :

لا توجد أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

قال البقاعي ما محصله: أنّ ادعاء بني إسرائيل أنّ أسلافهم كانوا على دِينهم لئلاّ تنتقض دعواهم اختصاص الجنة بهم، فيه إنكار للنّسخ في دين الله، وقد رد الله عليهم بما يدلّ على إبطال قولِهم، وأنهم أحدثوا في دينهم وابتدعوا ما لم يأذن به الله، فصدر منهم ما يمنعون منه خالقَهم الذي لا يُسأل عما يفْعَل؛ فأيّ سفه أعظم من ذلك؟ فناسب ذكْر سفاهتهم في إنكار أمْر القبلة بعد ذلك.

قلت :

تقدّمت الآيات في فضائح بني إسرائيل وأكاذيبهم، فناسب هنا ذكْر أمر عنهم دالّ على خفّة عقولهم، وهو إنكارهم نسْخ القِبلة.

أيضاً لما كان ما تقدّم عن الكعبة وبنائها وشرفِها، ناسَب هنا ذكْر ما يتعلّق بها من قصة تحويل قِبلة المسلمين من بيت المقدس إليها.

لغويّات.

{وَلاَّهُمْ }أي: صرَفهم، وأصله من: الولاء والتّوالي، وهو: أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما. وقولهم :تولّى، إذا عُدِّي بنفسه اقتضى معنى: الولاية وحصوله في أقرب المواضع منه، يقال: ولّيْتُ سمعي كذا، وولّيْت عيني كذا، وولّيْت وجهي كذا: أقبلت عليه. قال الله عز وجل{ :فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.}
وإذا عُدِّي بـ"عن" لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى: الإعراض وترْك قرْبه، وقد يكون بالجسم، وقد يكون بترْك الإصغاء والائتمار.
{قِبْلَتِهِمُ :}القِبلة" :فِعْلَة" من: المقابلة كالوِجْهة من المواجهة، وأصلها: الحالة التي كان عليها المقابل، إلاّ أنها في العُرف العامّ اسم للمكان المقابل المتوجّه إليه للصلاة.

الآثار.

أخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود في "ناسخه"، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن حبان، والبيهقي في "سننه"، عن البراء بن عازب :))أن النبي–صلى الله عليه وسلم– كان أوّل ما قدِم المدينة نزل على أخواله من الأنصار، وأنه صلّى إلى بيت المقدس ستّة أو سبعة عشَر شهراً. وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت، وأنّ أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلّى معه قوم. فخرج رجل ممّن كان صلّى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صلّيتُ مع النبي –صلى الله عليه وسلم– قِبَل الكعبة .((فداروا كما هُم قِبَل البيت. ثم أنكروا ذلك. وكان الذي مات على القِبلة قبْل أن تُحوّل قِبل البيت رجالاً وقُتلوا فلم ندْر ما نقول فيهم .فأنزل الله{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ.}
وأخرج ابن إسحاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن البراء، قال)) :كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يصلِّي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء، ينتظر أمْر الله. فأنزل الله{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .((}فقال رجال من المسلمين ودِدْنا لو علِمنا من مات منّا قبل أن نُصرف إلى القِبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس، فأنزل الله{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ .}وقال السفهاء من الناس –وهم من أهل الكتاب-: ما ولاّهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله{ :سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ }...إلى آخر الآية.

وأخرج الترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي، عن البراء، قال)) :كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قد صلّى نحو بيت المقدس ستّة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحبّ أن يصلّي نحو الكعبة. فكان يرفع رأسه إلى السماء. فأنزل الله : {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ }...الآية، فوجّه نحو الكعبة .((وقال السفهاء من الناس –وهم اليهود-: ما ولاّهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله{ :قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .}

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، في "ناسخه"، والبيهقي، عن ابن عباس، قال :أوّل ما نُسخ في القرآن: القِبلة؛ وذلك)) أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم- لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمَره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود .فاستقبلها رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بضعة عشر شهراً. وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يحبّ قبلة إبراهيم، وكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ }إلى قوله{ :فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ((}، يعني: نحوه. فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاّهم عن قِبلتهم الني كانوا عليها؟ فأنزل الله{ :قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}، وقال{ :فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.}

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود في" ناسخه"، والنحاس، والبيهقي في "سننه"، عن ابن عباس)) :أنّ النبي- صلى الله عليه وسلم- كان يصلّي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه. وبعدما تحوّل إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة.((

وأخرج أبو داود في" ناسخه"، عن ابن عباس، قال: أوّل ما نُسخ من القرآن: القِبلة، وذلك))أنّ محمداً –صلى الله عليه وسلم –كان يستقبل صخرة بيت المقدس –وهي قِبلة اليهود-. فاستقبلها سبعة عشر شهراً ليُؤمنوا به وليتّبعوه، وليدعوا بذلك الأمّيّين من العرب، فقال الله :

{وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، وقال{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ }... الآية.((

وأخرجه ابن جرير عن عكرمة، مرسلاً.

وأخرج أبو داود في" ناسخه"، عن أبي العالية)) :أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نظر نحو بيت المقدس، فقال لجبريل: وددْتُ أنّ الله صَرَفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، فقال له جبريل: إنّما أنا عبْد مثلك، ولا أملك لك شيئاً، إلاّ ما أُمِرت. فادْعُ ربّك وسَلْه. فجَعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يُديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي سأل، فأنزل الله{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ(({، يقول: إنك تديم النظر إلى السماء للّذي سألت{ :فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، يقول: فحوّلْ وجهَك في الصلاة نحو المسجد الحرام،{ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ }يعني: من الأرض،{ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ }في الصلاة{ شَطْرَهُ }نحو الكعبة.

وأخرج ابن إسحق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في "الدلائل"، عن ابن عباس، قال :))صُرفَت القِبلة عن الشام إلى الكعبة في رجب، على رأس سبعة عشر شهراً مِن مقدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة. فأتى رسول الله–صلى الله عليه وسلم– رفاعة بن قيس، وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ونافع بن نافع، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، والربيع بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، فقالوا له: يا محمد ما ولاّك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودِينه؟ ارجعْ إلى قِبلتك التي كنت عليها نتبعْك ونُصدّقك. وإنما يريدون فتنته عن دِينه. فأنزل الله{ :سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ }إلى قوله{ :إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ(({، أي: ابتلاءً واختباراً{ .وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ }أي: ثبّت الله{ .وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}، يقول: صلاتكم بالقِبلة الأولى، وتصديقكم نبيّكم واتّباعكم إيّاه إلى القِبلة الآخِرة. أي: ليعطينّكم أجرهما جميعاً{ .إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ }إلى قوله{ :فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.}

وأخرج وكيع، وعبد بن حميد، وأبو داود في "ناسخه" والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن البراء، في قوله{ :سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}، قال :اليهود .

وأخرج البيهقي في "الدلائل"، عن الزهري، قال)) :صُرفت القبلة نحو المسجد الحرام في رجب، على ستة عشر شهراً من مَخرج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من مكة. وكان رسول الله– صلى الله عليه وسلم– يقلِّب وجهَه في السماء وهو يصلِّي نحو بيت المقدس، فأنزل الله حين وجّهه إلى البيت الحرام{ :سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ }...وما بعْدها من الآيات .((فأنشأت اليهود تقول: قد اشتاق الرّجُل إلى بلده وبيت أبيه، وما لَهم قد تركوا قبلتهم يصلّون مرة وجهاً ومرة وجهاً آخَر؟ وقال رجال من الصحابة: فكيف بمن مات وهو يصلِّي قِبَل بيت المقدس؟ وفرِح المشركون وقالوا: إنّ محمداً قد التَبس عليه أمرُه، ويوشك أن يكون على دينكم. فأنزل الله في ذلك هؤلاء الآيات.

وأخرج ابن جرير، عن السدي، قال: لما وُجِّه النبي –صلى الله عليه وسلم– قِبَل المسجد الحرام، اختلف الناس فيها، فكانوا أصنافاً. فقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قِبلة زماناً ثم تركوها وتوجَّهوا غيرَها؟ وقال المسلمون: ليت شعرنا عن إخواننا الذين ماتوا وهم يُصلّون قِبَل بيت المقدس، هل يَقبَل الله منّا ومنهم أم لا؟ وقال اليهود: إنّ محمداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، ولو ثبت على قِبلتنا لكنّا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر. وقال المشركون مِن أهل مكة: تحيّر على محمد دينُه، فتوجّه بقِبلته إليكم وعلِم أنّكم أهدى منه. ويوشك أن يدخل في دِينكم. فأنزل الله في المنافقين{ :سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ }إلى قوله{ :إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}، وأنزل في الآخَرين الآيات بَعْدها.

وأخرج ابن عديّ، والبيهقي في "الدلائل "من طريق سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول)) :صلّى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعدما قدِم المدينة ستّة عشر شهراً نحو بيت المقدس، ثم حُوّل بعد ذلك قِبَل المسجد الحرام، قبل بدر بشهريْن.((

وأخرج مالك، وأبو داود في "ناسخه"، وابن جرير، والبيهقي في "الدلائل"، عن سعيد بن المسيب مُرسلاً.

وأخرج أبو داود في "ناسخه"، عن سعيد بن عبد العزيز)) :أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– صلّى نحو بيت المقدس من شهر ربيع الأول إلى جمادى الآخِرة.((

وأخرج ابن جرير، عن سعيد بن المسيب :أنّ الأنصار صلّت للقِبلة الأولى قبل قدوم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة بثلاث حجج، و))أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- صلّى للقبلة الأولى بعد قدومه المدينة ستّة عشر شهراً.((

وأخرج ابن جرير، عن معاذ بن جبل)) :أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- صلّى للقبلة الأولى بعد قدومه المدينة ستّة عشر شهراً.((

وأخرج ابن جرير، عن معاذ بن جبل)) :أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قدِم المدينة فصلّى نحو بيت المقدس ثلاثة عشر شهراً.((

وأخرج البزار، وابن جرير، عن أنس، قال)) :صلّى النبي -صلى الله عليه وسلم- نحو بيت المقدس تسعة أشهر، أو عشرة أشهر. فبينما هو قائم يصلّي الظهر بالمدينة وقد صلّى ركعتيْن نحو بيت المقدس، انصرف بوجهه إلى الكعبة .((فقال السفهاء: ما ولاّهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها؟

وأخرج أبو داود في "ناسخه"، وأبو يعلى، والبيهقي في "سننه"، عن أنس: أنّ النبي-صلى الله عليه وسلم -وأصحابه كانوا يصلّون نحو بيت المقدس، فلما نزلت هذه الآية{ :فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، مرّ رجل من بني سلمة فناداهم وهم ركوع في صلاة الفجر نحو بيت المقدس: ألاَ إنّ القبلة قد حُوِّلتْ إلى الكعبة- مرّتيْن-، فمالوا كَمَا هُم ركوع إلى الكعبة.

وأخرج مالك، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود في "ناسخه"، والنسائي، عن ابن عمر قال :بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آتٍ فقال: إنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أُنزل عليه الليلة القرآن، وقد أُمِر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوهم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.

وأخرج الزبير بن بكار في "أخبار المدينة"، عن عثمان بن عبد الرحمن، قال)) :كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قام يصلِّي انتظر أمْر الله في القِبلة. وكان يفعل أشياء لم يُؤمَر بها ولم يُنْهَ عنها مِن فعْل أهل الكتاب. فبينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم -يصلّي الظهر في مسجده قد صلّى ركعتيْن إذ نزل عليه جبريل، فأشار له أنْ صَلِّ إلى البيْت، وصلّى جبريل إلى البيت. وأنزل الله{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .(}قال: فقال المنافقون :حنّ محمد إلى أرضه وقومه. وقال المشركون: أراد محمد أن يجعلنا له قِبلة، ويجعلنا له وسيلة. وعرَف أن دِيننا أهدى مِن دِينه. وقال اليهود للمؤمنين: ما صَرفكم إلى مكة وترككم به القِبلة قِبلة موسى ويعقوب والأنبياء؟ والله إنْ أنتم إلاّ تُفتنون! وقال المؤمنون: لقد ذهب منّا قوم ماتوا. ما ندري أكنّا نحن وهم على قِبلة أوْ لا؟ قال: فأنزل الله- عز وجل- في ذلك{ :سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا }إلى قوله{ :إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ. }

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة، قال: كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص. صلّت الأنصار حولَيْن قبل قدوم النبي –صلى الله عليه وسلم .–و))صلّى نبي الله بعد قدومه المدينة نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً. ثم وجّهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام((، فقال في ذلك قائلون من الناس: ما ولاّهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها؟ لقد اشتاق الرّجُل إلى مولده. قال الله –عز وجل{ :–قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .} وقال أناس من أناس: لقد صُرفت القبلة إلى البيت الحرام، فكيف أعمالنا التي عملنا في القِبلة الأولى؟ فأنزل الله{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ .}وقد يبتلي الله عباده بما شاء من أمره الأمْر بعد الأمْر، ليعلَم مَن يطيعه ممّن يعصيه؛ وكلّ ذلك مقبول في درجات في الإيمان بالله والإخلاص والتسليم لقضاء الله.

وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة، عن عمارة بن أوس الأنصاري، قال: صلّيْنا إحدى صلاتي العشيّ، فقام رجل على باب المسجد ونحن في الصلاة، فنادى أنّ الصلاة قد وجبت نحو الكعبة، فحوّل أو انحرف إمامنا نحو الكعبة، والنساء والصبيان .

وأخرج ابن أبي شيبة، والبزار، عن أنس بن مالك، قال: جاءنا مُنادي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: إنّ القِبلة قد حُوّلتْ إلى بيت الله الحرام –وقد صلّى الإمام ركعتيْن–، فاستداروا، فصلّوا الركعتيْن الباقيتيْن نحو الكعبة.

وأخرج ابن سعد، عن محمد بن عبد الله بن جحش، قال)) :صلّيتُ القِبلتيْن مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فصُرفت القِبلة إلى البيت ونحن في صلاة الظهر، فاستدار رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بنا، فاستدرنا معه.((

وعن أبي العالية، في قوله{ :يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، قال: يهديهم إلى المخرج مِن الشّبهات والضلالات والفِتن.

وأخرج أحمد، والبيهقي في "سننه"، عن عائشة، قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إنهم– يعني: أهل الكتاب –لا يَحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى القِبلة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام" :آمين.(("

وأخرج الطبراني، عن عثمان بن حنيف، قال)) :كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قبل أن يقدِم من مكة، يدعو الناس إلى الإيمان بالله، في تصديق به قولاً وعملاً، والقبلة إلى بيت المقدس. فلمّا هاجر إلينا نزلت الفرائض، ونسخت المدينة مكة والقولَ فيها، ونَسخ البيت الحرام بيتَ المقدس، فصار الإيمان قولاً وعملاً.((

وأخرج البزار، والطبراني، عن عمرو بن عوف، قال)) :كنّا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين قدِم المدينة، فصلّى نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً، ثم حُوِّلت إلى الكعبة.((

أقوال المفسِّرين.

قيل: المراد بـ}السُّفَهَاء{ ها هنا: مشركو العرب. وقيل: أحبار يهود، وقيل :المنافقون.

قال ابن كثير: والآية عامّة في هؤلاء كلهم –والله أعلم.–

و{عَنْ قِبْلَتِهِمُ }يعني: بيت المقدس.

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر: أنه)) قد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أُمِر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يُصلِّي بيْن الرّكنيْن، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس. فلما هاجر إلى المدينة، تعذّر الجمع بينهما، فأمَره الله بالتوجّه إلى بيت المقدس .((قاله ابن عباس والجمهور.

والمقصود: أنّ التّوجّه إلى بيت المقدس بعد مَقدمه –صلى الله عليه وسلم– المدينة، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجَّه إلى الكعبة التي هي

قبلة إبراهيم -عليه السلام-، فأُجيب إلى ذلك، وأُمِر بالتّوجّه إلى البيت العتيق. فخطب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الناس فأعلمهم بذلك.

ولما وقع هذا، حصل لبعض الناس من أهل النفاق والرّيب والكفَرة من اليهود، ارتياب وزيْغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ما ولاّهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها؟ أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله{ :قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ }أي: الحُكم والتّصرّف والأمر كلّه لله{ .فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، و{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ }أي: الشأن كلّه في امتثال أوامر الله؛ فحيثما وجَّهَنا توجّهْنا. فالطاعة في امتثال أمْره. ولو وجّهَنا في كلّ يوم مرات إلى جهات مُتعدِّدة فنحن عبيده، وفي تصرّفه وخدّامه، حيثما وجّهَنا توجّهْنا. وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه- وأمّته عناية عظيمة، إذ هداهم إلى قِبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجّههم إلى الكعبة المبنيّة على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض؛ إذ هي بناء إبراهيم الخليل- عليه السلام-، ولهذا قال{ :قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.}

المعنى الإجمالي.

يُخبر -سبحانه وتعالى- أنّ خِفاف العقول من الناس -وهم كلّ مَن لمْ يُعمِل عقْله ويَستخدمه الاستخدام الصحيح، ويعني بهم هنا: اليهودَ ومَن وافقَهم وتَبعهم من المشركين والمنافقين-، سوف يصدر منهم ما يُدلّل على هذا السّفه مِن قولهم للمؤمنين: ما الذي جعَلهم يُعرضون عن الجهة التي كانوا يتوجّهون إليها عند صلاتهم، وهي بيت المقدس؟ استنكاراً منهم لذلك، وطعناً في دِينهم. فردّ الله عليهم بأنّ جميع الجهات ومَن فيها مِن مشرق ومغرب وغيرهما، لله سبحانه، يأمُر من شاء بما شاء، ويهدي من شاء إلى الحقّ والصواب عَدلاً منه وفضلاً، لا معقِّب لحُكمه .

مسائل الآية.

الأولى:

اختلف أهل العلْم: هل كان الأمر باستقبال بيت المقدس بالقرآن أو بغيره؟ على قوليْن.

وحكى القرطبي في "تفسيره" عن عكرمة، وأبي العالية، والحسن البصري: أنّ التّوجّه إلى بيت المقدس كان باجتهاده –عليه السلام.–

قلت: مسألة اجتهاده –عليه السلام –فيها نظر واسع، فهو –صلى الله عليه وسلم– لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحْي يوحَى، و))قد علّم جبريل النبي –صلى الله عليه وسلم– الصّلاة فوجّهَه للقِبلة المشروعة بأمْر من الله تعالى في كلٍّ من مكة والمدينة((، على ما ثبت في "الصحيحيْن" من حديث ابن عباس وجابر، فلا معنى للقول بالاجتهاد هنا –والله أعلم.–

الثانية:

قيل)) :كان أوّل صلاة صلاّها إليها :صلاة العصر– ((كما تقدم في "الصحيحيْن" مِن رواية البراء. ووقع عند النسائي، من رواية أبي سعيد بن المعلى: أنّها الظهر، وقال: كنت أنا وصاحبي أوّل مَن صلّى إلى الكعبة. وذكر غير واحد من المفسِّرين وغيرهم)) :أنّ تحويل القِبلة نزل على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقد صلّى ركعتيْن من الظّهر، وذلك في مسجد بني سلمة، فسمِّيَ: "مسجد القِبلتيْن .((وفي حديث نويلة بنت مسلم: أنّهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر، قالت: فتحوّل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال؛ ذكَره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري. وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني، كما جاء في "الصحيحين "عن ابن عمر –رضي الله عنهما.–

قلت: لا يصحّ حديث في تحوّل النبي– صلى الله عليه وسلم– في أثناء الصلاة. والأصل: أنه إنّما صلّى في مسجده. والذي يظهر: أنه نزل عليه الآية بعد صلاة الظهر، فصلّى العصر إلى القِبلة الجديدة منذ بدايتها. وكان قد انطلق أحدهم إلى بني سلمة ليخبرهم، فوصلهم وهم في صلاة العصر، فاستداروا. وتأخّر المخبر لأهل قباء، فلمْ يَصلْهم إلاّ في صلاة الصبح، فأتاهم وهم يصلّون فاستداروا .وقال ابن كثير: والمشهور: أنّ أوّل صلاة صلاّها إلى الكعبة :صلاة العصر، ولهذا تأخّر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر.

وبحْث المسألة بتفاصيلها في السِّيرة، وسيأتي طرَف من ذلك قريباً –إن شاء الله، والله أعلم .–

الثالثة:

تحوّل أهل قباء في صلاة الصبح بعد أن صلّى المسلمون قبْلها عدّة صلوات إلى مكة، فيه دليل على أنّ الناسخ لا يلزم حُكمه إلاّ بعد العلْم به، وإن تقدّم نزوله وإبلاغه، لأنهم لم يؤمَروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء -والله أعلم.-

الرابعة:

إن قلتَ: أيّ فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟

قلت: فائدته: أنّ مفاجأة المكروه أشدّ، والعلْم به قبْل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع، لِمَا يتقدّمه مِن توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأردّ لشَغَبه، وقبْل الرّمي يُراش السّهم.

ونكتفي بهذا القدر -والله تعالى أعلم.-

الأسئلة :

١. (ما ولاهم) : أصله من الولاء والتوالي ، وإذا عدي بحرف (عن) فهو يتضمن معنى الإعراض وترك القرب (صح) .

٢. القبلة : فعلة من المقابلة ، وفي العرف العام اسم للمكان المقابل المتوجه إليه للصلاة (صح) .

٣. سبب نزول هذه الآيات هو نسخ القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام بعد الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين تقريباً (خطأ) .

٤. ثبت في الصحيح أنه لما سمع بعض المسلمين بتحويل القبلة وكانوا في الصلاة داروا كما هم جهة البيت الحرام (صح) .

٥. كان تحويل القبلة إلى البيت الحرام بعد حوالي سنة ونصف من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة (صح) .

٦. اختلف أهل العلم في استقبال النبي ﷺ لبيت المقدس أولاً هل كان باجتهاد منه أم بوحي من الله ، والصحيح أنه اجتهد بذلك على ما كان من قبلة الأنبياء قبله وكان في مكة يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس إذا صلى (خطأ) .

٧. اختلفت الروايات في أول صلاها صليت إلى الكعبة ، والصحيح أنها صلاة الظهر ، ووصل الخبر إلى مسجد قباء العصر وإلى مسجد بني سلمة في الفجر (خطأ) .

٨. الصحيح أن الناسخ من الأحكام لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به وإن تقدم نزوله وإبلاغه (صح) .

٩. في الآيات الإخبار بوقوع الشيء قبل وقوعه ومن فائدة ذلك استعداد القلب له مما يبعده عن الاضطراب إذا وقع (صح) .

١٠. السفيه : خفيف العقل ، ويطلق على كل ما لا يعمل عقله في الاستعمال الصحيح (صح) .

١١. قيل السفهاء هنا : مشركو العرب ، وقيل : أحبار اليهود ، وقيل : المنافقون ، والصحيح أنها في اليهود خاصة كما قال ابن كثير (خطأ) .

١٢. قوله تعالى (عن قبلتهم) يعني : بيت المقدس على الصحيح من أقوال المفسرين (صح)

١٣. روى الطبري والبزار أن النبي ﷺ كان في صلاة عندما نزلت عليه آية تحويل القبلة فتحول هو ومن معه إلى الكعبة ، وهو حديث ضعيف (صح) .

١٤. كان تحويل القبلة فيه بلاء وتمحيص للناس ليظهر المطيع من المخالف (صح) .

١٥. لما تساءل الناس عن الصلاة التي صلوها جهة بيت المقدس هل هي مقبولة أم لا أنزل الله : وما كان الله ليضيع إيمانكم (صح) .

١٦. من فوائد الآيات أن الله يبتلي عبده بما شاء من الأمر بعد الأمر ليعلم المستجيب من المخالف (صح) .

١٧. ثبت عن رسول الله ﷺ أن اليهود لا يحسدوننا على شيء مثل ما يحسدوننا على القبلة ويوم عرفة وعلى قول آمين (خطأ) .

١٨. قوله (يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) أي : يدل من يشاء على القبلة التي ينبغي أن يتولاها (خطأ) .

١٩. كان اليهود ينكرون النسخ حتى لا يبرروا عدم اتباعهم لمحمد ﷺ فكان في تحويل القبلة رد عليهم (صح) .

٢٠. لما كان في إنكار تحويل القبلة والنسخ في الأحكام اعتراض على الله في أمره وحكمه كان الوقوع في ذلك من أعظم السفه وقلة العقل (صح) .

٢١. قدم الله لنسخ القبلة آيات كثيرة تمهد لذلك من قوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها) إلى هذا الموضع (صح) .

٢٢. فعل (تولى) إذا تعدى بنفسه تضمن معنى البعد والإعراض وإذا تعدى بحرف (عن) تولى معنى القرب والولاء (خطأ) .

٢٣. الصحيح أن السفهاء من الناس يشمل اليهود ومشركي العرب والمنافقين ومن تشبه بهؤلاء (صح) .

٢٤. لما تحولت القبل إلى الكعبة أنشأ كل فريق من الكفار يقول كلاماً يشكك المسلمين في دينهم ويطعنون عليهم فأنزل الله : سيقول السفهاء .. (صح) .

٢٥. وعن أبي العالية في قوله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم قال يهديهم إلى المخرج من الشبهات والضلالات والفتن (صح) .

٢٦. في الآيات دليل على أن الإيمان قول وعمل (صح) .

٢٧. قوله تعالى (لله المشرق والمغرب) فله الحكم والأمر في ذلك كله وليس العبرة بالجهة التي يتوجه إليها العبد وإنما العبرة بالاستجابة لأمر الله (صح) .

٢٨. في الآية بيان لمدى عناية الله تعالى بأمة محمد ﷺ حيث هداهم إلى قبلة أبيهم إبراهيم وهي أشرف البقاع في الأرض (صح) .

٢٩. الصحيح أن توجه النبي ﷺ لبيت المقدس أول الأمر كان بأمر من الله ولم يكن عن اجتهاد منه (صح) .

٣٠. ورد في السنن أن الصحابة أعادوا الصلاة التي صلوها إلى بيت المقدس بعد نزول تحويل القبلة (خطأ) .

المحاضرة السابعة والخمسون

***

تفسير الآية (١٤٣) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة :

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ.}

القراءات:

قرأ شعبة، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلَف، ويعقوب: بقصر الهمزة من غير واو : {رَؤُفٌ }على وزن "فَعُل"، وقرأ الباقون: بالمدّ{ رَؤُوفٌ }على وزن" فَعُول"، وكلتاهما من صيغ المبالغة في الفعل التي بعضها أبلغ مِن بعْض في المعنى.

المناسبة :

لما بيّن سبحانه استقامة القِبلة التي وجّههم إليها، وعرّف أنها وسَط لا جوْر فيها، وأنها هي خيْر قِبلة، أرْدف ذلك ببيان خيريّة هذه الأمّة وبيان بعض الحِكم في تحويل القِبلة.

لغويّات.

{وَسَطاً :}خِياراً، وهي صفة بالاسم الذي هو وسَط الشيء، ولذلك استوى فيه الواحد والجمْع والمذكّر والمؤنّث.

وقيل: للخيار وسط لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخَلَل والأعوار، والأوساط محميّة مَحوطة، ومنه قول الطائي:

كانت هي الوسط المحميّ فاكتنفتْ	بها الحوادث حتى أصبحت طرَفَا

أو عدولاً لأنّ الوسط عدْل بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب مِن بعض.

{يَنْقَلِبُ :}مِن قلْب الشيء، وهو: تصريفه وصرْفه عن وجْه إلى وجْه، والانقلاب: الانصراف.

{عَقِبَيْهِ :}العقِب: مؤخّر الرِّجْل، وقولهم: رجَع على عقِبيْه إذا انثنى راجعاً، وانقلب على عقِبيْه نحو: رجع على حافرته، ورجع عوْده على بدْئه.

"رؤوف": الرأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي: رفْع المكروه وإزالة الضرر، ومنه قوله{ :وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ }أي: لا تَرْأفوا بهما فترْفعوا الجَلْد عنهما. والرّحمة أعمّ منه.

الآثار.

أخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، والنسائي وصحّحه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والإسماعيلي في صحيحه، والحاكم وصحّحه، عن أبي سعيد، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله{ :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}، قال)) :عَدْلاً.((

وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله{ :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً }قال)) :عَدْلاً.((

وعن ابن عباس{ :جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً }قال: "جعَلكم أمّة عَدْلاً."

وعن القاسم بن عبد الرحمن، قال: قال رجل لابن عمر: مَن أنتم؟ قال: ما تقولون؟ قال: نقول إنكم سِبْط، وتقول إنكم وسَط. فقال: سبحان الله إنما السِّبط في بني إسرائيل، والأمّة الوسط أمّة محمد -صلى الله عليه وسلم- جميعاً.

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في "الأسماء والصفات"، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله

–صلى الله عليه وسلم)) :–يُدعَى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلّغت؟ فيقول: نعم. فيدعو قومه فيقال لهم: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا مِن أَحَد. فيُقال لنوح :مَن يَشْهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّتُه. فذلك قوله{ :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً .} قال :والوسط: العَدْل. فتُدعَوْن فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم.((

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والنسائي، وابن ماجة، والبيهقي في "البعث والنشور"، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–يَجيء النبيّ يوم القيامة ومعه الرّجل، والنّبيّ ومعه الرجُلان وأكثر من ذلك، فيُدعَى قومُه فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلّغتَ قومَك؟ فيقول: نعم. فيُقال له: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته .فيُدعى محمّد وأمّته، فيقال لهم: هل بلّغ هذا قومَه؟ فيقولون :نعم. فيقال: وما عِلْمكم؟ فيقولون: جاءنا نبيُّنا فأخبرنا أنّ الرّسل قد بلّغوا. فذلك قوله{ :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً .}قال :عَدْلاً{ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً.((}

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال)) :أنا وأمّتي يوم القيامة على كوم مُشرفين على الخلائق. ما مِن الناس أحد إلاّ ودّ أنه منّا، وما مِن نبيّ كذّبه قومه إلاّ ونحن نشهد أنه قد بلّغ رسالة ربِّه –عز وجل–)).

وعن أبي سعيد، في قوله{ :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ }بأن الرّسل قد بلّغوا{ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً }بما عمِلْتم.

وأخرج ابن المنذر، والحاكم في" مستدركه" وصحّحه، وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله، قال)) :شهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– جنازة في بني سلمة، وكنت إلى جانب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقال بعضهم: والله يا رسول الله لنِعْم المرء كان. لقد كان عفيفاً مسلماً، وكان... وأثنَوْا عليه خيراً، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: أنت بما تقول. فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر. فأمّا الذي بدا لنا منه فذاك. فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: وجبَتْ. ثم شهد جنازة في بني حارثة، وكنت إلى جانب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقال بعضهم: يا رسول الله، بئس المرء كان. إن كان لَفَظاً غليظاً، فأثنَوْا عليه شراً، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لبعضهم: أنت بالذي تقول. فقال الرجل: الله

أعلم بالسرائر. فأمّا الذي بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: وجَبَتْ .((قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب: صدَق رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، ثم قرأ{ :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً.}

وأخرج الطيالسي، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"، عن أنس، قال)) :مرّوا بجنازة فأُثنِيَ عليه بخير، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: وجَبَتْ. وجبَتْ. وجَبَتْ. ومرّ بجنازة فأُثنِيَ عليه بشرّ، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-: وجبَتْ. وجَبَتْ .فسأله عمر فقال: مَن أثنيْتُم عليه خيراً وجبَتْ له الجنّة، ومَن أثنيْتُم عليه شراً وجبَتْ له النّار. أنتم شهداء الله في الأرض. أنتم شهداء الله في الأرض. أنتم شهداء الله في الأرض.((

زاد الحكيم الترمذي)) :ثم تلا رسول الله –صلى الله عليه وسلم{ -وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.((}

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، عن عمر: أنه مرّت به جنازة، فأُثْنِيَ على صاحبها خير، فقال: وجبَتْ. وجبَتْ. ثم مرّ بأخرى فأُثْنِي شرّ، فقال عمر: وجبَتْ. فقال أبو الأسود: وما وجَبَتْ؟ قال: قلتُ كما قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :-أيّما مسلم شهِد له أربعة بخيْر، أدخله الله الجنّة. فقلنا: وثلاثة؟ فقال: وثلاثة. فقلنا :واثنان؟ فقال: واثنان((، ولم نسأله عن الواحد.

وأخرج أحمد، وابن ماجة، والطبراني، وابن مردويه، والبغوي، والحاكم في "الكنى" والدارقطني في" الأفراد"، والحاكم في "المستدرك"، والبيهقي في "سننه" عن أبي زهير الثقفي، قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بالبناوة يقول)) :يوشك أن تعلموا خِيارَكم من شِرارِكم((، قال: بِمَ يا رسول الله؟ قال)) :بالثناء الحَسَن والثناء السَّيِّئ. أنتم شهداء الله في الأرض.((

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة، قال: أُتِي النبي –صلى الله عليه وسلم – بجنازة يصلِّي عليها، فقال الناس: نِعْم الرجل! فقال النبي- صلى الله عليه وسلم :-))وجَبَتْ .((وأوتِي بجنازة أخرى، فقال الناس: بِئْس الرجل! فقال)) :وَجَبَتْ .((قال لأُبيّ بن كعب: ما قولك؟ فقال: قال تعالى{ :لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.}

وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم، وأبو نعيم في "الحلية"، والبيهقي في "شُعب الإيمان "والضياء في "المختارة"، عن أنس: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :ما من مسلم يموت، فتَشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنَيْن أنهم لا يعلمون منه لا خيْراً، إلاّ قال الله: قد قَبِلتُ شهادتكم فيه، وغفرتُ له ما لا تعلمون.((

وأخرجه الخطيب في "تاريخه" بلفظ)) :فيشهد له رجلان من جيرانه.((

وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، والطبراني، عن سلمة بن الأكوع، قال: مرّ على النبي– صلى الله عليه وسلم– بجنازة رجل من الأنصار، فأثنِيَ عليها خيراً، فقال :))وجبَتْ .((ثم مرّ عليه بجنازة أخرى، فأثنِيَ عليها دون ذلك، فقال)) :وجبَتْ((، فقال: يا رسول الله، وما وجبَتْ؟ قال)) :الملائكة شهود الله في السماء، وأنتم شهود الله في الأرض.((

وعن كعب قال: أُعطيَتْ هذه الأمّة ثلاث خصال لمْ يُعطَها إلاّ الأنبياء: كان النبي يقال له: بلّغْ ولا حرج، وأنت شهيد على قومك. وادْعُ أُجِبْك. وقال لهذه الأمّة{ :مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}، وقال{ :لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، وقال{ :ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ.}

وعن زيد بن أسلم: أنّ الأمم يقولون يوم القيامة: والله لقد كادت هذه الأمّة أن يكونوا أنبياء كلهم، لما يرون الله أعطاهم.

وأخرج ابن المبارك في "الزهد"، وابن جرير، عن حبان بن أبي جبلة، يسنده إلى رسول الله– صلى الله عليه وسلم– قال)) :إذا جمع الله عباده يوم القيامة، كان أوّل مَن يُدعَى إسرافيل، فيقول له ربه: ما فعلْتَ في عهدي؟ هل بلغت عهدي؟ فيقول نعم ربِّ. قد بلّغتُه جبريل. فيُدعَى جبريل، فيقال: هل بلّغك إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم. فيُخلّى عن إسرافيل، ويقول لجبريل: هل بلّغتَ عهدي؟ فيقول: نعم. قد بلّغتُ الرّسل. فتُدعى الرّسُل، فيقال لهم: هل بلّغَكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم .فيُخلّى جبريل. ثم يقال للرّسل: هل بلّغتُم عهدي؟ فيقولون: نعم .بلّغناه الأمَم. فتُدعى الأمَم، فيقال لهم: هل بلّغَتْكم الرّسلُ عهدي؟ فمنهم المكذِّب ومنهم المصدِّق. فتقول الرّسُل: إنّ لنا عليهم شهداء. فيقول: مَن؟ فيقولون: أمّة محمد –صلى الله عليه وسلم–. فتُدعَى أمّة محمد –صلى الله عليه وسلم–، فيقال لهم : أتشهدون أنّ الرسل قد بلّغت الأمم؟ فيقولون: نعم. فتقول الأمم: يا ربّنا، كيف يشهد علينا مَن لم يُدركنا؟ فيقول الله :كيف تشهدون عليهم ولمْ تُدركوهم؟ فيقولون: يا ربّنا، أرسلتَ إلينا

رسولاً، وأنزلتَ علينا كتاباً، وقصصْتَ علينا فيه أنْ قد بلّغوا؛ فنشهد بما عهدتَ إلينا. فيقول: الرّبّ: صدقوا. فذلك قوله{ :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}، والوسط: العَدْل، { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .((}

وعن أبيّ بن كعب، في الآية، قال { :لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ :}يوم القيامة كانوا شهداء على قوم نوح، وعلى قوم هود، وعلى قوم صالح، وعلى قوم شعيب، وعندهم: أنّ رسُلهم بلّغتهم، وأنّهم كذّبوا رسلَهم. قال أبو العالية: وهي في قراءة أبيّ: "لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة."

وعن عطاء، في قوله{ :وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}، قال: يشهد أنهم قد آمنوا بالحق إذ جاءهم وقبِلوه وصدّقوا به.

وعن عبيد بن عمير، قال: يأتي النبي بأمّته ليس معه أحد، فتشهد له أمّة محمد أنّه قد بلّغَهم.

وعن عكرمة، قال: "يقال: يا نوح قد بلّغت؟ قال: نعم، يا رب. قال: فمَن يشهد لك؟ قال: ربّ، أحمد وأمّته .قال: فكلّما دُعيَ نبيّ كذّبه قومه، شهدتْ له هذه الأمّة بالبلاغ. فإذا سَأل عن هذه الأمّة لم يَسأل عنها إلا نبيّها."

وعن حبان بن أبي جبلة، قال: بلغني أنْ ترفع أمّة محمد على كوْم بين يدي الله، تشهد للرّسل على أممها بالبلاغ، فإنّما يشهد منهم يومئذ مَن لم يكن في قلْبه إحْنة على أخيه المسلم.

وأخرج مسلم، وأبو داود، والحكيم الترمذي، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله)) :لا يكون اللّعّانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة .((

وتقدّمت الأحاديث في الأمر بتحويل القِبلة في المحاضرة السابقة.

وعن عطاء في قوله{ :وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا}، قال: يعني: بيت المقدس،{ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ}، قال: يبتليهم لِيعْلم من يسلِّم لأمْره.

وعن ابن عباس، في قوله{ :إِلاَّ لِنَعْلَمَ}، قال: إلاّ لنميِّز أهل اليقين من أهل الشّكّ{ .وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً }يعني: تحويلها، على أهل الشّكّ والرّيْب.

وعن ابن جريج، قال: بلغني أنّ أناساً من الذين أسلموا رجعوا فقالوا: مرة ههنا ومرة ههنا.

وعن مجاهد في قوله{ :وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً }يقول: ما أمر به مِن التّحوّل إلى الكعبة من بيت المقدس.

وعن الحسن: أنّ الحجاج قال له: ما رأيك في أبي تراب؟ فقرأ قوله{ :إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ .}ثم قال :وعليّ منهم، وهو ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخَتَنه على ابنته، وأقرب الناس إليه وأحبّهم.

وأخرج وكيع، والفريابي، والطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وصحّحه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن حبّان، والطبراني، والحاكم وصحّحه، عن ابن عباس، قال: لما وُجّه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى القِبلة قالوا: يا رسول الله، فكيف بالذين ماتوا وهم يُصلّون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ .}

وفي الصحيح، عن البراء، قال: مات قوم كانوا يُصلّون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ.}

وعن البراء بن عازب، في قوله{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}، قال: صلاتكم نحو بيت المقدس.

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}، يقول: صلاتكم التي صلّيْتُم من قبل أن تكون القِبلة، وكان المؤمنون قد أشفقوا على مَن صلّى منهم أن لا يقبل صلاتهم.

وعن ابن عباس{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ }أي: بالقِبلة الأولى، وتصديقكم نبيّكم واتّباعه إلى القِبلة الأخرى، أي: ليعطيكم أجرهما جميعاً .

وقال الحسن البصري{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ :}أي: ما كان الله ليضيع محمداً- صلى الله عليه وسلم-، وانصرافكم معه حيث انصرف؛ إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم .

و عن سعيد بن جبير، في قوله{ :رَؤُوفٌ}، قال: يرأف بكم.

أقوال المفسِّرين.

قوله تعالى{ :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ }أي: مثل ذلك الجعْل العجيب جعلناكم، وكثيراً ما تأتي "كذلك" مقصوداً بها تثبيتُ ما بعْدها.

وقيل: مثلما جعلنا قِبلَتكم وسطاً لأنها إلى البيت العتيق الذي هو وسَط الأرض، وهو بناء إبراهيم الذي هو أوسط الأنبياء، وهو مع ذلك خيار البيوت، فهو وسط بكل معنى {جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً.}

ومعنى الآية: إنّما حوّلناكم إلى قبلة إبراهيم -عليه السلام-، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط ههنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيْرها. وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسطاً في قومه، أي :أشرفهم نسباً. ومنه: الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، وهي: العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها...

ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً، خصّها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى{ :هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}؛ وذلك أنّ الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالِب الله الأنبياء بالبيِّنة على أنهم قد بلّغوا -وهو أعلم-، فيُؤتَى بأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- فيشهدون. فتقول الأمم: مِن أين عرفتم؟ فيقولون :علِمْنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيّه الصّادق. فيُؤتَى بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، فيُسأل عن حال أمّته، فيُزكّيهم ويشهد بعدالتهم؛ وذلك قوله تعالى{ :فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً.}

وقيل: لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا، فيما لا يصحّ إلاّ بشهادة العدول الأخيار، ويكون الرسول عليكم شهيداً، يزكّيكم ويُعْلم بعدالتكم.

وقوله{ :الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا }ليست بصفة للقِبلة، إنما هي ثاني مفعولَيْ "جعل"، يريد: وما جعلنا القِبلة الجهة التي كنت عليها وهي الكعبة، لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يصلِّي بمكة إلى الكعبة، ثم أُمِر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة، تألّفاً لليهود، ثم حُوِّل إلى الكعبة؛ فيقول: وما جعلنا القِبلة التي يجب أن تستقبلها الجهة التي كنتَ عليها أوّلاً بمكة -يعني: وما ردَدْناك إليها إلاّ امتحاناً للناس وابتلاءً-، لِنعلَم الثابت على الإسلام

الصادقَ فيه، ممّن هو على حرْف ينكص على عقبيه، لقَلَقِه فيرتدّ، كقوله{ :وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا }...الآية.

ويجوز أن يكون بياناً للحكمة في جعْل بيت المقدس قِبلته، يعني: أنّ أصل أمْرك أن تستقبل الكعبة، وأن استقبالك بيت المقدس كان أمْراً عارضاً لغرَض. وإنما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا –وهي بيت المقدس–، لنمتحن الناس، وننظر مَن يتّبع الرسول منهم ومَن لا يتّبعه وينفر عنه، كما سبق عن ابن عباس –رضي الله عنه– أنه كانت قبلته بمكّة بيت المقدس، إلاّ أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه .

فيقول تعالى: إنما شرعْنا لك يا محمد التّوجّه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حال مَن يتّبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجّهت،{ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ }أي: مُرتداً عن دِينه{ .وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً }أي: هذه الفعلة، وهو: صرْف التّوجّه عن بيت المقدس إلى الكعبة. أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس،{ إِلاَّ عَلَى الَّذِين هَدَى اللَّهُ }قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأنّ كلّ ما جاء به فهو الحق الذي لا مِرية فيه، وأنّ الله يفعل ما يشاء ويَحكُم ما يريد، فله أن يُكلِّف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرَض، فإنه كلّما حدث أمْر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للّذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى{ :وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ}، وقال تعالى{ :قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً}، وقال تعالى : {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً}، ولهذا كان مَن ثبَت على تصديق الرسول –صلى الله عليه وسلم –واتّباعه في ذلك، وتَوجّه حيث أمَره الله من غير شكّ ولا ريْب من سادات الصحابة.

وقد ذهب بعضهم إلى أنّ السابقين الأوّلِين من المهاجرين والأنصار هُم الذين صلَّوْا إلى القِبلتيْن.

وقد مرّ في الآثار سرعةُ استجابتهم- رضي الله عنهم- لأمْر الله، حتى إنهم تحوّلوا أثناء صلاتهم، وهذا يدلّ على كمال طاعتهم لله ولرسوله، وانقيادهم لأوامر الله -عز وجل- رضي الله عنهم أجمعين.-

قال الزمخشري{ :وَإِنْ كَانَتْ }أي: الرّدّة، أو التحويلة، أو الجعلة، ويجوز أن يكون لِلقِبلة . {لَكَبِيرَةً :}لثقيلة شاقّة،{ إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ }أي: إلاّ على الثابتين الصادقين في اتّباع الرسول -صلى الله عليه وسلم.-

وقوله{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ }أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك. ما كان يضيع ثوابها عند الله.

وقيل{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ }أي: ثباتكم على الإيمان، وأنّكم لم تزِلّوا ولم ترتابوا، بل شكَر صنيعَكم وأعدّ لكم الثواب العظيم .

وجوّز بعضهم أن يُراد: وما كان الله ليَترك تحويلَكم لعِلْمه أنّ ترْكه مفسدة وإضاعة لإيمانكم.

{إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}، في الصحيح: أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى امرأة مِن السبي قد فُرّق بينها وبين ولدها، فجعلتْ كلّما وجدت صبياً من السبْي أخذتْه فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها. فلما وجدته ضمّته إليها وألقمته ثدْيَها. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم)) :-أترَوْن هذه طارحةً ولدَها في النار، وهي تقدر على أن لا تطرحه؟ ((قالوا: لا، يا رسول الله. قال)) :فوالله لَلّهُ أرحمُ بعباده مِن هذه بولَدِها.((

المعنى الإجمالي.

يبيّن تعالى أنه قد تفضّل على هذه الأمّة بفضل عظيم، بعد تفضّله عليهم بالهداية إلى القِبلة والصراط المستقيم، وهو أنّه جعلَهم خيْر الأمم، وجعلهم عُدولاً يشهدون على الخلائق يوم القيامة، حيث تجحد الأمم رسالة أنبيائهم، فيشهدون لأنبياء الله بالبلا غ، ويشهد لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالصِّدق والعدالة.

ثم بيّن سبحانه أنه ما شرع التوجّه لبيت المقدس أوّلاً إلاّ لحِكمة بالغة، وهي: تمييز الخبيث مِن الطّيِّب، وإظهار المؤمن الصادق الذي يتّبع رسوله -صلى الله عليه وسلم- ويُصدِّقه مِن الذي لم يستقرّ الإيمان في قلبه، فينصرف عن الحق ويتحوّل إلى ما كان عليه مِن كفْر مرّة أخرى.

وقد ذكر سبحانه أنّ هذه الفتنة -وهي تحويل القِبلة- كانت عظيمة ومؤثِّرة على الناس، خلا مَن هداهم الله من المؤمنين الصادقين الخلّص.

ثم طمْأن الله عباده المؤمنين عمّا دار بخلَدهم عن صلاتهم إلى القِبلة المنسوخة: هل قُبلتْ منهم وأُجِروا عليها أم لا؟ فأخبرهم سبحانه أنه -لاتِّصافه بالرأفة بالناس والرحمة التّامّة- لا يُعقَل منه أن يُضيع عليهم صلاتهم وأجْرها، وأنه سوف يوفِّيهم ذلك كاملاً.

مسائل الآية.

الأولى:

إن قلتَ: هلاّ قيل: "لكم شهيداً"، لأنّ شهادته لهم، لا عليهم؟

قلت: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له، جيء بكلمة الاستعلاء، ومنه قوله تعالى{ :وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}،{ كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.}

الثانية:

إن قلتَ: لِم أُخِّرتْ صِلة الشهادة أوّلاً، وقُدِّمتْ آخِراً؟

قلت: لأنّ الغرَض في الأوّل: إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر: اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم.

الثالثة:

إن قلت: كيف قال{ :لِنَعْلَمَ}، ولم يزَلْ عالِماً بذلك؟

قلت: معناه: لِنعلَمَه علْماً يتعلّق به الجزاء، وهو أن يَعلَمَه موجوداً حاصلاً، ونحوه{ :وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ.}

وقيل: لِيعْلم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنون، وإنما أسند علْمهم إلى ذاته لأنّهم خواصّه وأهل الزّلفَى عنده.

وقيل: معناه لنميّز التابع من النّاكص، كما قال{ :لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، فوضَع العلْم موضِع التّمييز لأنّ العلْم به يقع التّمييز به.

وقد طرح الآلوسي هذه الشّبهة وذكَر هذه الأوجه، وزاد عليها؛ فلْيراجعْها مَن أراد التّوسّع.

الرابعة:

احتجّ بقوله تعالى{ :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً }على صحّة الإجماع، وقد ناقش الآلوسي أوجه القائل بذلك والمعارِض له، ثم قال: على أنّ مَن نظر بعين الإنصاف، لمْ يَرَ في الآية أكثر مِن دلالتها على أفضليّة هذه الأمّة على سائر الأمم؛ وذلك لا يدلّ على حجّيّة الإجماع، ولا عدَمِها.

ثم ذكر ادّعاء بعض الشيعة: أنّها خاصة بالأئمّة الاثنَيْ عشَر، ونقل بعض خرافاتهم، ثم قال: ولا يخفى أنّ دون إثبات ما قالوه خرْط القتاد. قلت: وهو كما قال.

الأسئلة :

١. قرئ (وسطاً) بفتح السين وإسكانها ، فبالفتح على معنى الكمال ، أي الأمة الكاملة ، وبالإسكان على معنى العدالة أي الأمة العدل بين الأمم (خطأ) .

٢. قرئ (رؤوف) بهمزة من غير واو ، وبالواو بعد الهمزة ، وكلتاهما من صيغ المبالغة وإن كان بعضها أقوى في المبالغة من بعض (صح) .

٣. لما بين الله تعالى أن القبلة التي أمر المسلمين بالتوجه إليها هي خير قبلة وهي قبلة إبراهيم عليه السلام أتبع ذلك بذكر أن هذه الأمة هي خير الأمم لأنها الأمة التي تتبع ملة إبراهيم (صح) .

٤. وسطاً : أي خياراً ، وقيل للخيار وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل بخلاف الأوساط فإنها محمية محوطة (صح) .

٥. قيل : وسطاً بمعنى عدلاً ، لأن الوسط عدل بين الأطراف ، وهو قول مرجوح والصحيح أن وسطاً بمعنى خياراً (خطأ) .

٦. الانقلاب هو الانصراف من قلب الشيء وهو تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه آخر (صح) .

٧. عقبيه : من العقب ، وهو مقدمة القدم (خطأ) .

٨. يقال : رجع على عقبيه لمن انثنى راجعاً (صح) .

٩. الرأفة أعم من الرحمة ، وهي تتضمن رفع المكروه وإزالة الضرر (خطأ) .

١٠. الرأفة رحمة خاصة ، وهي رفع المكروه وإزالة الضرر (صح) .

١١. ثبت أن أمة محمد ﷺ تشهد على جميع الأمم الماضية يوم القيامة لما جعل الله فيها من العدالة والخيرية (صح) .

١٢. ثبت أن هذه الأمة تشهد يوم القيامة أن الأنبياء قد بلغوا أمر الله الذي بعثوا به إلى أقوامهم ثم يشهد عليه رسول الله ﷺ (صح) .

١٣. الحديث الذي ورد في بعض السنن أنه مرت جنازة فأثنى الناس عليها خيراً وأخرى أثنى الناس عليها شراً ، فقال النبي ﷺ : وجبت أنتم شهداء الله في الأرض حديث ضعيف لا تقوم به حجة (خطأ) .

١٤. ذكر الرافضة أن قوله تعالى (أمة وسطاً) خاص بالأئمة الاثني عشر ، وهذا القول من ضلالاتهم وخرافاتهم (صح) .

١٥. استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة معتبرة ، وهو ما رجحه الألوسي رحمه الله ، وهو الصحيح وعليه أدلة كثيرة (خطأ) .

١٦. لا دلالة في الآية على حجية الإجماع في هذه الأمة كما هو ظاهر (صح) .

١٧. قوله (إلا لنعلم من يتبع الرسول) أي : ليعلم الرسول والمؤمنون ذلك ، وأضاف ذلك إلى نفسه لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده (صح) .

١٨. قوله تعالى (لنعلم) وهو الذي لم يزل عالماً على معنى العلم به حاصلاً موجوداً (صح)

١٩. تقديم الشهادة في قوله (لتكونوا شهداء على الناس) لأنها المقصودة بالكلام وإثبات شهادتهم على الأمم ، وأخرها في قوله (ويكون الرسول عليكم شهيداً للاهتمام بذكر الرسول وتخصيص شهادته بهم (صح) .

٢٠. تعدت الشهادة بحرف (على) ولم تتعد باللام لأنها تضمنت معنى المراقبة والهيمنة (صح) .

٢١. في الآية دليل على أن الحكمة من تحويل القبلة الامتحان والاختبار للمؤمنين ليظهر الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق (صح) .

٢٢. قوله (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) فيه أنواع من التأكيد بإن واللام وتقديم لفظ الجلالة وأوزان المبالغة في اسمي الله تعالى (خطأ) .

٢٣. ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (لله أرحم بولده من الأم بولدها) (صح) .

٢٤. قوله (وإن كانت لكبيرة) هي الصلاة ، وقال عنها كبيرة أي شاقة لأنه لا يتمسك بها إلا الخاشعون المؤمنون كما قال تعالى : (وإنها لكبيرة إلى على الخاشعين) (خطأ) .

٢٥. لما أمر الله بتحويل القبلة تساءل الناس عمن صلى إلى بيت المقدس ومات فأنزل الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) (صح) .

٢٦. سمى الله الصلاة إيماناً في هذه الآية وفيها الدلالة على أن الإيمان قول وعمل (صح) .

٢٧. التعبير عن الصلاة هنا بالإيمان لأنها من أهم علامات أهل الإيمان (صح)

٢٨. شهادة أمة محمد ﷺ على باقي الأمم يوم القيامة وإن كانوا لم يشاهدوهم بما معهم من العلم بالوحي الذي جاءهم من عند الله (صح) .

٢٩. حديث (لا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة) حديث ضعيف عند أهل العلم (خطأ) .

٣٠. وقال الحسن البصري وما كان الله ليضيع إيمانكم أي ما كان الله ليضيع محمدا صلى الله عليه وسلم وانصرافكم معه حيث انصرف إن الله بالناس لرءوف رحيم (صح) .

المحاضرة الثامنة والخمسون

***

تفسير الآيتيْن (١٤٤) و(١٤٥) من سورة) البقرة.(

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ .}

القراءات:

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ :}قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وروح : بالخِطاب، فيشمل المؤمنين وغيرهم. وقيل: هو وعْد للمؤمنين فقط. وقرأ الباقون بالغَيبة موجّهاً لأهل الكتاب على الوعيد لهم. وقيل: الضمير على القراءتيْن لجميع الناس، فيكون وعْداً ووعيداً للْفريقيْن من المؤمنين والكافرين.

المناسبة :

ما زالت الآيات في قصة تحويل القبلة وسابقها ولاحقها، وموقف أهل الكتاب منها.

لغويّات.

}قَدْ نَرَى{ أي: ربّما نرى، ومعناه: كثرة الرؤية، كقوله:

قدْ أترك القِرْن مصفراً أنامِلُهُ

وزعم بعضهم أنّ }قَدْ{ هنا للتّقليل لظنّه أنّ قلّة التّقليب أكمل في الأدب، وهذا غير صحيح. والتّكثير دلّ عليه لفظ التّقلّب.

وهل التّكثير معنى مجازيّ لِ}قَدْ{ أو حقيقي؟ قولان، نُسب الثاني لسيبويه.

}شَطْرَ الْمَسْجِدِ{: جهته، ونحوه قال الشاعر:

وأظعن بالقوم شطْر الملوكِ

وهو: ظرف زمان. والشطر في الأصل لِما انفصل عن الشيء، ثم استُعمل لجانبه، وقيل: وإن لم ينفصل. وشطر الشيء: وسطه، وأحياناً يُراد منه: النِّصف، يقال: شاطرْته شطاراً أي: ناصفْته، وليس مراداً هنا.

}الْحَرَامِ{: المحرّم، أي: المحرّم فيه القتال أو الصيد ونحوه، أو الممْنوع مِن الظَّلمة أن يتغلّبوا عليه.

وأصل الحرام: الممنوع منه، إمّا بتسخير إلهي، وإمّا بمنع قهريّ، وإما بمنع من جهة العقل، أو من جهة الشرع، أو من جهة من يرتسم أمره.

الآثار.

عن ابن عباس قال: كان أوّل ما نُسخ من القرآن: القِبلة وذلك أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود .فاستقبلها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بضعة عشر شهراً، وكان يحبّ قبلة إبراهيم، فكان يدعو إلى الله، وينظر إلى السماء، فأنزل الله{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ }إلى قوله{ :فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}، فارتابت من ذلك اليهود، وقالوا : {مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}، وقال{ :فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، وقال الله تعالى{ :وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ.}

وأخرج البخاري وغيره، عن البراء)) :أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– صلّى قِبَل بيْت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً. وكان يعجبه قِبلته قِبل البيت، وأنه صلّى صلاة العصر

وصلّى معه قوم، فخرج رجُل ممّن كان يصلّي معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صلّيْتُ مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قِبَل مكّة. فداروا كما هم قِبل البيت.((

وأخرج عبد الرزاق، عن البراء، قال)) :لما قدِم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً. وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يحبّ أن يُحوّل نحو الكعبة، فنزلت{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ}، فصرف إلى الكعبة.((

وأخرج ابن ماجة، عن البراء، قال)) :صلّيْنا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً، وصُرفت القِبلة إلى الكعبة بعد دخوله المدينة بشهريْن. وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلّب وجهه في السماء، وعلم الله من قلْب نبيِّه أنه يهوى الكعبة، فصعد جبريل، فجعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يُتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض، ينظر ما يأتيه به، فأنزل الله{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ }...الآية، فقال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: يا جبريل، كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس((، فأنزل الله{ :وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ.(({

وأخرج الطبراني، عن معاذ بن جبل قال)) :صلّى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعد أن قدِم المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً، ثم أنزل الله أنه يأمره فيها بالتحوّل إلى الكعبة فقال{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ }...الآية.((

وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال)) :كان النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا سلّم من صلاته إلى بيت المقدس رفَع رأسه إلى السماء، فأنزل الله{ :فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }إلى الكعبة، إلى الميزاب، يؤمّ به جبرائيل –عليه السلام.((–

وأخرج ابن مردويه، عن نويلة بنت أسلم، قالت: صلّيْنا الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلْنا مسجد إيلياء، فصلّيْنا ركعتيْن، ثم جاء مَن يُحدِّثنا أنّ رسول –صلى الله عليه وسلم– قد استقبل البيت الحرام، فتحوّل النساء مكان الرِّجال والرِّجال مكان النساء، فصلّيْنا السجدتيْن الباقيتيْن ونحن مستقبلون البيت الحرام. فحدّثني رجُل من بني حارثة أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :أولئك رجال يؤمنون بالغيْب.((

وأخرج ابن مردويه، عن عمارة بن أوس، قال: "بينما نحن في الصلاة نحو بيت المقدس ونحن ركوع، إذ نادى منادٍ بالباب أنّ القِبلة قد حُوِّلتْ إلى الكعبة. قال :فأشهد على إمامنا أنه أنحرف فتحوّل هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة."

وأخرج ابن مردويه، عن ابن عمر)) :أنّ أوّل صلاة صلاّها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى الكعبة: صلاة الظهر((، وأنها الصلاة الوسطى.

وأخرج النسائي، والبزار، وابن المنذر، والطبراني، عن أبي سعيد بن المعلّى، قال: كنّا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فنمرّ على المسجد، فنصلّي فيه .))فمررنا يوماً ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– قاعد على المنبر، فقلت: لقد حدَث أمْر . فجلست. فقرأ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هذه الآية{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ }...حتى فرغ من الآية .((فقلت لصاحبي :تعالَ نركعْ ركعتيْن قبْل أن ينزل رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فنكون أوّل مَن صلّى. فتواريْنا فصلّينا)) .ثم نزل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فصلّى بالناس الظهر يومئذ إلى الكعبة.((

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة، في قوله{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}، قال: هو يومئذ يصلّي نحو بيت المقدس، وكان يهوَى قِبلة نحو البيت الحرام، فولاّه الله قِبلة كان يهواها ويرضاها{ .فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، قال: تلقاء المسجد الحرام.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد، قال: قالت اليهود: يُخالفنا محمّد ويتّبع قبلَتنا؟ فقال :يدعو الله ويستفرض القبلة، فنزلت{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ }...الآية. فانقطع قول يهود حين وُجِّه للكعبة، وحوّل الرِّجال مكان النساء والنساء مكان الرّجال.

وأخرج البيهقي في "سننه"، عن ابن عباس– رضي الله عنهما–: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :البيت قِبلة لأهل المسجد، والمسجد قِبلة لأهل الحرَم، والحرم قبلة لأهْل الأرض، في مشارقها ومغاربها مِن أمّتي.((

وعن ابن عباس، قال: "البيت كلّه قِبلة، وقِبلة البيت الباب."

وعن عبد الله بن عمرو، في قوله{ :فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}، قال: "قِبلة إبراهيم نحو الميزاب."

وعن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه{ :-فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، قال: شطره: قِبَلَه.

وعن البراء في قوله{ :فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، قال: قِبَلَه.

وعن ابن عباس، قال{ :شَطْرَهُ :}نحْوه .

وعن مجاهد في قوله{ :شَطْرَهُ }يعني: نحوه.

وعن أبي العالية في قوله{ :شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، قال: تلقاءه.

وهذا قول عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم ...

وعن رفيع قال{ :شَطْرَهُ :}تلقاءه -بلسان الحبش .-

وعن أبي رزين قال: في قراءة عبد الله: "وحيثُما كُنتم فولُّوا وجوهَكم قِبَلَه."

وعن السدي، في قوله{ :وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، قال :أنزل ذلك في اليهود.

وعن ابن عباس، في قوله{ :وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ}، قال: يعني بذلك القِبلة.

وعن أبي العالية، في قوله{ :وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ}، يقول: لَيعلمون أنّ الكعبة كانت قِبلة إبراهيم والأنبياء، ولكنّهم تركوها عمداً،{ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ}، يقول: يكتمون صِفة محمد وأمْر القِبلة.

أخرج ابن جرير، عن السدي، في قوله{ :وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ}، يقول: لا اليهود بتابعي قِبلةَ النصارى، ولا النصارى بتابعي قِبلة اليهود .

أقوال المفسِّرين.

قوله{ :تَقَلُّبَ وَجْهِكَ :}تردّد وجْهِك، وتصرّف نظرِك في جهة السماء.

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتوقّع من ربّه أن يحوّله إلى الكعبة، لأنها قِبلة أبيه إبراهيم، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتُهم ومزارُهم ومطافُهم، ولمخالفة اليهود، فكان يراعي نزول جبريل -عليه السلام- والوحي بالتحويل.

{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ :}فلنُعطينّك ولنُمكِّننّك مِن استقبالها، من: قولك: "ولّيتُه كذا" إذا جعلتَه والياً له، أو فلنجْعلنّك تلِي سَمْتها دون سَمْت بيت المقدس.

{تَرْضَاهَا :}تحبّها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرْتَها، ووافقتْ مشيئةَ الله وحِكمته.

{فَوَلِّ وَجْهَكَ :}تخصيص التّولية بالوجه، لأنّه مدار التّوجّه، وقيل المراد: جميع البدن، وكُنِيَ بذلك عنه لأنه أشرف الأعضاء وبه يتمايز الناس، وقيل: مراعاة لذِكْره قبْل.

{شَطْرَ الْمَسْجِدِ :}نُصب على الظرف، أي: اجعلْ توليَةَ الوجه تلقاء المسجد، أي: في جهته وسَمْته، لأن استقبال عين القِبلة فيه حرَج عظيم على البعيد. وذكْر المسجد الحرام دون الكعبة دليل على أنّ الواجب مراعاة الجهة دون العيْن.

وهذا عليه الأكثرون: أنّ المراد :المواجهة، وكما في الحديث)) :ما بيْن المشرق والمغرب قِبلة.((

وقال آخرون، وهو أحدُ قولَي الشافعي :أنّ الغرض إصابة عيْن الكعبة.

وقوله{ :وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ :}أمَر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النّافلة في حال السّفر، فإنه يُصلّيها حيثما توجّه قالَبه وقلْبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسابقة في القتال يصلِّي على كلّ حال. وكذا مَن جَهِل جهة القِبلة يصلّي باجتهاده، وإن كان مخطئاً في نفْس الأمر، لأن الله تعالى لا يكلّف نفساً إلاّ وُسعها.

قال الآلوسي: وفائدة تعميم الأمكنة على ما ذهب إليه البعضُ: دفْع توهّم أنّ هذه القبلة مختصّة بأهل المدينة. وقيل: لما كان الصّرف عن الكعبة لاستجلاب قلوب اليهود، وكان مظنّة أن لا يتوجّه إليها في حضورهم، أشار إلى تعميم التّولية جميع الأمكنة. أو يقال: صرّح بأن التّولية جهة الكعبة فرْض مع حضور بيت المقدس، ولأهله أيضاً لئلاّ يظنّ أنّ حضور بيت المقدس يَمنع التّوجّه إلى جهة الكعبة مع غيبتها.

وقوله{ :وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ }أي: واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أنّ الله تعالى سيوجِّهك إليها، بما في كُتبهم عن أنبيائهم، مِن النّعت والصِّفة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأمّته، وما خصّه

الله تعالى به وشرّفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكنّ أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم، حسداً وكفراً وعناداً؛ ولهذا تهدّدهم تعالى بقوله{ :وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.}
قال الزمخشري: لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله أنّه يصلّي إلى القِبلتيْن.

ثم يخبر تعالى عن كفْر اليهود وعنادِهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وأنه لو أقام عليهم كلّ دليل على صحّة ما جاءهم به، لَمَا اتّبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى{ :إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}، ولهذا قال ها هنا{ :وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ}، وقوله{ :وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ :}إخبار عن شدّة متابعة الرسول –صلى الله عليه وسلم– لِمَا أمَره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضاً مستمسك بأمْر الله وطاعته واتّباع مرضاته، وأنه لا يتّبع أهواءهم في جميع أحواله، ولا كونه متوجِّهاً إلى بيت المقدس لكوْنها قِبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمْر الله تعالى.
وقوله{ :بِكُلِّ آيَةٍ }أي: بكلّ برهان قاطِع أنّ التّوجّه إلى الكعبة هو الحقّ.
{مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ }لأنّ ترْكهم اتّباعك ليس عن شبهة تُزيلها بإيراد الحجّة، إنما هو عن مكابرة وعناد، مع علمهم بما في كُتبهم مِن نعْتك أنك على الحق.
{وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ }حسْم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك، وقالوا: لو ثَبت على قِبْلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبَنا الذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قِبلتهم.
وفيها إشارة إلى أنّ هذه القبلة لا تصير منسوخة أبداً. وقيل: إنها خبريّة لفظاً، إنشائية معنىً، ومعناها: النهْي، أي: لا تتّبعْ قِبلتهم، أي: داوِمْ على عدَم اتّباعِها.
{وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ }يعني :أنهم مع اتّفاقهم على مخالفتِك، مُختلفون في شأن القِبلة، لا يُرجى اتّفاقُهم كما لا تُرجَى موافقتُهم لك؛ وذلك أنّ اليهود تستقبل بيت المقدس، والنّصارى مَطلع الشمس. أخبر –عز وجل– عن تصلّب كلِّ حزْب فيما هو فيه، وثباته عليه. فالمحِقّ منهم لا يزلّ عن مذهبه لِتَمسّكه بالبرهان، والمبطل لا يُقلع عن باطله لشدّة شكيمته في عناده.

ثم حذّر تعالى عن مخالفة الحقّ الذي يعلَمه العالِم، إلى الهوى؛ فإنّ العالِم الحجّةُ عليه أقوم من غيره؛ ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد به الأمّة{ :وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ.}

وقوله{ :وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ }بعْد الإفصاح عن حقيقة حالِه المعلومة عنده في قوله{ :وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ :}كلام وارد على سبيل الفرْض والتقدير، بمعنى: ولئن اتّبعتَهم مثلاً بعْد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمْر، إنّك إذاً لَمِنَ الظالمين المرتكبين الظّلم الفاحش. وفي ذلك لُطف للسّامعين، وزيادة تحذير واستفظاع لحال مَن يَترك الدليل بعد إنارته، ويتّبع الهوى، وتهييج وإلهاب للثّبات على الحقّ.

المعنى الإجمالي.

يذكر تعالى أنّه كان –جلّ في عُلاه –مُطّلعاً عالِماً بتكرار نظَر النّبي –صلى الله عليه وسلم – إلى السماء، ينتظر الوحي من ربّه لِيحوِّل قِبلتَه إلى بيته الحرام. وقد حصل ما كان ينتظر، فولاّه الله القِبلة التي تُرضيه وتَقَرّ بها عينُه، وأمَره أن يتوجّه حالَ صلاته إلى جهة المسجد الحرام، سواء أكان في المدينة، أمْ في أيّ مكان حلّ فيه هو وسائر المؤمنين.

ثم أخبر سبحانه أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّ هذا الأمر حقّ من ربهم لعِلْمهم بصدق نبوّته– صلى الله عليه وسلم– وما لديْهم من أخبار عنه في كُتبهم، وأنه سبحانه لا يعزب عنه شيء ممّا يعملونه هم وغيرهم، وسيجازي كلاًّ بما يستحقّ.

ثم أيأس الله تعالى رسولَه مِن مُجادلة أهل الكتاب، وأخبره أنهم ليسوا في حاجة للبراهين والأدلّة لأنهم يجحدون عن علْم، فمهما أتاهم بآية فلن يستجيبوا له ويتّبعوا دِينه ويتوجّهوا لِقبلته، وسوف يبقى هو مخالفاً لهم أبداً؛ بل إنّ خلافهم فيما بينهم باقٍ أبداً، فلن يتّبع اليهود قِبلة النصارى ولا النصارى قِبلة اليهود، ولكلٍّ منهما دِينه.

وحذّر -جلّ وعلا- عباده المؤمنين بوعيد شديد وجّهه لقُدوتهم وأسوَتهم بأنّه لو اتّبع أهواء ومزاعم أهلِ الكتابيْن لأيّ غرض، كان بعد ما أنزل الله عليه من حقّ وعلْم، وبيّن له من الهدى، فسوف يكون في عداد هؤلاء الظالمين الذين أعدّ الله لهم عذابَه المهين.

مسائل الآيات.

الأولى:

استدلّ المالكيّة بهذه الآية على أنّ المصلّي ينظر أمامه، لا إلى موضع سجوده، كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة. قال المالكية: لِقوله{ :فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .}فلو نظر إلى موضع سجوده، لاحتاج أن يتكلّف ذلك بنوع من الانحناء، وهو ينافي كمال القيام . وقال بعضهم: ينظر المصلّي في قيامه إلى صدْره. وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موْضع سجوده، كما قال جمهور الجماعة، لأنّه أبلغ في الخضوع وآكد في الخشوع، وقد ورَد به الحديث، وأمّا في حال ركوعه، فإلى موضع قدميْه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه، وفي حال قعوده إلى حِجره.

الثانية:

إن قلت: كيف قال{ :وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ}، ولهم قِبلتان: لليهود قِبلة، وللنصارى قبلة؟

قلت: كلتَا القِبلتيْن باطلة مُخالِفة لقِبلة الحقّ، فكانتا بحُكم الاتّحاد في البطلان قِبلة واحدة.

وقيل: مشاكلة لما قبْلها.

وقد يقال: إن الإفراد بناء على أنّ قِبلة الطائفتيْن الحقة في الأصل بيت المقدس، وعيسى -عليه السلام- لم يُصلِّ جهة الشرق حتى رُفع، وإنما كانت قِبلته قِبلة بني إسرائيل اليوم، ثم بعد رفْعه شرَع أشياخ النصارى لهم الاستقبال إلى الشّرق، واعتذروا بأن المسيح -عليه السلام- فوّض إليهم التحليل والتحريم، وشرع الأحكام، وأنّ ما حلّلوه وحرّموه فقد حلّله هو وحرّمَه في السماء. وذكروا لهم أنّ في الشرق أسراراً ليستْ في غيره، ولهذا كان مولد المسيح شرقاً، كما يشير إليه قوله تعالى{ :إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً .}واستقبل المسيح حين صُلب بزعمهم الشّرق. وقيل: إنّ بعض رهبانهم قال لهم :إني لقِيت عيسى -عليه الصلاة والسلام- فقال لي: إنّ الشّمس كوكب أحبّه يبلّغ سلامي في كل يوم؛ فمُرْ قومي ليتوجّهوا

إليها في صلاتهم. فصدّقوا وفعلوا. ويؤيّد ذلك: أنه ليس في الإنجيل استقبال الشرق. وذهب ابن القيّم إلى أنّ قِبلة الطائفتيْن الآن لم تكن قِبلة بوحْي وتوقيف من الله تعالى، بل بمشورة واجتهاد منهم. أمّا النصارى فاجتهدوا وجعلوا الشرق قِبلة، وكان عيسى قبل الرفع يصلّي إلى الصخرة. وأمّا اليهود فكانوا يصلّون إلى التابوت الذي معهم إذا خرجوا، وإذا قدموا بيت المقدس نصَبوه إلى الصخرة وصلّوْا إليه .فلمّا رُفع اجتهدوا فأدّى اجتهادهم إلى الصلاة إلى موضعه وهو الصخرة؛ وليس في التوراة الأمْر بذلك. والسامرة منهم يُصلُّون إلى طورهم بالشام قرب بلدة نابلس.

الثالثة:

قوله{ :وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ }...الآية :فيها وجوه من التأكيد والمبالغة ذكَرها الآلوسي، وهي:

القسَم، واللام الموطِّئة له، و"إن "الفرضية، و"إن" التحقيقية، واللام في حيِّزها، وتعريف الظالمين، والجملة الاسمية، و"إذاً" الجزائية، وإيثار (من الظالمين) على ظالم أو الظالم لإفادته أنه مقرّر محقق وأنه معدود في زمرتهم عريق فيهم، وإيقاع على ما سمّاه" هوى" أي: لا يعضده برهان ولا نزل في شأنه بيان، والإجمال والتفصيل، وجعْل الجائي نفس (العلم). وعُدّ أيضا من ذلك :عدّه واحداً (من الظالمين) مغموراً فيهم غير متعيّن كتعينهم فيما بين المسلمين، فإنّ فيه مبالغة عظيمة للإشعار بالانتقال من مرتبة العدل إلى الظلم، ومن مرتبة التعيّن والسيادة المطلقة إلى السفالة والمجهولية.

الأسئلة :

١. قرأ جماعة من السبعة (وما الله بغافل عما يعملون) بالياء والباقون بالتاء (صح) .

٢. على قراءة يعملون بالياء يشمل الكلام المؤمنين وغيرهم ، وعلى قراءة التاء يكون الكلام موجهاً لأهل الكتاب على الوعيد لهم (صح) .

٣. (قد نرى) أي : ربما نرى ، وقد إذا دخلت على الفعل المضارع تدل على التقليل ، وهذا من أدب النبي ﷺ مع ربه (خطأ) .

٤. (قد نرى) أي : ربما نرى ، ومعناه تكثير الرؤية ، وقد دل على الكثرة لفظ التقلب (صح) .

٥. (شطر المسجد) أي : نصفه ووسطه ، كما يقال : شاطرته شطاراً أي : ناصفته (خطأ)

٦. ليس المراد بشطر المسجد هنا النصف أو الوسط وإنما يراد الجهة (صح) .

٧. الشطر في الأصل يطلق على ما انفصل من الشيء ، ثم استعمل لجانبه (صح) .

٨. (الحرام) أي : المحرم ، وهو الممنوع منه ، والمقصود : المحرم فيه القتال والصيد ونحوه ، والممنوع أن يتغلبه الظلمة وغيرهم (صح) .

٩. أول ما نسخ من الأحكام كان التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس (صح) .

١٠. كان النبي ﷺ يقلب وجهه في السماء ينتظر أن يأتيه جبريل بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام فأنزل الله هذه الآيات (صح) .

١١. أمر الله باستقبال المسجد الحرام بعد عامين من الهجرة إلى المدينة (خطأ)

١٢. في سنن ابن ماجه عن البراء أن تحويل القبلة كان بعد الهجرة إلى المدينة بشهرين (صح)

١٣. ورد أن النبي ﷺ قال في الذين تحولوا إلى الكعبة وهم في الصلاة لما بلغهم ذلك : (أولئك رجال يؤمنون بالغيب) (صح) .

١٤. عن ابن عمر أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة كانت صلاة الظهر وهي الصلاة الوسطى (صح) .

١٥. (فلنولينك قبلة ترضاها) لأنه ﷺ كان يحب أن يتجه إلى الكعبة قبل إبراهيم (صح) .

١٦. كان النبي ﷺ يحب التوجه إلى الكعبة لما قالت اليهود : يخالف محمد ديننا ويتبع قبلتنا فكان يدعو الله ويرجو أن تتحول القبلة (صح) .

١٧. ورد عند البيهقي أن النبي ﷺ قال : (البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي) (صح)

١٨. شطر المسجد الحرام أي : قبله وجهته ونحوه (صح) .

١٩. المقصود بالذين أوتوا الكتاب هنا اليهود والنصارى (خطأ) .

٢٠. (ليعلمون أنه الحق من ربهم) أي : محمداً ﷺ يعلمون أنه رسول من عند ربهم ولكنهم يكتمون ذلك (خطأ) .

٢١. تخصيص الوجه بالذكر في قوله تعالى (فول وجهك) لأنه مدار التوجه ، أو لأنه ذكر قبل ذلك ، أو لأنه أشرف أعضاء البدن (صح) .

٢٢. في ذكر المسجد الحرام دون ذكر الكعبة دليل على أن المراد بالتوجه الجهة دون عين الكعبة (صح) .

٢٣. عمم الله الجهات بقوله (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) حتى لا يدخل التوهم بأن استقبال الكعبة هو لأهل المدينة فقط (صح) .

٢٤. الأمر باستقبال القبلة هو للوجوب قطعاً وعليه فلا تصح الصلاة مطلقاً إلا باستقبال الكعبة وهذا مما لا خلاف فيه بين المسلمين (خطأ) .

٢٥. في قوله تعالى (وما أنت بتابع قبلتهم) إشارة إلى مدى اتباع النبي ﷺ لأمر ربه وأنه لا يفعل ذلك لهوى ولا لغيره (صح) .

٢٦. قوله تعالى : (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية) أي : بالوحي كله من أوله إلى آخره (خطأ) .

٢٧. في الآية دليل على أن كفر اليهود وتكذيبهم للنبي ﷺ كان بسبب الشبهات التي في قلوبهم جهته (خطأ) .

٢٨. قوله تعالى (إنك إذا لمن الظالمين) تهديد عظيم لمن يتبع غير الحق بعد معرفته وأن هذا من أعظم الظلم (صح) .

٢٩. استدل الجمهور بهذه الآية على أن المستحب للمصلي أن ينظر أمامة جهة القبلة في صلاته وليس كما قال بعضهم ينظر إلى الأرض (خطأ) .

٣٠. قوله تعالى (وما أنت بتابع قبلتهم) دليل على أن قبلة اليهود والنصارى واحدة في الأصل وإنما وقع التغيير بعد ذلك من قبل أشياخهم (صح) .

المحاضرة التاسعة والخمسون

***

تفسير الآيات من (١٤٦) إلى (١٥٢) من سورة (البقرة) .

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ.}

القراءات:

قرأ ابن عامر{ :هُوَ مُوَلَّاهَا- }على صيغة اسم المفعول- أي: هو قد وُلِّيَ تلك الجهة؛ فالضمير المرفوع حينئذ عائد إلى: "كُلّ"، ولا يجوز رجوعه إلى الله تعالى، لفساد المعنى. وقرأ غيره{ :هُوَ مُوَلِّيهَا}، أي: وجْهه، فحذف أحد المفعوليْن. وقيل :هو لله تعالى، أي: الله مولِّيها إيّاه .

و قرأ أبو عمرو{ :وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}، بالغيبة على الوعيد للكافرين، وقرأ الباقون : {تَعْمَلُونَ}، بالخطاب، أي :فيجازيكم بذلك أحسن الجزاء، فهو وعْد للمؤمنين .

المناسبة :

لا زال الحديث عن تحويل القبلة، وما في ذلك من نِعمة عظيمة، ومحاجّة لأهل الكتاب والمشركين.

لغويّات.

{ الْمُمْتَرِينَ :}جمع: مُمْتَرٍ، والمِرْية هي: التّردّد في الأمر، وأصله من: مَرَيْت الناقة إذا مسحْتُ ضرْعها للحلب.

{وِجْهَةٌ :}جاء على الأصل، والقياس: جِهة، مثل: عِدة، وزِنة، وهي مصدر بمعنى المتوجَّه إليه، كالخلْق بمعنى: المخلوق، والفعل: توجَّه أو اتّجه، والمصدر: التّوجّه أو الاتّجاه، ولم يستعمل منه: وجْه كوعْد. وقيل: إنها اسم للمكان المتوجّه إليه، فثبوت الواو ليس بشاذّ.

{ الْخَيْرَاتِ :}جمْع: خَيْرة -بالتخفيف-، وهي: الفاضلة من كلّ شيء، والتأنيث باعتبار الخصْلة .

{ حُجَّةٌ :}هي: الدلالة المبيّنة للمحجّة، أي: المقصد المستقيم، والذي يقتضي صحّة أحد النقيضيْن. وهي: عبارة عن البرهان المثبت للمقصود.

الآثار.

عن قتادة، في قوله{ :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، قال: اليهود والنصارى،{ يَعْرِفُونَهُ }أي : يعرفون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في كتابهم،{ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ.}

عن قتادة، في قوله{ :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، قال: يعرفون أنّ البيت الحرام هو القِبلة.

عن الربيع، في قوله{ :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، قال: يعرفون أنّ البيت الحرام هو القِبلة التي أُمِروا بها{ .وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ }يعني: القبلة.

عن مجاهد، في قوله{ :وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ}، قال: أهل الكتاب،{ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، قال: يكتمون محمداً- صلى الله عليه وسلم- وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

عن ابن جريج، في قوله{ :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ}، قال: "زعموا أنّ بعض أهل المدينة من أهل الكتاب ممّن أسلم قال: والله لنحن أعرف به منّا بأبنائنا، من الصفة والنعت الذي نجده في كتابنا، وأما أبناؤنا فلا ندري ما أحدث النساء ."

وأخرج الثعلبي، من طريق السدي الصغير، عن الكلبي، عن ابن عباس، قال: "لما قدم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- المدينة، قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام: قد أنزل الله على نبيّه{ :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، فكيف يا عبد الله هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر، لقد عرفتُه حين رأيتُه كما أعرف ابني إذا رأيته مع الصبيان. وأنا أشدّ معرفة بمحمد منّي بابني. فقال عمر: كيف ذلك؟ قال: إنه رسول الله حق من الله، وقد نعتَه الله في كتابنا. ولا أدري ما تصنع النساء .فقال له عمر: وفّقك الله يا ابن سلام."

قلت: هذا الحديث مسنَد بسلسلة الكذب ولا يصحّ.

وأخرج الطبراني عن سلمان الفارسي، قال: "خرجت أبتغي الدِّين فوقعت في الرهبان بقايا أهل الكتاب، قال الله تعالى{ :يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، فكانوا يقولون: هذا زمان نبيّ قد أظل، يخرج من أرض العرب، له علامات، من ذلك: شامة مدوّرة بين كتفيْه خاتم النبوة "...الحديث.

وعن أبي العالية، قال: قال الله لنبيه –صلى الله عليه وسلم{ :-الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}، يقول: لا تكوننّ في شكّ يا محمد، أن الكعبة هي قبْلتك، وكانت قبلة لأنبياء قبلك ".

عن ابن عباس، في قوله{ :وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ }يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكلٍّ قِبلة يرضوْنها، ووجه الله حيث توجّه المؤمنون.

وقال أبو العالية: "لليهوديّ وجهة هو مولّيها، وللنصرانيّ وجْهة هو مولّيها، وهداكم أنتم أيّتها الأمّة إلى القِبلة التي هي القِبلة."

وروي عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، نحو هذا.

وقال مجاهد، والحسن: "أُمر كلّ قوم أن يصلّوا إلى الكعبة."

وعن ابن عباس: أنه قرأ: "وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلّيهَا" –مضاف– قال: مواجِهُها. قال: صلُّوا نحو بيت المقدس مرة، ونحو الكعبة قبلة.

وعن قتادة{ :وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}، قال: "هي صلاتهم إلى بيت المقدس، وصلاتهم إلى الكعبة."

وعن منصور قال: نحن نقرؤها: "ولكلٍّ جعلْنا قبلةً يرضوْنَها."

وعن مجاهد، في قوله{ :وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}، قال: "لكل صاحب ملّة قِبلة وهو مستقبلها."

وعن قتادة، في قوله{ :فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}، يقول: "لا تغلبُنّ على قِبلتكم."!

وعن أبي زيد، في قوله{ :فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}، قال: فسارعوا في الخيرات{ .أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً}، قال: يوم القيامة.

وأخرج البخاري، والنسائي، والبيهقي في "سننه"، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم)) :–مَن صلّى صلاتَنا، واستقبل قِبلَتنا، وأكَل ذبيحَتنا، فذلك المسلم، له ذمّة الله وذمّة رسوله؛ فلا تخفروا الله في ذمّته.((!

أخرج ابن جرير، من طريق السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود وناس من الصحابة، قالوا: لما صُرف النبي –صلى الله عليه وسلم– نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس، قال المشركون من أهل مكة: تحيّر محمد دينه، فتوجه بقِبلته إليكم، وعلِم أنكم أهدى منه سبيلاً، ويوشك أن يدخل في دينِكم. فأنزل الله{ :لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي .}

وعن قتادة في قوله{ :لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}، قال: يعني بذلك أهل الكتاب، قالوا حين صرف نبيّ الله إلى الكعبة البيت الحرام: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودِين قومِه.

وعن مجاهد، في قوله{ :لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}، قال: حجّتهم: قولهم: قد راجعتَ قِبلتنا.

وعن قتادة ومجاهد، في قوله{ :إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، قال: هم مشركو العرب، قالوا حين صُرفت القبلة إلى الكعبة: قد رجع إلى قِبلتكم، فيوشك أن يرجع إلى دينكم.

وعن قتادة في قوله{ :إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، قال: الذين ظلموا منهم :مشركو قريش، إنهم سيحتجّون بذلك عليكم. واحتجوا على نبيّ الله بانصرافه إلى البيت الحرام، وقالوا: سيرجع محمد على ديننا كما رجع إلى قبلتنا؛ فأنزل الله في ذلك كلّه{ :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.}

وعن أبي العالية{ :لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ }يعني به: أهل الكتاب حين قالوا: صُرِف محمد إلى الكعبة. وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودِين قومه. وكان حجتهم على النبي –صلى الله عليه وسلم– انصرافه إلى البيت الحرام أنْ قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قِبلتنا. وقال في قوله{ :إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ :}يعني: مشركي قريش.

وروي عن عطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، نحو هذا.

عن أبي العالية، في قوله{ :كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ}، يقول: كما فعلت، فاذكروني.

وعن مجاهد، في قوله{ :كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ}، يقول: كما فعلت، فاذكروني .

عن سعيد بن جبير، في قوله{ :فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}، قال: اذكروني بطاعتي أذكُركُم بمغفرتي، وفي رواية: برحمتي.

وأخرج أبو الشيخ، والديلمي من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم{)) :–فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}،يقول: اذكروني يا معاشر العباد بطاعتي، أذكُرْكُم بمغفرتي.((

وأخرج ابن لال، والديلمي، وابن عساكر، عن أبي هند الداري، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :قال الله: اذكروني بطاعتي أذكرْكم بمغفرتي. فمن ذكرني وهو مطيع فحقّ عليّ أن أذكُرَه بمغفرتي، ومَن ذكَرني وهو لي عاص فحقّ عليّ أن أذكره بمقْت.((

وعن ابن عباس، في قوله{ :فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}، قال: "ذكر الله إيّاكم أكبر مِن ذكْرِكم إيّاه."

وقال الحسن البصري، وأبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس: "إن الله يَذكر مَن ذكَره، ويزيد مَن شكَره، ويعذِّب مَن كَفَره."

وقال الحسن البصري، في قوله{ :فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}، قال: "اذكروني فيما افترضْتُ عليكم، أذكُرْكم فيما أوجبْتُ لكم على نفسي."

وأخرج الطبراني في "الأوسط"، وأبو نعيم، عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم :–))يقول الله: يا ابن آدم، إنّك إذا ما ذكَرْتَني شَكَرْتَني، وإذا ماَ نسيتَني كفَرْتَني.((

وعن زيد: أن موسى –عليه السلام –قال: "يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: تذكرني ولا تنساني .فإذا ذكرْتَني فقد شكرْتَني، وإذا نسيتَني فقد كفَرْتَني."

وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في "شُعب الإيمان"، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–مَن أُعطِي أربعاً أُعطِيَ أربعاً، وتفسير ذلك في كتاب الله :مَن أُعطِيَ الذِّكْر ذكره الله لأنّ الله يقول{ :فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .}ومَن أُعطِيَ الدّعاء أُعطِيَ الإجابة لأن الله يقول{ :ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .}ومَن أُعطِيَ الشّكر أُعطِيَ الزّيادة لأن الله يقول{ :لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .}ومَن أُعطِيَ الاستغفار أُعْطِيَ المغفرة لأن الله يقول : {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً.((}

وعن السدِّي، في قوله تعالى{ :فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}، قال: "ليس مِن عبْد يذكر الله إلاّ ذكَره الله: لا يذكُره مؤمن إلاّ ذكَره برحمة، ولا يذْكره كافر إلاّ ذكَره بعذاب."

وعن ابن عباس قال: أوحى الله إلى داود: "قل للظَّلَمة لا يذكروني، فإنّ حقاً عليّ أذكُر مَن ذكَرني، وإنّ ذِكْري إيّاهم أنْ ألعَنَهم."

وعن ابن عمر، أنه قيل له: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والزاني يذْكُر الله، وقد قال الله : {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}؟ قال: إذا ذكَر الله هذا، ذكَره الله بلعْنته حتى يسكت .

قلت: هذان الأثران لا يثبتان، ولو ثبتا فلا حجّة فيهما؛ بل ذكْر الله تعالى يكفِّر الذنوب والخطايا، وهو طريق للهداية والإقلاع عن الذنب، وأمّا الكافر فنعَم.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في "شُعب الإيمان"، عن خالد بن أبي عمران، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–مَن أطاع الله فقد ذكَر الله، وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن. ومَن عصى الله فقد نسِيَ الله، وإن كثرتْ صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن .((

وأخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والبيهقي في "شُعب الإيمان"، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–يقول الله: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكَرني .فإنْ ذكَرني في نفْسه ذكَرتُه في نفسي، وإن ذكَرني في ملإٍ ذكَرتُه في ملإٍ خيْرٍ منهم. وإن تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً. وإنْ تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبتُ إليه باعاً. وإنْ أتاني يمشي أتيتُه هرولة .((

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسّنه، وابن ماجة، وابن حبّان، والحاكم وصحّحه، والبيهقي، عن عبد الله بن بسر: أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثُرتْ عليّ، فأخبرني بشيء أستَنّ به. قال)) :لا يزال لسانُك رطباً مِن ذِكْر الله.((

وأخرج أحمد، والترمذي، وابن ماجة، وابن أبي الدنيا، والحاكم وصحّحه، والبيهقي، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–ألا أُنبئُكم بخَيْر أعمالِكم، وأزكاها عند مليكِكم، وأرفعِها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلقَوْا أعداءكم فتضربوا أعناقهم؟ قالوا: بلى! قال: ذِكْر الله.((

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجة، والبيهقي، عن أبي هريرة وأبي سعيد :أنهما شهدا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال)) :لا يَقعد قوم يذكرون الله إلاّ حفّتْهم الملائكة، وغشيتْهم الرحمة، ونزلتْ عليهم السَّكينة، وذكَرهم الله فيمن عنده .((

وأخرج البخاري، ومسلم، والبيهقي في" الأسماء والصفات"، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إنّ لله ملائكةً يطوفون في الطُّرق يلتمسون أهل الذِّكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادَوْا: "هلمّوا إلى حاجتكم!". فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء. فإذا تفرّقوا عرجوا إلى السماء، فيسألهم ربهم –وهو يعلم–: مِن أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك يسبِّحونك ويكبّرونك ويحْمَدونك. فيقول :هل رأوْني؟ فيقولون: لا. فيقول: كيف لو رأوْني؟ فيقولون: لو رأوْك كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدّ لك تمجيداً وأشدَّ لك تسبيحاً. فيقول: فما يسألون؟ فيقولون: يسألونك الجنّة. فيقول :وهل رأوْها؟ فيقولون: لا. فيقول: فكيف لوْ رأوْها؟ فيقولون: لو أنّهم رأوْها كانوا أشدّ عليها حِرصاً وأشدَّ لها طلباً وأعظمَ فيها رغبة. قال: فمِمَّ يتعوَّذون؟ قالوا: يتعوّذون من النار .فيقول: وهل رأوْها؟ فيقولون: لا. فيقول: فكيف لو رأوْها؟ فيقولون: لو أنّهم رأوْها كانوا أشدّ منها فراراً وأشدَّ لها مخافةً. فيقول: أُشهِدكم أنّي قد غفرتُ لهم. فيقول ملَك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: همُ القوم لا يَشقَى بهم جليسُهم .((

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، عن معاوية: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خرج على حلقة من أصحابه، فقال)) :ما أجْلسكم؟ قالوا: جلسْنا نذْكر الله ونحمَده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا. قال :آلله، ما أجلسَكم إلاّ ذلك؟

قالوا: آلله، ما أَجلسَنا إلاّ ذلك .قال: أمّا أني لم استحلفْكم تُهمةً لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أنّ الله يُباهي بكمُ الملائكة.((

وعن أبي جعفر، قال: "ما من شيء أحبّ إلى الله مِن الذِّكر والشكر."

وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن أبي الدنيا، والبيهقي، عن معاذ، قال: قال لي النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–إنِّي أحبّك. لا تَدعَنّ أن تقول في دُبر كلِّ صلاة: "اللّهم أعِنِّي على ذِكْرِك وشُكْرِك وحسْن عبادتِك .((

وعن أبي الجلد، قال: قرأت في مُساءلة موسى –عليه السلام–: أنه قال: "يا ربّ، كيف لي أن أشكرك، وأصغرُ نعمة وضعْتَها عندي مِن نِعمِك لا يجازي بها عملي كلُّه؟ فأتاه الوحي: أن يا موسى، الآن شكرْتَني."

وعن أبي عمر الشيباني، قال: قال موسى– عليه السلام– يوم الطّور: "يا ربّ، إن أنا صلّيْتُ فمِن قِبَلِك .وإنْ أنا تصدَّقْتُ فمِن قِبَلِك. وإنْ أنا بلّغْتُ رسالاتك فمِن قِبَلك .فكيف أشكُرك؟ قال: يا موسى، الآن شكرْتَني."

وعن سليمان التيمي، قال: "إن الله– عز وجل– أنْعم على العباد على قدْره، وكلّفَهم الشّكر على قدْرهم."

وعن عبد الملك بن مروان، قال: ما قال عبد كلمةً أحبّ إليه وأبلغ من الشّكر عنده مِن أن يقول" :الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإسلام."

وأخرج ابن أبي الدنيا، والخرائطي، كلاهما في كتاب الشكر، والحاكم، والبيهقي في "شُعب الإيمان"، عن عائشة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :ما أنعم اللهُ على عبده مِن نعمة، فعلِم أنها مِن عند الله، إلاّ كتَب الله له شُكرَها قبْل أن يَحمده. وما علِم الله مِن عبْدٍ ندامة على ذنب إلاّ غفَر له ذلك قبْل أن يستغفره. وإنّ الرجُلَ ليشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله، فما يبلغ ركبتيْه حتى يغفر له.((

وعن علي –رضي الله عنه–، قال: "مَن قال حين يصبح: "الحمد لله على حُسن المساء، والحمد لله على حُسن المبيت، والحمد لله على حُسن الصباح"، فقد أدّى شُكر ليلتِه ويومِه."

وعن أبي حازم: أن رجلاً قال له: ما شُكْر العينيْن؟ قال: إنْ رأيتَ بهما خيراً أعلنْتَه، وإنْ رأيتَ بهما شراً ستَرْتَه. قال: فما شُكر الأذنيْن؟ قال: إن سمعتَ خيراً وعَيْتَه، وإن سمعتَ بهما

شراً أخفيْتَه. قال: فما شُكْر اليديْن؟ قال: لا تأخُذْ بهما ما ليس لهما، ولا تمْنعْ حقاً لله- عز وجل –هو فيهما. قال: فما شُكْر البطن؟ قال: أن يكون أسفلَه طعاماً وأعلاه علْماً. قال: فما شُكْر الفرْج؟ قال: كما قال الله –عز وجل{ :–إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } إلى قوله{ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ .}قال: فما شُكْر الرِّجْليْن؟ قال: إن رأيتَ ما غبطْتَه بهما عملْته، وإن رأيت ما مقتّه كفَفْتَهما عن عمله، وأنت شاكر لله –عز وجل–. فأمّا من شَكَر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثَلُه كمثل رجُل له كساء، فأخذ بطرَفه ولم يلْبسْه، فلم ينفعه ذلك من الحرّ والبرد والثلج والمطر.

وقيل لسفيان: ما الشكر؟ قال: "أن تجتنب ما نهى الله عنه."

وعن عمر بن عبد العزيز، قال: "قيِّدوا نِعَم الله بالشّكْر لله –عز وجل–. شُكْر الله ترْك المعصية."

وعن محمد بن لوط الأنصاري، قال: كان يقال: الشّكْر ترك المعصية.

وعن مخلد بن حسين، قال: كان يقال :الشّكْر ترك المعاصي.

وعن الجنيّد قال: قال السري يوماً: ما الشكر؟ فقلت له: الشّكر عندي: أن لا يُستعان على المعاصي بشيء مِن نِعمِه .

وأخرج البيهقي، عن أنس، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–مَن نظَر في الدِّين إلى مَن فوْقه، وفي الدنيا إلى مَن تحْتَه، كتبَه الله صابراً شاكراً. ومَن نظَر في الدِّين إلى مَن تحْتَه، ونظر في الدنيا إلى مَن فوْقَه، لم يكْتبْه الله صابراً ولا شاكراً.((

وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول)) :خصْلتان مَن كانتا فيه كَتَبه الله صابراً شاكراً، ومَن لم يكونا فيه لمْ يكْتُبْه الله صابراً ولا شاكراً: مَن نَظَر في دِينه إلى مَن فوْقَه فاقتدى به، ومَن نظَر في دنياه إلى مَن هو دونه كتبه الله صابراً شاكِراً. ومَن نظَرَ في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته، لم يكتُبْه الله شاكراً ولا صابراً.((

وأخرج النسائي، والبيهقي، عن سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–عجبْتُ للمؤمن! إن أُعطِيَ قال" :الحمد لله" فشكر، وإن ابتُلِي قال: "الحمد لله" فصبر؛ فالمؤمن يُؤجَر على كلّ حال، حتى اللّقمة يرفعُها إلى فيه .((

وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن أبي الدنيا في الشكر، والفريابي في الذِّكر، والمعمري في "عمل اليوم والليلة"، والطبراني في "الدعاء"، وابن حبان، والبيهقي، والمستغفري، كلاهما في الدعوات، عن عبد الله بن غنام، قال :قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–مَن قال حين يُصبح: "اللهم ما أصبح بي مِن نِعمة أو بأحدٍ مِن خلْقك، فمنْك وحْدك لا شريك لك، فلَكَ الحمد ولك الشكر"، فقد أدّى شُكْر يومه. ومَن قال مثْلَ ذلك حين يُمسي، فقد أدّى شكر ليلتِه.((

وأخرج ابن أبي الدنيا، عن السري بن عبد الله: أنه كان في الطائف فأصابهم مطر، فخطب الناس فقال: يا أيها الناس، احمدوا الله على ما وضَع لكم من رزقه، فإنه بلغني عن النبي – صلى الله عليه وسلم– أنه قال)) :إذا أنعم الله –عز وجل –على عبده بنعمة فحمده عندها، فقد أدّى شُكْرها.((

وأخرج ابن أبي الدنيا، والخرائطي، كلاهما في كتاب الشكر، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم)) :–مَن رأى صاحبَ بلاء فقال: "الحمد لله الذي عافاني ممّا ابتلاك به، وفضّلني عليك وعلى جميع خلْقه تفضيلاً"، فقد أدّى شُكْر النِّعمة .((

وأخرج أبو داود، والترمذي وحسّنه، وابن ماجة، وابن أبي الدنيا، والحاكم وصحّحه، عن أبي بكرة)) :أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– كان إذا جاءه أمْر يسرّه خرّ ساجداً لله –عز وجل– شُكرا لله.((

وأخرج الخرائطي، عن جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول :))أفضلُ الذِّكْر: "لا إله إلاّ الله" وأفضلُ الشُّكر: "الحمد لله .(("

وأخرج الخرائطي، والبيهقي في الدعوات، عن منصور بن صفية، قال: مرّ النبي –صلى الله عليه وسلم– برجُل وهو يقول: "الحمد لله الذي هداني للإسلام، وجعلني من أمّة محمد"، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–لقد شكرتَ عظيما.((

وأخرج أحمد، عن أبي رجاء العطاردى، قال: خرج علينا عمران بن حصين، وعليه مطرف من خزّ لم نره عليه قبْل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :مَن أنعم الله عليه نعمة، فإنّ الله يحبّ أن يرى أثَر نِعمته على خلْقه .((

وقد أطنب السيوطي -رحمه الله- وأسهب في سوْق الأحاديث والآثار في فضْل الذِّكر والشّكر، ممّا يخرجنا عن حدّ التفسير، وفيما ذكرناه كفاية.

أقوال المفسِّرين.

يُخبر تعالى أنّ علماء أهل الكتاب يعرفون صحّة ما جاءهم به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، كما يعرف أحدهم ولدَه. والعرب كانت تضرب المثَل في صحّة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث: أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لرجُل معه صغير)) :ابنُك هذا؟((، قال: نعم، يا رسول الله. أشهد به. قال)) :أمَا إنه لا يَجْني عليك ولا تَجْني عليه.((

قال القرطبي: ويُروى عن عمر: أنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدَك؟ قال: نعم، وأكثر. نزل الأمينُ من السماء على الأمين في الأرض بِنعْته فعرفتُه، وإني لا أدري ما كان من أمه.

وقد يكون المراد{ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ }مِن بين أبناء الناس كلّهم، لا يشكّ أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلّهم .ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التّحقّق والإتقان العلّمي{ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ }أي: لَيكتمون الناس ما في كُتبهم من صفة النبي -صلى الله عليه وسلم{ -وَهُمْ يَعْلَمُونَ .}ثم ثبّت تعالى نبيّه -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين وأخبرهم بأنّ ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو الحقّ الذي لا مِرية فيه ولا شك، فقال : {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.}

وجاز الإضمار في قوله{ :يَعْرِفُونَهُ}، وإن لم يسبق له ذكْر، لأنّ الكلام يدلّ عليه، ولا يلتبس على السامع .ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم، وإشعار بأنه لِشُهرته وكوْنه علَماً معلوماً بغير إعلام.

وقيل: الضمير للعلْم، أو القرآن، أو تحويل القبلة.

وقوله{ :كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ }يشهد للأوّل، وينصره الحديث عن عبد الله بن سلام.

{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ :}الإشارة إلى الحقّ الذي عليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، أو إلى الحق الذي في قوله{ :لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ }أي: هذا الذي يكتمونه هو الحقّ مِن ربك، وأن تكون للجنس على معنى: الحق من الله لا مِن غيره.

يعني: أنّ الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل .

وقوله{ :فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}، ليس المراد: نَهْي النبي –صلى الله تعالى عليه وسلم– عن ذلك، لأنّ النّهْي عن شيء يقتضي وقوعَه أو ترقّبه من المنهيّ عنه، وذلك غير متوقّع من ساحة حضرة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فلا فائدة في نَهْيه، ولأنّ المكلّف به يجب أن يكون اختيارياً، وليس الشّكّ والتّردّد ممّا يحصل بقصد واختيار؛ بل المراد: إمّا تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه أحد كائناً مَن كان، أو الأمر للأمّة بتحصيل المعارف المزيلة لِما نُهِيَ عنه، فيُجعل النهيُ مجازاً عن ذلك الأمر. وفي جعْل امتراء الأمّة امتراءَه –صلى الله عليه وسلم– مبالغة لا تخفى، ولك أن تقول: إن الشك ونحوَه وإن لم يكن مقدورَ التحصيل لكنه مقدور لإزالة البقاء؛ ولعل النهي عنه بهذا الاعتبار، ولهذا قال الله تعالى{ :فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } دون "فلا تمْتَر."

وقوله تعالى{ :وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا }هذه الآية شبيهة بقوله تعالى{ :لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً}، وقال ها هنا{ :أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }أي: هو قادر على جمْعكم من الأرض وإن تفرّقتْ أجسادكم وأبدانكم.

والمعنى: في أيّ موضع تكونوا من المواضع الموافِقة لطبعكم كالأرض، أو المخالفة كالسماء، أو المجتمعة الأجزاء كالصخرة، أو المتفرّقة التي يختلط بها ما فيها كالرمل، يحشركم الله تعالى إليه، لجزاء أعمالكم إن خيراً فخيْر وإن شراً فشر. والجملة فيها حثّ على الاستباق بالترغيب والترهيب، وهي على حدّ قوله تعالى{ :يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ}، أو في أيّ موضع تكونوا من أعماق الأرض وقمم الجبال يقبض الله تعالى أرواحكم إليه، فهي على حدّ قوله تعالى{ :أَيْنَمَا تَكُونُوا

يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}؛ ففيها حثّ على الاستباق باغتنام الفرصة، فإنّ الموت لا يختص بمكان دون مكان.

والمعنى: لكلّ أمّة قِبلة تتوجّه إليها منكم ومِن غيركم.

ومعنى آخر وهو أن يراد: ولكلّ منكم يا أمّة محمد وجهة أي: جهة يصلّى إليها، جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية.

وقوله{ :فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}، يجوز أن يكون المعنى: فاستبقوا الفاضلات من الجهات، وهي الجهات المسامتة للكعبة وإن اختلفت{ .أَيْنَمَا تَكُونُوا }مِن الجهات المختلفة{ يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً}، يجْمَعكم ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلّون حاضري المسجد الحرام.

و{أَيْنَمَا تَكُونُوا }من الجهات المتقابلات يَمنة ويَسرة وشرقاً وغرباً، يجعل الله تعالى صلاتكم مع اختلاف جهاتها في حُكم صلاة متّحدة الجهة، كأنها إلى عيْن الكعبة أو في المسجد الحرام، فـ{يَأْتِ بِكُم }مجاز عن جعْل الصلاة متّحدة الجهة.

وقوله تعالى{ :وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }...الآية: هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، وقال{ :وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ }دفْعاً لتوهّم مخالفة حال السّفر لحال الحضر، بأن يكون حال السّفر باقياً على ما كان كما في الصلاة، حيث زيد في الحضر ركعتان، أو يكون مخيّراً بيْن التوجّهيْن كما في الصوم.

{وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ :}تأكيد لما سبق.

وقوله{ :لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ }أي: أهل الكتاب، فإنهم يعلمون مِن صفة هذه الأمّة التّوجّه إلى الكعبة؛ فإذا فقدوا ذلك من صِفتها ربّما احتجّوا بها على المسلمين، ولئلاّ يحتجوا بموافقة المسلمين إيّاهم في التّوجّه إلى بيت المقدس؛ وهذا أظهر.

ووجّه بعضهم حجّة الظلمة وهي داحضة، أن قالوا: إنّ هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم فإن كان توجّهه إلى بيت المقدس على ملّة إبراهيم، فلِمَ يرجع عنه؟

والجواب: أن الله تعالى اختار له التّوجّه إلى بيت المقدس أوّلاً لِمَا له تعالى في ذلك من الحِكمة، فأطاع ربّه تعالى في ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي: الكعبة، فامتثل أمر الله في

ذلك أيضاً؛ فهو- صلوات الله وسلامه عليه- مطيع لله في جميع أحواله، لا يخرج عن أمْر الله طرفة عين وأمّته تبع له.

وتسمية هذه الشبهة الباطلة حجّة لكونها شبيهة بها، باعتبار أنهم يسوقونها مساقها . ولك أن تحمل الحجّة على الاحتجاج والمنازعة، كما في قوله تعالى{ :لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم .}

وقيل: الاستثناء منقطع، وهو من تأكيد الشيء بضدّه، وإثباته بنفْيه، والمعنى: إن يكن لهم حجّة فهي الظلم، والظلم لا يمكن أن يكون حجّة؛ فحجتهم غير ممكنة أصلاً. فهو إثبات بطريق البرهان، على حدّ قوله :

ولا عيْب فيهِمْ غَيْرَ أنّ نزيلَهمْ	)يُلام) بنِسيانِ الأحبّة والوَطنْ

وقوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهمْ	بهنّ فلولٌ مِن قِراع الكتائبِ

وقوله{ :فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي }أي: لا تخشوا شبه الظلَمة المتعنّتين، وأفرِدوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يُخشى منه.

وقوله{ :وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ }عطف على{ :لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}، أي لأتمّ نعمتي عليكم فيما شرعتُ لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة مِن جميع وجوهها . {وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }أي: إلى ما ضلّت عنه الأمم، هديناكم إليه، وخصّصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمّة أشرف الأمم وأفضلَها.

وفي الحديث)) :تمام النِّعمة دخول الجنّة((، وعن علي -رضي الله عنه-: "تمام النعمة الموت على الإسلام."

ثم يذكِّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثه الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبيّنات، ويُزكِّيهم أي :يُطهِّرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمّهم الكتاب -وهو القرآن- والحِكمة -وهي السُّنّة- ويعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون .فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يُسفّهون بالقول الفرى، فانتقلوا ببركة رسالته ويُمن سفارته إلى حال الأولياء وسجايا العلماء؛ فصاروا أعمق الناس علْماً، وأبرّهم قلوباً، وأقلّهم تكلّفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى{ :لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }...الآية. وذمّ مَن لم يعرف قدْر هذه النعمة، فقال تعالى{ :أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}، قال ابن عباس: يعني بنعمة الله: محمداً –صلى الله عليه وسلم–، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النِّعمة ومقابلتها بذكْره وشكْره، وقال{ :فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ.}

وقال بعض السلف، في قوله تعالى{ :اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}، قال: هو: أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكَر فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكفَر.

وقوله{ :وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ }أمَر الله تعالى بشُكره، ووعَد على شكْره بمزيد الخير، فقال{ :وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ.}

المعنى الإجمالي.

يذكر سبحانه أنّ أهل الكتاب يعرفون النبي –صلى الله عليه وسلم– بصِفته المذكورة في كُتبهم بأدقّ التفاصيل، حتّى إنّ معرفتهم به كمعرفتهم بأبنائهم اللّصيقِين بهم المقرّبين منهم. فهم يعرفون أنّ التّوجّه لهذه القِبلة حقّ، ولكن مَن أنكر ذلك، وجادل فيه جمْع منهم، آثر إخفاء الحقّ وعدمَ تبْيينِه للناس، مع أنه الحق الثابت من ربّ العزّة والجلال؛ فلا مجال للشّكّ والارتياب فيه البتّة. ولكلّ أصحاب ملّة من المِلَل قِبلة يُولّيهم إيّاها الله، وقد هدى الله هذه الأمّة لخير قِبلة، ولِذا دعا الله إلى المسارعة في الوصول إلى ما هو خير؛ ومن ذلك: التزام هذه القِبلة وعدم الحيْد عنها. وأخبر سبحانه أنه سوف يجمع الناس للحساب والفصْل بينهم فيما اختلفوا فيه، فهو على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

ثم أكّد سبحانه الأمْر بالتّوجّه للمسجد الحرام، مهما خرج المصلّي وتوجّه، وأكّد على أنه الحقّ الذي لا مِرية فيه، وسوف يَجزي الله عبادَه المطيعين له بما يستحقّون، فإنه لا يعزب عنه شيء مِن أفعالهم، وكذا سيجزي المخالِفين بما يستحقّون.

ثم أكّد سبحانه الأمر بالتّوجّه للبيت الحرام للمرّة الثالثة، وأمَر بذلك مهما كان المصلّي في أيّ مكان لا يتوجّه لسواه أبداً، حتى تنقطع حجّة الكافرين الباطلة من اليهود ومشركي مكة ومَن

وافقهم، إلاّ مَن بقِي على غيّه ولَجَجه؛ فهؤلاء أمَر سبحانه بعدم الالتفات لهم ولأباطيلهم، وأمَر بعدم هيْبتهم والخوف منهم، وبيّن سبحانه أنّه المستحقّ للهيْبة والخشية لا هُمْ.

كما بيّن سبحانه أنّ ما دلّهم عليه من القِبلة الحق، وغير ذلك من الخير، هو من إتمام نِعْمته عليهم، ومن تَمام هدايته لهم سبحانه، وطالَبَهم جلّ وعلا -أنه كما أكرمَهم بهذا الرسول الخاتم الذي جاءهم بالآيات البيّنات يتلوها عليهم غضّةً كما أُنزِلت عليه، ويهديهم لِمَا ينفعهم في دينهم ودنياهم، ويُزكّي نفوسَهم ويُطهّرها، ويعلّمهم مِن علوم الكتاب والسُّنّة، وما لم يكن لديْهم به علْم من شتّى العلوم-، أن يَذكروه سبحانه فلا ينْسَوْه، وذلك بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وبالحرص على طاعته وامتثال أوامره، فيذكرهم سبحانه بالمغفرة والثناء الحَسن عليهم في الملإِ الأعلى، وأن يشكروه فلا يكفروه بألسنتهم وأفعالهم، والاعتراف بنِعمِه، والحمد له في السّرّاء والضراء، وترك معصيته بما أنعم به عليهم.

مسائل الآيات.

الأولى :

قوله{ :كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ :}إن قلتَ: لِمَ اختصّ الأبناء؟

قلت: لأنّ الذكور أشهر وأعْرف، وهم لِصُحبة الآباء ألزم، وبقلوبهم ألْصق .

الثانية:

استدل الشافعية بقوله{ :فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ }على أنّ الصلاة في أوّل الوقت بعد تحقّقه أفضل، وهي مسألة مبحوثة في الفروع، والرّاجح ذلك، ماعدا في صلاة العشاء فأفضل وقتها آخرُه .

الثالثة :

ذكَر تعالى لتحويل القبلة ثلاثَ عِلَل:

تعظيم الرسول -صلى الله تعالى عليه وسلم- بابتغاء مرضاته، أوّلاً.

وجرْي العادة الإلهية على أن يُؤتى كلّ أهل ملّة وجهة، ثانياً.

ودفْع حجج المخالفين، ثالثاً.

فإنّ التولية إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأنّ المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، لا الصّخرة، وهذا النبي يصلّي إلى الصخرة، فلا يكون النبي الموعود، وبأنه -صلى الله تعالى عليه وسلم- يدّعي أنه صاحب شريعة ويتّبع قبلتَنا، وبينهما تدافع لأنّ عادته- سبحانه وتعالى- جارية بتخصيص كلّ صاحب شريعة بقِبلة، وتدفع احتجاج المشركين بأنه -عليه الصلاة والسلام- يدّعى ملّة إبراهيم ويخالف قِبلَته.

الرابعة:

استدل بعض أهل السُّنّة بقوله تعالى{ :فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي }على حُرمة التقيّة التي يقول بها الإمامية، و تحقيق ذلك في محلّه.

الخامسة:

تكرّر الأمر بالتّوجّه للقبلة ثلاث مرات، وهذا التكرير لتأكيد أمْر القبلة وتشديده لأنّ النّسخ من مظانّ الفتنة والشّبهة وتسويل الشيطان، والحاجة إلى التّفصلة بينه وبين البداء، فكرّر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدّوا، ولأنّه نيط بكلّ واحد ما لم يُنط بالآخر، فاختلفت فوائدها.

وقد اختلفوا في حِكمة هذا التّكرار، فقيل: تأكيد لأنه أوّل ناسخ وقع في الإسلام على ما نصّ عليه ابن عباس وغيره. وقيل: بل هو منزل على أحوال:

فالأمر الأول لمن هو مُشاهد الكعبة.

والثاني لِمَن هو في مكّة غائباً عنها.

والثالث لِمن هو في بقيّة البلدان.

هكذا وجّهه فخر الدِّين الرازي.

وقال القرطبي :

الأوّل لِمن هو بمكة.

والثاني لِمن هو في بقيّة الأمصار.

والثالث لِمن خرج في الأسفار.

ورجّح هذا الجواب القرطبي. وقيل: إنما ذكر ذلك لتعلّقه بما قبْلَه أو بعْده من السياق، فقال أوّلاً{ :قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا }إلى قوله{ :وَإِنَّ الَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}، فذكَر في هذا المقام إجابته إلى طِلبته وأمْره بالقبلة التي كان يودّ التّوجّه إليها ويرضاها.

وقال في الأمر الثاني{ :وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، فذكَر أنه الحق مِن الله، وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضى الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فبيّن أنه الحق أيضاً من الله يُحبّه ويرتضيه.

وذكَر في الأمر الثالث حِكمة قطْع حجّة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحجّجون باستقبال الرسول إلى قِبْلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كُتبهم أنه سيُصرف إلى قِبلة إبراهيم –عليه السلام–، إلى الكعبة. وكذلك مُشركو العرب انقطعت حجّتهم لما صُرف الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن قِبلة اليهود إلى قِبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظّمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها. وقيل: غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها الرازي وغيره –والله أعلم.–

السادسة:

إن قيل: إنه تعالى أنزل عند قُرب وفاته –صلى الله تعالى عليه وسلم{ :–الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي }فبيّن أنّ تمام النعمة إنّما حصل ذلك اليوم، فكيف قال قبل ذلك بسنين في هذه الآية{ :وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ}؟

وأجيب بأنّ تمام النِّعمة في كلّ وقت بما يليق به.

الأسئلة :

١. قرأ بعضهم (مولاها) بدل موليها ، وهي قراءة شاذة ومعناها فاسد (خطأ)

٢. قوله (هو موليها) أي : وجهه فحذف أحد المفعولين ، وقيل : (هو) لله تعالى ، أي :الله موليها إياه (صح) .

٣. تفرد أبو عمرو البصري بقراءة (وما الله بغافل عما يعملون) بالغيبة على معنى الوعيد للكافرين ، والباقون بالخطاب على معنى الوعد للمؤمنين (صح)

٤. الممترين : من المرية ، وأصلها من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب (صح) .

٥. الحجة : هي الدلالة البينة والبرهان المثبت للمقصود (صح) .

٦. قوله تعالى : (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) أي : يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم أو يعرفون القبلة كما يعرفون أبناءهم ولكنه يكتمون ذلك (صح) .

٧. قوله (أبناءهم) دليل على أن لفظ الأبناء يطلق على الذكور والإناث (خطأ)

٨. خص الأبناء بالذكر هنا لأنهم أشهر وأعرف ولصحبة الآباء ألزق (صح) .

٩. استدل جمهور العلماء خلافاً للشافعية بقوله تعالى (فاستبقوا الخيرات) على أن الصلاة في أول الوقت أفضل وهو كما قالوا (خطأ) .

١٠. في قوله تعالى (فلا تخشوهم واخشوني) دليل على عدم جواز التقية في أمر الدين كما يفعل الإمامية (صح) .

١١. تكرار الأمر باستقبال القبلة ثلاث مرات دليل على أهمية هذا الأمر وخطورته وأن الفتنة فيه شديدة (صح) .

١٢. ذكر بعض أهل العلم أن تكرار الأمر باستقبال القبلة ثلاث مرات لاختلاف حالات المستقبلين فالأول لمن كان بمكة والثاني لمن كان في بقية البلدان والثالث لمن خرج مسافراً ، وهذا فيه تكلف زائد في تفسير الآيات والله أعلم (خطأ) .

١٣. قوله تعالى في هذه الآية (ولأتم عليكم نعمتي) لا تعارض بينه وبين قوله في سورة المائدة (وأتممت عليكم نعمتي) لأن تمام النعمة في كل وقت بما يليق به (صح) .

١٤. دلت الآيات على أن كفر اليهود إنما هو بسبب الجهل بما جاء به أنبياؤهم من العلم والحق (خطأ) .

١٥. ثبت الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته) (صح) .

١٦. ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال في قوله تعالى (فاذكروني أذكركم) : اذكروني يا معاشر العباد بطاعتي أذكركم بمغفرتي (خطأ) .

١٧. في الآيات دليل على أن العبد إذا ذكر الله تعالى فإن الله يذكره برحمته ومغفرته أكثر من ذكره هو لله (صح) .

١٨. ورد في بعض السنن أن الله تعالى يقول : يا ابن آدم إنك ما ذكرتني شكرتني وإذا ما نسيتني كفرتني (صح) .

١٩. ورد في الأثر عن ابن عباس وابن عمر أن الظالم والفاجر إذا ذكر الله ذكره الله بلعنته حتى يسكت وهما أثران صحيحان (خطأ) .

٢٠. ثبت في الصحيحين وغيرهما في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول : (أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني / فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) (صح) .

٢١. ثبت في الحديث أن النبي ﷺ وصى رجلاً بأن لا يزال لسانه رطباً بذكر الله (صح) .

٢٢. ورد في السنن والمسند أن ذكر الله خير الأعمال وأزكاها عند الله وخير من الإنفاق والجهاد (صح) .

٢٣. ثبت أن من فوائد ذكر الله أن الملائكة تحف الذاكرين وتغشاهم الرحمة ويذكرهم الله فيمن عنده (صح) .

٢٤. ورد في السنن أن لله تعالى ملائكة سيارين في الأرض يلتمسون حلق الذكر فيحفونهم ، وهو حديث ضعيف ولا أصل لما يسمى بحلق الذكر (خطأ) .

٢٥. ثبت في الصحيح أن الله يباهي بأهل الذكر الملائكة (صح) .

٢٦. من تمام شكر الله تعالى أن يطيع العبد ربه ولا يعصيه (صح) .

٢٧. لا يكون العبد شاكراً لله حتى يجعل نعم الله في طاعة الله ولا يستخدمها في معصيته (صح) .

٢٨. قوله تعالى (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) هو النبي ﷺ وإضمار اسمه فيه تفخيم له (صح) .

٢٩. قوله تعالى (فلا تكونن من الممترين) فيه تنبيه على أن النبي ﷺ قد يقع منه الخطأ وليس كما يقوله البعض ولكن خطؤه لا يبقى وإنما يصححه له ربه (خطأ) .

٣٠. المراد بقوله تعالى : (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً) أن الله تعالى يأت بكم من جميع بقاع الأرض إلى موضع بيته (خطأ) .

المحاضرة الستون

***

تفسير الآيات من (١٥٣) إلى (١٥٧) من سورة (البقرة).

التلاوة، والقراءات، والمناسبة.

التلاوة:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ.}

القراءات:

لا يوجد أوجه تتعلّق بالمعنى.

المناسبة:

لما تقدّم أنّ المؤمنين قد سمعوا طعْن الكفار في التّوجّه للكعبة والصلاة إليها، وتأذَّوْا بذلك، أمَرهم الله عند ذلك بالصّبر والصلاة، وقيّد بعضهم ذلك بالصبر على أذى الكفار والصلاة إلى الكعبة.

ولما كان الأذى من الكفار يترقّى إلى القتل، وأعظم درجات الصّبر هو: الصبر في الجهاد في سبيل الله وملاقاة الحِمام، أردف ذلك بمنزلة من يُقتل في سبيل الله عند الله تعالى.

ثم تلا ذلك ذِكْر أنواع من الابتلاءات في الدنيا، سوى أذى الكفار وجهادهم، ممّا يستلزم الصبر المتقدّم ذِكْره.

لغويّات.

{ أَمْوَاتٌ :}جمع ميّت ومَيْت، والموت أنواع بحسب أنواع الحياة، ومنها: زوال القوّة الحاسّة كما في قوله{ :يَا لَيْتَنِي مِتُّ}، وزوال القوة العاقلة، وهي: الجهالة، كما في قوله{ :أَوَ مَنْ

كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}، وغير ذلك ...والمراد هنا: نفْي الموت عن أرواح الشهداء، وقيل: نفْي الحزن عنهم.

{مُصِيبَةٌ :}أصلها في الرّمية، ثم اختصّت بالنائبة، من :أصاب يُصيب، وأصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصّواب .وتأتي في الخير والشر. وقال بعضهم: المصيبة في الخير اعتباراً بالصّوب أي: المطر، وفي الشر اعتباراً بإصابة السهم، والأصل فيهما واحد.

الآثار.

أخرج الحاكم والبيهقي في "الدلائل" عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، قال: غُشي على عبد الرحمن بن عوف في وجَعه غَشية، ظنّوا أنه قد فاضت به نفسُه، حتى قاموا من عنده، وجلّلوه ثوبا وخرجت أم كلثوم بنت عقبة امرأتُه إلى المسجد تستعين بما أُمرت به من الصبر والصلاة. فلبثوا ساعة وهو في غشيته، ثم أفاق.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابيْن: الصبر لله بما أحبّ وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصّبر لله عما كرِه وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا، فهو من الصابرين الذين يسلّم عليهم -إن شاء الله-

وعن علي بن الحسين زين العابدين، قال: إذا جمع الله الأوّلين والآخِرين، ينادي منادٍ: "أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟". قال: فيقوم عنق من الناس فتتلقّاهم الملائكة فيقولون: "إلى أين يا بني آدم؟"، فيقولون: "إلى الجنة"، فيقولون: "قبل الحساب؟!"، قالوا: "نعم". قالوا" :ومَن أنتم؟"، قالوا: "نحن الصابرون". قالوا: "وما كان صبركم؟". قال" :صبرنا في طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفّانا الله ."قالوا: "أنتم كما قلتم. ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين."

وعن سعيد بن جبير: "الصبر: اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه. وقد يجزع الرجل وهو متجلّد لا يُرى منه إلاّ الصبر."

وأخرج ابن مندة في "المعرفة"، من طريق السدي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: قُتل تميم بن الحمام ببدر، وفيه وفي غيره نزلت{ :وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ }...الآية.

وعن سعيد بن حبير، في قوله{ :لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، قال: "في طاعة الله، في قتال المشركين."

وعن أبي العالية، في قوله{ :وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ}، قال: "يقول: هم أحياء في صوَر طيْر خُضرٍ يطيرون في الجنة حيث شاؤوا، ويأكلون من حيث شاؤوا."

و عن عكرمة، في قوله تعالى{ :وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ }...الآية، قال : "أرواح الشهداء طيْر بِيض فقاقيع في الجنة."

وعن كعب، قال: "جنّة المأوى فيها طيْر خُضر ترتقي فيها أرواح الشهداء في أجواف طير خضر. وأولاد المؤمنين الذين لم يبلغوا الحنث عصافير من عصافير الجنة ترعى وتسرح."

وعن قتادة، قال: "بلغنا أنّ أرواح الشهداء في صوَر طيْر بِيض تأكل من ثمار الجنة"، وقال الكلبي، عن النبي –صلى الله عليه وسلم)) :–في صورة طيْر بِيض، تأوي إلى قناديل معلّقة تحت العرش .((

وعن قتادة{ :وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ}، قال: ذكر لنا: أنّ أرواح الشهداء تَعارَف في طير بيض، تأكل من ثمار الجنّة، وإن مساكنهم السِّدرة، وأن الله أعطى المجاهد ثلاث خصال من الخير: مَن قُتل في سبيل الله حياً مرزوقاً، ومن غلب آتاه الله أجره عظيماً، ومن مات رزقه الله رزقاً حسناً.

وعن مجاهد في قوله{ :بَلْ أَحْيَاءٌ}، قال: يُرزقون من ثمر الجنة، ويجدون ريحها وليسوا فيها.

وعن الحسن: أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الرَّوْح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشياً، فيصل إليهم الوجع .

وأخرج مالك، وأحمد، والترمذي وصحّحه، والنسائي، وابن ماجة، عن كعب بن مالك: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم –قال)) :إن أرواح الشهداء في أجواف طيْر خُضْر تَعْلَق من ثمر الجنة، ترعى من أعلاه.((

وأخرجه أحمد بلفظ)) :نَسمة المؤمن طائر تعْلَق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه.((

وأخرج عبد الرزاق في "المصنف"، عن عبد الله بن كعب بن مالك، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم)) :–أرواح الشهداء في صوَر طيْر خُضر مُعلّقة في قناديل الجنة، حتى يرجعها الله يوم القيامة.((

وأخرج النسائي، والحاكم وصحّحه، عن أنس، قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم :–))يؤتَى بالرجل من أهل الجنّة فيقول الله له: "يا ابن آدم، كيف وجدتَ منزلك؟" فيقول" :أي ربّ، خير منزل". فيقول: "سَلْ وتمَنَّ". فيقول: "وما أسألك وأتمنّ؟ أسألك أن تردّني إلى الدنيا فأُقتَل في سبيل الله عشر مرات"، لما يرى من فضل الشهادة.((

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في "شعب الإيمان"، عن ابن عباس، في قوله{ :وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ }...الآية، قال: "أخبر الله المؤمنين أنّ الدنيا دار بلاء، وأنه مُبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر وبشّرهم فقال{ :وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}، وأخبر أنّ المؤمن إذا سلّم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة، كتب الله له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتحقيق سبل الهدى". وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–مَن استرجع عند المصيبة، جبَر الله مصيبتَه وأحسن عُقباه، وجعل له خَلَفاً صالحاً يرضاه.((

وعن عطاء في قوله{ :وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ}، قال" :هم أصحاب محمد– صلى الله عليه وسلم."–

وعن جويبر قال: كتب رجل إلى الضحاك يسأله عن هذه الآية{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } أخاصة هي أم عامة؟ فقال: "هي لِمن أخذ بالتقوى وأدّى الفرائض."

وعن سعيد بن جبير، في قوله{ :وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}، قال :ولنبتليكم، يعني: المؤمنين{ .وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}، قال: على أمر الله في المصائب، يعني: بشِّرْهُم بالجنة{ .أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ }يعني: على مَن صبر على أمر الله عند المصيبة،{ صَلَوَاتٌ }يعني: مغفرة{ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ }يعني: رحمة لهم، وأمنة من العذاب{ .وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ }يعني: من المهتدين بالاسترجاع عند المصيبة.

وعن رجاء بن حيوة، في قوله{ :وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ}، قال: "يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلاّ تمرة."

وعن رجاء بن حيوة عن كعب مثله.

وأخرج الطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال النبي- صلى الله عليه وسلم :-))أعطيَتْ أمّتي شيئاً لم يُعطه أحدٌ من الأمم: أن يقولوا عند المصيبة{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .((}

عن سعيد بن جبير، قال: لقد أعطيَتْ هذه الأمة عند المصيبة شيئاً لم تُعطَه الأنبياء من قبْلهم، ولو أُعطِيَها الأنبياء لأُعطيَها يعقوب، إذ يقول{ :يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ{ :}إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .}

عن قتادة{ :الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}، قال" :من استطاع أن يستوجب لله في مصيبته ثلاثاً: الصلاة، والرحمة، والهدى، فليفْعلَ، ولا قوة إلا بالله؛ فإنه من استوجب على الله حقاً بحق، أحقّه الله له، ووجد الله وفياً."

وعن عمر بن الخطاب، قال: "نِعْم العدلان، ونعم العلاوة{ :الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ :}نعم العدلان{ .وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ :}نعم العلاوة."

والعلاوة: هي ما توضع بين العدليْن، وهي زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أُعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً.

قال سعيد بن جبير{ :صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ }أي: أمنة من العذاب،{ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ.}

وعن عبد الله بن عمرو، قال: "أربع مَن كنّ فيه بنى الله له بيتاً في الجنة: من كان عصمة أمره: "لا إله إلاّ الله"، وإذا أصابته مصيبة قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، وإذا أُعطي شيئاً قال: "الحمد لله"، وإذا أذنب ذنباً قال: "أستغفر الله."

وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء، عن علي، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :-))من صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بيْن السماء والأرض.((

وعن يونس بن يزيد، قال: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن :ما منتهى الصبر؟ قال: "يكون يوم تصيبه المصيبة مثلَه قبل أن تصيبه."

وعن عمر بن عبد العزيز: أن سليمان بن عبد الملك قال له عند موت ابنه: أيصبر المؤمن حتى لا يجد لمصيبته ألماً؟ قال: "يا أمير المؤمنين، لا يستوي عندك ما تحبّ وما تكره ولكن الصبر معول المؤمن."

وأخرج أحمد، وابن ماجة، والبيهقي في "شعب الإيمان"، عن الحسين بن علي، عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال)) :ما مِن مسلم يُصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها، فيحدث لذلك استرجاعاً إلاّ جدّد الله له عند ذلك فأعطاه مثلَ أجرها يوم أصيب.((

وأخرج سعيد بن منصور، والعقيلي في "الضعفاء" من حديث عائشة مثله.

وأخرج الحكيم الترمذي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :-))ما مِن نعمة وإن تقادم عهدُها، فيجدّد لها العبد الحمدَ إلاَ جدّد الله له ثوابَها .وما مِن مصيبة وإن تقادم عهدُها، فيجدّد لها العبدُ الاسترجاعَ إلاّ جدّد الله له ثوابَها وأجْرَها.((

وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء، عن سعيد بن المسيب، رفعه)) :مَن استرجع بعد أربعين سَنة، أعطاه الله ثواب مصيبَتِه يوم أُصيبَها.((

وأخرج ابن أبي الدنيا عن كعب، قال" :ما مِن رجل تصيبه مصيبة فيذكرها بعد أربعين سَنة فيسترجع، إلاّ أجرى الله له أجرَها تلك الساعة كما أنه لو استرجع يوم أُصيب."

وأخرج أحمد، والبيهقي في "شعب الإيمان"، عن أمّ سلمة، قالت :أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: لقد سمعت من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قولاً سُررت به قال)) :لا يُصيب أحداً من المسلمين مُصيبةٌ فيسترجع عند مصيبته، ثم يقول: "اللهم أجِرْني في مصيبتي، وأخلفْ لي خيراً منها"، إلاّ فعل ذلك به .((قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه. فلمّا توفّي أبو سلمة استرجعت وقلت" :اللهم أجِرْني في مصيبتي، وأخلفْ لي خيراً منها". ثم رجعت إلى نفسي فقلت: مِن أين لي خيْر من أبي سلمة؟ فلما

انقضت عدّتي)) استأذن عليّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأنا أدبغ إهاباً لي، فغسلت يدي من القرظ وأذنت له. فوضعت وسادة أدم حشوها ليف، فقعد عليها فخطبني إلى نفسي. فلمّا فرغ من مقالته، قلت: يا رسول الله، ما بي أن لا يكون بك الرغبة، ولكنني امرأة في غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذِّبني الله به، وأنا امرأة قد دخلتُ في السّنّ، وأنا ذات عيال. فقال: ((أمّا ما ذكرتِ من الغيرة، فسوف يُذهبها الله– عز وجل– عنك. وأمّا ما ذكرتِ من السِّنّ فقد أصابني مثل الذي أصابك. وأمّا ما ذكرتِ من العيال فإنّما عيالك عيالي)). قالت :فقد سلّمت لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–. فتزوجها رسول الله –صلى الله عليه وسلم .((–فقالت أم سلمة بعد" :أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه: رسول الله –صلى الله عليه وسلم."–

وأخرجه مسلم مختصراً .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–إنّ للموت فزعاً، فإذا أتى أحدكم وفاة أخيه فلْيقلْ{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ{ }وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ.({)

وأخرج ابن أبي الدنيا في العزاء، عن أبي بكر بن أبي مريم: سمعت أشياخاً يقولون: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :إنّ أهل المصيبة لتنزل بهم فيجزعون، وتسور عنهم، فيمر بها مارّ من الناس فيقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فيكون فيها أعظم أجراً من أهلها.((

وأخرج ابن السّنّي في "عمل يوم وليلة"، عن أبي إدريس الخولاني، قال)) :بينا النبي –صلى الله عليه وسلم– يمشي هو وأصحابه إذ انقطع شسعه، فقال{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، قال: ومصيبة هي؟ قال: نعم. كل شيء ساء المؤمنَ فهو مصيبة.((

وله طُرق أخرى.

وأخرج البزار بسند ضعيف، والبيهقي في "شعب الإيمان"، عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :إذا انقطع شسعُ أحدِكم فلْيسترجعْ لأنها مِن المصائب.((

والقبال والشسع: زمام النّعل بين الأصبع الوسطى والتي تليها.

وعن عوف بن عبد الله، قال: "مَن انقطع شسعُه فليقلْ{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فإنها مصيبة."

وكان ابن مسعود يمشي فانقطع شسعُه، فاسترجع، فقيل: يسترجع على مثل هذا؟ قال: مصيبة."

وعن عمر بن الخطاب: أنه انقطع شسعُه فقال{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فقيل له: مالك؟ فقال: "انقطع شسعي فساءني، وما ساءك فهو لك مصيبة."

وأخرج ابن أبي الدنيا في الأمل، والديلمي، عن أنس: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– رأى رجلاً اتّخذ قبالاً من حديد، فقال)) :أمّا أنت أطلتَ الأمَل. إنّ أحدَكم إذا انقطع شسعُه فقال{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، كان عليه من ربِّه الصلاة والهدى والرحمة؛ وذلك خير له من الدنيا .((

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في العزاء، عن عكرمة، قال: طفئ سراج النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال{()) :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فقيل: يا رسول الله، أمصيبة هي؟ قال)) :نعم. وكلّ ما يُؤذي المؤمنَ فهو مصيبة له وأجر.((

وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عبد العزيز بن أبي رواد، قال :بلغني أنّ المصباح طفئ، فاسترجع النبي –صلى الله عليه وسلم– قال)) :كلّ ما ساءك مصيبة.((

وأخرج الديلمي عن عائشة، قالت)) :أقبل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقد لدَغتْه شوكة في إبهامه، فجعل يسترجع منها ويمسحها. فلمّا سمعت استرجاعه دنوت منه فنظرت، فإذا أثر حقير، فضحكت، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أكلّ هذا الاسترجاع من أجل هذه الشوكة؟ فتبسّم ثم ضرب على منكبي، فقال: يا عائشة، إن الله –عز وجل– إذا أراد أن يجعل الصغير كبيراً جعله، وإذا أراد أن يجعل الكبير صغيراً جعلَه.((

وعن الحسن قال: "إذا فاتتك صلاة في جماعة فاسترجعْ، فإنها مصيبة."

وعن سعيد بن المسيب: أنه جاء وقد فاتتْه الصلاة في الجماعة، فاسترجع حتى سمع صوته خارجاً من المسجد.

وأخرج عبد الرزاق في "المصنف"، وعبد بن حميد، عن الحسن، قال :قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–الصّبر عند الصدمة الأولى، والعَبرة لا يملكها ابن آدم، صبابة المرء إلى أخيه.((

وعن خيثمة قال: لما جاء عبد الله بن مسعود نَعْيُ أخيه عتبة دمعتْ عيناه، فقال: "إن هذه رحمة جعلها الله، لا يملكها ابن آدم."

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أنس: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– رأى امرأة تبكي على صبيّ لها، فقال لها)) :اتقي الله واصبري((!، فقالت: وما تبالي أنت مصيبتي. فلما ذهب، قيل لها: إنه رسول الله. فأخذها مثل الموت، فأتت بابه، فلم تجد عليه بوّابِين فقالت: لم أعرفك يا رسول الله. فقال)) :إنّما الصبر عند أوّل صدمة .((

وأخرج البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال)) :يقول الله تعالى: ما لِعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضْتُ صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتَسَبَه إلاّ الجنّة.((

وأخرج أحمد، والترمذي وحسّنه، والبيهقي في "شُعب الإيمان"، عن أبي سنان قال: دفنت ابناً لي، فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة –يعني: الخولاني–، فأخرجني وقال لي: ألا أبشّرك؟ قلت :بلى. قال: حدّثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–قال الله: يا ملَك الموت، قبضتَ ولدَ عبدي؟ قبضتَ قرّة عينِه وثمرةَ فؤادِه؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: ابْنُوا له بيتاً في الجنّة، وسمُّوه بيتَ الحمد.((

وأخرج أحمد، عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم)) :–ما من مسلمَيْن يُتوفّ لهما ثلاثة إلاّ أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته إيّاهم. فقالوا: يا رسول الله، أو اثنان؟ قال: أو اثنان. قالوا: أوْ واحد؟ قال: أو واحد. ثم قال: والذي نفسي بيده! إنّ السّقط ليجرّ أمه بسرَره إلى الجنة إذا احتسبتْه.((

وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنه مات ابنه عبد الله، فخرج وهو مترجّل في ثياب حسنة، فقيل له في ذلك. فقال :قد وعدني الله على مصيبتَيْن ثلاثَ خصال، كلّ خصلة منها أحبّ إليّ من الدنيا كلّها. قال الله{ :الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ }إلى قوله {الْمُهْتَدُونَ}، أفأستكين لها بعد هذا؟

وقد ساق السيوطي عدّة أحاديث في الصبر على فقْد الولد، وما ذكرناه فيه الكفاية.

أقوال المفسّرين.

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، شرع في بيان الصبر والإرشاد، والاستعانة بالصبر والصلاة؛ فإن العبد إمّا أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها، كما جاء في الحديث)) :عجباً للمؤمن! لا يقضي الله له قضاء إلاّ كان خيراً له! إنْ أصابتْه سرّاءُ فشكر كان خيراً له، وإن أصابتْه ضرّاءُ فصبَر كان خيراً له.((

وبيّن تعالى أنّ أجود ما يستعان به على تحمّل المصائب: الصّبر والصّلاة، كما تقدّم في قوله{ :وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}، وفي الحديث: أنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان إذا حزبه أمرٌ صلّى. والصبر صبران: فصبْر على ترْك المحارم والمآثم، وصبْر على فعْل الطاعات والقربات. والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود. وأمّا الصبر الثالث، وهو: الصبر على المصائب والنوائب، فذاك أيضاً واجب كالاستغفار من المعايب.

والمراد: استعينوا بالصّبر على الذّكر والشّكر وسائر الطاعات، من الصوم، والجهاد، وترْك المبالاة بطعن المعاندين في أمْر القبلة.

وقوله{ :إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ :}معيّة خاصة بالعون والنصر، ولم يقُل: "مع المصلّين" لأنه إذا كان مع الصابرين كان مع المصلّين من باب أوْلى لاشتمال الصلاة على الصبر.

وقوله{ :لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }أي: في طاعته وإعلاء كلمته، وهم الشهداء . {أَمْوَاتٌ }أي: هم أموات{ .بَلْ أَحْيَاءٌ }أي: بل هم أحياء. والمقصود إثبات الحياة لهم، لا أمرهم بأن يقولوا في شأنهم إنهم أحياء، وإن كان ذلك أيضاً صحيحاً{ .وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ }أي: لا تُحسّون ولا تدركون ما حالُهم بالمشاعر، لأنها من أحوال البرزخ التي لا يطّلع عليها ولا طريقَ للعلْم بها إلاّ بالوحي.

ثم إنّ نهي المؤمنين عن أن يقولوا في شأن الشهداء: "أموات"، إمّا أن يكون دفْعاً لإيهام مساواتهم لغيرهم في ذلك البرزخ، وتلك خصوصية لهم وإن شاركهم في النعيم بل وزاد عليهم بعض عباد الله تعالى المقرّبين ممّن يُقال في حقهم ذلك، وإمّا أن يكون صيانة لهم عن النطق بكلمة قالها أعداء الدّين والمنافقون في شأن أولئك الكرام، قاصدين بها أنهم

حُرموا من النعيم ولم يروه أبداً. وليس في الآية نهْي عن نسبة الموت إليهم بالكلِّيّة بحيث إنهم ما ذاقوا أصلاً ولا طرفة عين، وإلا لقال تعالى: "وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ماتوا"، فحيث عدل عنه إلى ما ترى، عُلم أنهم امتازوا بعد أن قُتلوا بحياة لائقة بهم، مانعة عن أن يقال في شأنهم: "أموات ."

وفي أحد ألفاظ حديث كعب، في حديث حياة الشهداء البرزخية، دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خُصّصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً.

قلت: الذي يظهر لي: أنّ هذا اللفظ العامّ في المؤمن يحتاج إلى نظر، فمخرج الحديث واحد، وحمْله على الشهيد أظهر- والله أعلم .-

ثم أخبرنا تعالى: أنه يبتلي عباده- أي: يختبرهم ويمتحنهم-، كما قال تعالى{ :وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}، فتارة بالسَّرَّاء، وتارة بالضّرّاء من خوف وجوع، كما قال تعالى{ :فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوْفِ}، فإن الجائع والخائف كلّ منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال{ :لِبَاسَ الجُوعِ والخَوْفِ}، وقال ها هنا : {بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ }أي: بقليل من ذلك،{ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ }أي، ذهاب بعضها،{ وَالأَنْفُسِ }كموت الأصحاب والأقارب والأحباب،{ وَالثَّمَرَاتِ }أي :لا تغلّ الحدائق والمزارع كعادتها. قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله ممّا يختبر الله به عباده؛ فمَن صبرَ أثابه، ومَن قنَط أحلّ به عقابه، ولهذا قال تعالى{ :وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ .}وقد حكى بعض المفسرين أنّ المراد من الخوف ها هنا: خوف الله، وبالجوع :صيام رمضان، وبنقص الأموال: الزكاة، والأنفس: الأمراض، والثمرات: الأولاد. قال ابن كثير: وفي هذا نظر -والله أعلم.-

قلت: حكاه الزمخشري والآلوسي عن الشافعي- رحمه الله.-

وقال الآلوسي: واعترض ما قاله الإمام، بعد تسليم أنّ الآية نزلت قبل فرضية الصوم والزكاة، بأنّ خوف الله تعالى لم تزل قلوب المؤمنين مشحونة به قبل نزول الآية، وكذا الأمراض وموت الأولاد موجودان قبْل، فلا معنى للوعد بالابتلاء بذلك. وكذا لا معنى للتعبير عن الزكاة -وهي النمو والزيادة- بالنقص، وأجيب بأنّ كوْن قلوب المؤمنين مشحونة بالخوف قبْل لا ينافي ابتلاءهم في الاستقبال بخوف آخَر، فإنّ الخوف يتضاعف

بنزول الآيات، وكذا الأمراض وموت الأولاد أمور متجدِّدة يصحّ الابتلاء بها في الآتي من الأزمان. والتعبير عن الزكاة بالنقص لكونها نقصاً صورة وإن كانت زيادة معنى، فعند الابتلاء سمّاها نقصاً وعند الأمر بالأداء سمّاها زكاة يسهل أداؤها.

ثم بيّن تعالى مَن الصابرون الذين شكرهم، فقال{ :الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }أي :تسلّوْا بقولهم هذا عمّا أصابهم، وعلموا أنهم ملْك لله يتصرّف في عبيدة بما يشاء، وعلموا أنه لا يَضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة؛ ولهذا أخبر تعالى عمّا أعطاهم على ذلك فقال{ :أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ }أي: ثناء من الله عليهم.

وقد ورد في ثواب الاسترجاع، وهو قول{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }عند المصائب، أحاديث كثيرة تقدّم جملة منها .

وقوله تعالى{ :أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}؛ الصلاة في الأصل –على ما عليه أكثر أهل اللغة-: الدعاء، ومِن الله تعالى: الرحمة، وقيل :الثناء، وقيل: التعظيم، وقيل: المغفرة، وقال الإمام الغزالي: الاعتناء بالشأن، ومعناها الذي يناسب أن يراد هنا –سواء كان حقيقياً أو مجازياً-: الثناء والمغفرة، لأن إرادة الرحمة يستلزم التكرار.

وقوله{ :عَلَيْهِمْ :}أتى ب"على "إشارة إلى أنهم منغمسون في ذلك وقد غشِيهم، وبلّلهم فهو أبلغ من اللام، وجمع{ صَلَوَاتٌ }للإشارة إلى أنها مشتملة على أنواع كثيرة على حسب اختلاف الصفات التي بها الثناء والمعاصي التي تتعلّق بها المغفرة.

{هُمُ الْمُهْتَدُونَ :}هو الاهتداء للحق والصواب مطلقاً، والجملة مقرّرة لما قبل، كأنه قيل: وأولئك هم المختصّون بالاهتداء لكلّ حق وصواب، ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى.

المعنى الإجمالي.

يأمر سبحانه عباده المؤمنين أن يستعينوا بأمريْن عظيميْن وهما: الصبر والصلاة، على ما يتعرّضون له في هذه الحياة مِن أذىً من الكافرين، وبلاءات، وغير ذلك... فيصبرون على

طاعة الله وما أمَرهم به، ويصبرون عن معصية الله وما نهاهم عنه، ويصبرون على المصائب والمِحن، ويفزعون إلى الصلاة التي تربطهم بربهم سبحانه. وأخبرهم -جلّ وعلا- أنه معهم معيّة خاصة بهم، ينصرهم ويُعينهم، طالما اتّصفوا بهذا الخُلق العظيم وهو: الصبر.

ثم نهاهم سبحانه أن يعتقدوا كاعتقاد غير المؤمنين فيمن يُبتلى بمصيبة القتل في الجهاد في سبيل الله، أنهم قد ماتوا وانقطعت عنهم الحياة بجميع صوَرها، وأمَرهم أن يعتقدوا فيهم حياة برزخية تليق بهم؛ فأرواحهم يجعلها الله عنده في جنات نعيمه، في حواصل طيْر خُضر تتمتّع بنعيم الجنة، وتسرح حيث شاءت، وتُرزق فيها رزقاً حسناً إلى يوم القيامة.

ثم أخبر الله عباده المؤمنين بأنّ هذه الدنيا دار بلاء وامتحان، وأنه سبحانه يمحّص عباده بذلك فيبتليهم بالمصائب، كشعورهم أحياناً بالخوف وفقدان الأمن، وقلّة الطعام والجوع، وفقْدهم شيء من مالهم، أو فقدهم بعض أحبابهم، أو ما قد يصيبهم مِن قحْط ونقص في الثمار، وذلك ليظهر المؤمن الصادق الذي يقابل ذلك بالصبر، فيستحقّ البشارة من الله حيث بيّن سبحانه أنّ هذا المؤمن الذي تصيبه المصيبة فلا يجزع، وإنما يصبر عند الصدمة الأولى ويسترجع، فيقول{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فيسلّم الأمرَ لله وحده، له عند الله تعالى مقابل ذلك: الصلوات، وهي :الخيرات المتتابعة منه سبحانه، من غفران للذنوب، والثناء العطر، والثواب الجزيل، والرحمة به في مصابه، وإبداله خيراً ممّا فقد، وزيادة على ذلك: الشهادة له بأنه هو المستحِقّ للوصف بأنه المهتدي إلى الحقّ والطريق المستقيم.

مسائل الآيات.

الأولى:

اختلف في هذه الحياة -أي: حياة الشهداء :-

فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقية، بالروح والجسد، ولكنّا لا ندركها في هذه النشأة، واستدلّوا بسياق قوله تعالى{ :عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، وبأنّ الحياة الروحانية التي ليست بالجسد ليست مِن خواصّهم، فلا يكون لهم امتياز بذلك على مَن عداهم .

وذهب البعض إلى أنّها روحانيّة، وكونهم يُرزقون لا ينافي ذلك. فقد رُوي عن الحسن: أنّ الشهداء أحياء عند الله تعالى، تعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصِل إليهم الرّوْح والفرح، كما

تعرض النار على أرواح آل فرعون غُدُوّاً وعشياً فيصل إليهم الوجع. فوصول هذا الرّوْح إلى الرُّوح هو الرّزق، والامتياز ليس بمجرّد الحياة بل مع ما ينضمّ إليها من اختصاصهم بمزيد القرب من الله –عز شأنه –ومزيد البهجة والكرامة .

وذهب البلخي إلى نفْي الحياة بالفعل عنهم مطلقاً، وأخرج الجملة الاسمية الدّالّة على الاستمرار المستوعب للأزمنة من وقت القتل إلى ما لا آخر له، عن ظاهرها، وقال: معنى {بَلْ أَحْيَاءٌ :}أنهم يحيَوْن يوم القيامة، فيُجزوْن أحسن الجزاء. فالآية على حدّ{ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}، وفائدة الإخبار بذلك: الرّدّ على المشركين حيث قالوا: إنّ أصحاب محمد يَقتلون أنفسهم، ويخرجون من الدنيا بلا فائدة، ويُضيعون أعمارهم، فكأنه قيل: ليس الأمر كما زعمتم، بل يَحيَوْن ويخرجون .

وذهب بعضهم إلى إثبات الحياة الحُكمية لهم، بما نالوا من الذِّكر الجميل والثناء الجليل.

قال الآلوسي: ولا يخفى أنّ هذه الأقوال ما عدا الأوّليْن في غاية الضعف، بل نهاية البطلان.

والمشهور: ترجيح القول الأوّل، ونسَب إلى ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وعمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، والجبائي، والرماني، وجماعة من المفسرين، لكنهم اختلفوا في المراد بالجسد، فقيل: هو هذا الجسد الذي هدمت بنْيتُه بالقتل، ولا يعجز الله تعالى أن يحلّ به حياة تكون سبب الحسّ والإدراك، وإن كنّا نراه رمّة مطروحة على الأرض لا يتصرف ولا يُرى فيه شيء من علامات الأحياء. فقد جاء في الحديث)) :إنّ المؤمن يُفسح له مدّ بصرِه، ويُقال له: نَمْ نَوْمة العروس((، مع أنّا لا نشاهد ذلك، إذ البرزخ برزخ آخر، بمعزل عن أذهاننا وإدراك قُوانا. وقيل :جسد آخَر على صورة الطير تتعلّق الروح فيه، واستدلّ بما تقدّم من أحاديث. وقيل: جسد آخَر على صوَر أبدانهم في الدنيا، بحيث لو رأى الرائي أحدَهم لقال: رأيت فلاناً؛ وإلى ذلك ذهب بعض الإمامية.

قال الألوسي: وأمّا القول بحياة هذا الجسد الرميم مع هدْم بنيَتِه وتفرّق أجزائه وذهاب هيئته، وإن لم يكن ذلك بعيداً عن قدرة من يبدأ الخَلْق ثم يُعيده، لكن ليس إليه كثير حاجة، ولا فيه مزيد فضل ولا عظيم منّة، بل ليس فيه سوى إيقاع ضعفة المؤمنين بالشكوك والأوهام، وتكليفهم من غير حاجة بالإيمان بما يعدّون قائله من سفهة الأحلام .وما يحكى من مشاهدة بعض الشهداء الذين قُتلوا منذ مئات السنين وأنهم إلى اليوم تشخب جروحهم دماً

إذا رفعت العصابة عنها، فذلك مما رواه هيّان بن بيّان وما هو إلاّ حديث خرافة، وكلام يشهد على مصدّقيه تقديم السخافة.

قلت: سبحان الله! ما أعظم هذه المجازفة من الآلوسي وهو يُنكر مُشاهَداً صحّت به الآثار ولا زال يصحّ بين الفينة والأخرى. وليس هذا بمستلزم حصوله لجميع الشهداء، ولا أن يكون تفسيراً للآية، ولكنه كرامة من الله لبعض مَن استُشهد في سبيله، أمثال عمرو بن حرام، وعمر بن الخطاب، وغيرهما ...نسأل الله أن يرزقنا الشهادة مُقبِلين غير مُدبِرين.

الثانية:

ليس الصبر بالاسترجاع باللسان، بل الصبر باللسان وبالقلب، بأن يخطر بباله ما خلق لأجله من معرفة الله تعالى وتكميل نفسه، وأنه راجع إلى ربه وعائد إليه بالبقاء السرمدي، ومرتحِل عن هذه الدنيا الفانية وتارك لها على علاتها، ويتذكر نعَم الله تعالى عليه ليرى ما أعطاه أضعاف ما أخذ منه، فيهون على نفسه ويستسلم له .والصبر من خواص الإنسان لأنه يتعارض فيه العقل والشهوة، والاسترجاع من خواص هذه الأمة.

نكتفي بهذا القدر. وبما سبق من محاضرات يكون قد اكتمل المنهج لهذا الفصل الدراسي.

أسأل الله لي ولكم التوفيق والنجاح في الدنيا والآخرة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأسئلة :

١. قرأ بعض السبعة (ولا تقولوا لمن تقتل) بالتاء بدل الياء على إضمار النفس التي تقتل (خطأ) .

٢. أمر الله تعالى المؤمنين بالصبر والصلاة بعد ذكر أذى الكفار لأن ذلك من أهم ما يعين على الأذى والبلاء ، ثم ذكر أشد أنواع الابتلاءات وهو القتل (صح) .

٣. الموت أنواع على حسب أنواع الحياة ، والمراد هنا نفي الموت عن أرواح الشهداء (صح)

٤. المصيبة من إصابة السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب (صح) .

٥. المصيبة لا تأتي إلا بالشر بخلاف البلاء فيأتي بالخير والشر (خطأ) .

٦. ذكر بعض السلف أن الصبر على نوعين : صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله (صح) .

٧. عن سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر (صح) .

٨. ثبت أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث تشاء (صح) .

٩. المراد بالقتل في سبيل الله من قتل في المعركة مع الكفار مهما كانت نيته (خطأ) .

١٠. ورد أنه ما من أحد من أهل الجنة يتمنى أن يرجع إلى الدنيا مرة ثانية إلا الشهيد لما يرى من ثواب الله تعالى له (صح) .

١١. في هذه الآية دليل على أن المؤمن لا بد له من الابتلاء لأن هذه الدنيا دار ابتلاء (صح) .

١٢. ورد في الآثار أن قول إنا لله وإنا إليه راجعون مما أعطيته هذه الأمة خاصة (صح).

١٣. عن عمر بن الخطاب أنه قال : نعم العدلان ونعم العلاوة ، ويقصد بالعلاوة قوله تعالى (وأولئك هم المهتدون) (صح) .

١٤. وأخرج أحمد وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسين بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعا إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب (صح) .

١٥. ثبت عن النبي ﷺ أنه لا يصاب أحد بمصيبة فيسترجع ثم يقول : اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها ، إلا فعل الله ذلك به (صح) .

١٦. ثبت في الصحيح أن من انقطع شعث نعله فليقل إنا لله وإنا إليه راجعون لأنها من المصائب (خطأ) .

١٧. ثبت أن النبي ﷺ قال : (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) (صح) .

١٨. ما ورد من أن الصبر إنما هو عند الصدمة وأن ما بعد ذلك لا يكون صبراً غير صحيح والأثر الوارد فيه ضعيف (خطأ) .

١٩. ثبت في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة (صح)

٢٠. المراد بالمعية في قوله تعالى (إن الله مع الصابرين) المعية العامة لكل الخلق فإنه كما قال تعالى لا يكون من نجوى اثنين إلا والله ثالثهما ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم أينما كانوا (خطأ) .

٢١. معية الله للصابرين معية خاصة تقتضي العون والنصرة (صح) .

٢٢. قال تعالى (إن الله مع الصابرين) ولم يقل مع المصلين لأن الصبر يشتمل على الصلاة (خطأ) .

٢٣. نهي المؤمنين أن يقولوا للشهداء أموات دفعاً لتوهم مساواتهم لغيرهم في البرزخ فإن في ذلك خصوصية لهم (صح) .

٢٤. ورد عن جماعة من المفسرين أن الخوف المذكور في الآية هو الخوف من الله وأن المقصود بالجوع صيام رمضان وبنقص الأموال والأنفس والثمرات الزكاة والأمراض والأولاد ، ورجحه ابن كثير رحمه الله (خطأ) .

٢٥. الصلاة في الأصل عند أكثر أهل اللغة الدعاء ومن الله الرحمة (صح) .

٢٦. الإشارة بعلى في قوله تعالى (أولئك عليهم صلوات) للدلالة على ارتفاعهم وعلوهم عن غيرهم بما كسبوه من الإيمان (خطأ) .

٢٧. جمع (صلوات) للدلالة على أهمية هذه الصلوات التي هي من الله تعالى (خطأ) .

٢٨. اختلف السلف في حياة الشهداء في البرزخ والصحيح أنها حياة حقيقية لا يعلم طبيعتها إلا الله تليق بحال أهل البرزخ (صح) .

٢٩. دلت الآية على أن استرجع عند المصيبة فهو من الصابرين ولا يشترط أن يستحضر بقلبه معنى ما يقول (خطأ) .

٣٠. رد الألوسي على ما ورد من أن الشهيد لا يفنى جسده بكلام لا طائل تحته والصحيح أن الآثار والمشاهدة دليل على أن هذا الأمر من الكرامة للشهداء إذا شاء الله أن يكون كان (صح) .